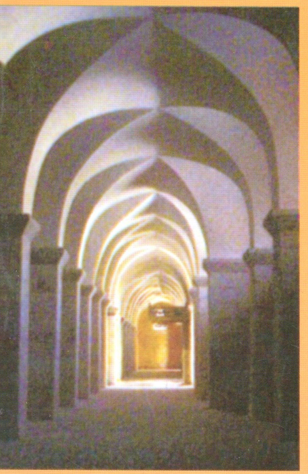
عدد مزدوج

ملف الأطفال

خريف وشتاء ٢٠٠٥



حلب المحروسة تتهيأ للعُرس



المنمنمات العربيّة بين حلب وأصفهان

ضيفة خاتون.. ملكة حلب

القصر الأيوبي في قلعة حلب

مقابلة مع باولو ماتييه

العاديّات

فصلية تعنى بشؤون التراث والفكر



تصدرها في حلب جمعية العاديات السورية

بموجب الترخيص رقم ٧٨٧٣/٢٠٠٣

المدير المسؤول رئيس التحرير

محمد قجة

مدير التحرير

محمد جمال طحان

المدير التنفيذي

تميم قاسمو

الاستشاري الفني

غسان قصير

شارك في التحرير

نجوى عثمان - عبد الله حجار

حميدو حمادة - الكسندر كشيشيان

الاشتراك السنوي

سورية: ٣٠٠ ل. س "بدون أجور بريد" - ٤٠٠ مع أجور البريد

الدوائر الرسمية والمؤسسات والهيئات العامة: ١٠٠٠ ل.س

خارج سورية: ٥٠ دولاراً أمريكياً، للمؤسسات ١٥٠ دولاراً أمريكياً

ثمن النسخة في سورية: ٧٥ ل.س، العدد المزدوج: ١٢٥ ل.س

مجلة العاديات:

- ص. ب ٦٤٧٤
- هاتف وفاكس: ٢٢٦٧٦٧٤ - ٢٢٨٥٧٣٠
- الموقع على الإنترنت: www.adyatsyria.com
- البريد الإلكتروني: Email: adyat@scs-net.org

شروط النشر في المجلة

يسرّ أسرة تحرير مجلة العاديات أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الكتاب والمثقفين والباحثين في التراث والفكر.

وترى أسرة التحرير أن تكون المواد المرسلة وفق الشروط الآتية:

- أن تراعي المادة المرسلة قواعد البحث العلمي من حيث الموضوعية والمنهجية وذكر المصادر والمراجع.
- تراجع المواد المرسلة من قبل أسرة التحرير، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حال عدم نشرها.
- تفتح المجلة أبوابها للحوار حول الموضوعات المنشورة.
- ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية.
- ألا تتجاوز المادة المقدمة للنشر عشرين صفحة، و أن تكون مرفقة بالصور والمخططات الموضحة للموضوع.
- الآراء الواردة في المجلة تمثل وجهة نظر أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.
- يحصل المساهم في المجلة على نسختين مجانيتين من العدد الذي ساهم فيه.
- توجه المراسلات باسم مدير التحرير.

ترسل المواد إلى المجلة عن طريق بريدها الإلكتروني أو على قرص مرن مرفق بنسخة مطبوعة على الورق.

العنوان البريدي: ص. ب ٦٤٧٤ حلب، سورية

أو تسلم باليد في جمعية العاديات، شارع اسكندرون، جانب صالة معاوية

ننتظر مساهمتكم في تحرير هذه المجلة سواء بالكتابة فيها أو تقديم أي اقتراح يفيد في تحسين أدائها، وجعلها لائقة بجمعيتنا العريقة.

التحرير

الوجه الحضاريّ للإسلام

الشيخ الدكتور أحمد بدر الدين حسّون*

بسم الله الرحمن الرحيم

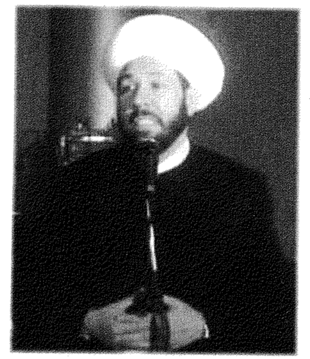
الحمد لله رب العالمين..

الحمد لله الذي خاطب الرسول الكريم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

الحمد لله الذي خاطب عباده بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

هذا الخطاب الإلهي المتوجه إلى البشر جميعاً، إلى العالمين مبشراً إياهم بالرحمة وبالتعارف، ومذكّراً إياهم بأن أكرمهم عند الله هو اتقاهم وليس أكبرهم أو أغناهم أو من يحمل لوناً معيناً أو نسباً خاصاً.

هذا التوجه العظيم هو بوح الإسلام في خطابه للبشرية، وهو الفهم



السمح المستنير المرن لمصطلح العالمية التي تعني لقاء الشعوب وتعارفهم وتعاطفهم وتراحمهم، ولا تعني القمع والقهر والإرهاب.

والعولمة المطروحة اليوم بمعنى فرض وجهة نظر أحادية على الآخرين

* مفتي الجمهورية العربية السورية، رئيس مجلس الإفتاء الأعلى.

وبكافة الوسائل هي أمر مرفوض من كافة شعوب العالم، وليس من العالم الإسلامي فحسب.

وبين عالمية ترفض الآخر وتقمعه وتلغيه، وعالمية تعترف بالآخر وتخاطبه بالرحمة والمودة، يتجلى الفارق الكبير بين حضارتين وثقافتين وموقفين. ولكن العجيب أن الرافضين للآخر هم الذين يوزعون التهم على سواهم، والذين يقومون باحتلال أراضي الشعوب وقتل الملايين. هم الذين يحاولون إظهار أنفسهم بمظهر الضحية المعتدى عليه، ويعتبرون دفاع الشعوب عن نفسها عملاً إرهابياً.

وتصحيحاً لهذه المواقف الخاطئة، علينا أن نتصدى لتلك الموجة من الإعلام المضلِّل، وإظهار الوجه الحقيقي لحضارتنا السمحة الرحيمة المعترفة بالآخر.

ورأت منظمة المؤتمر الإسلامي أن تختار في كل عام مدينة تكون عاصمة للثقافة الإسلامية لإبراز ملامح الحضارة الإسلامية وطابعها العالمي المرن.

وكانت مكة المكرمة أول عاصمة ثقافية يتم اختيارها لعام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م وكانت حلب هي المدينة الثانية التي تم اختيارها لعام ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م إلى جانب مدينة أصفهان.

وعلينا أن نسعى -بعون الله تعالى- إلى تقديم كل الإمكانيات المادية والمعنوية والعلمية والبشرية لإنجاح هذا الاختيار الكبير لمدينة حلب، وأن تكون الاحتفالات والمهرجانات والندوات والمعارض والمطبوعات مواكبة لتلك الأهمية القصوى التي يعبر عنها الاختيار.

وإن مدينة حلب الشهباء المحروسة سوف تظهر بحلتها القشيبة واحدة من المدن الإسلامية بعمارتها وتراثها وأعلامها الأفذاذ. وسوف تقدم وجهها المتسامح الحضاري بما فيها من تعددية في الأعراق والأديان الذي لم يتحول يوماً إلى صراع أو صدامات أو قمع للآخر.

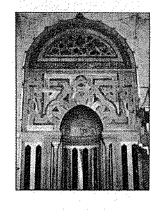
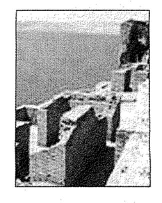
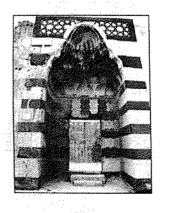
ويأتي هذا العدد الخاص من مجلة العاديات الذي يحمل عنوان: **(حلب المحروسة.. تتهيَّأ للعرس)** فاتحة عمل لسنة كاملة من البرامج المكثفة لهذه المناسبة الاستثنائية.

نسأل الله أن يأخذ بأيدينا لتقديم الوجه الحضاري الحق لتاريخنا الإسلامي العريق الذي منح البشرية تراثاً عظيماً من المعارف والعلوم والمحبة والرحمة والتسامح■

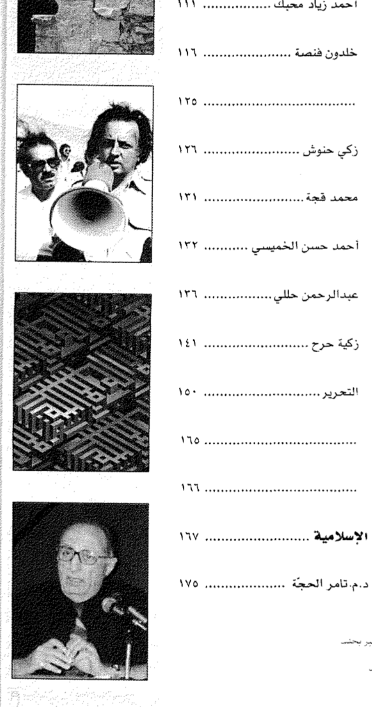


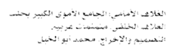
لوحة للفنان طاهر البني

محتويات العدد

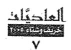





خريف وشتاء ٢٠٠٥





الغلاف الأمامي: الجامع الأموي الكبير بحلب
الغلاف الخلفي: منمنمات عربية
التصميم والإخراج: محمد أبو الخيل



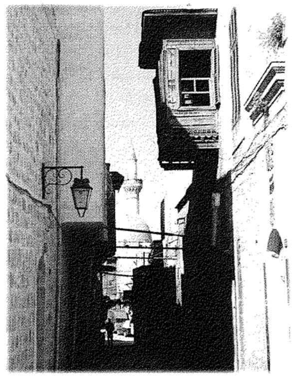
حلب المحروسة

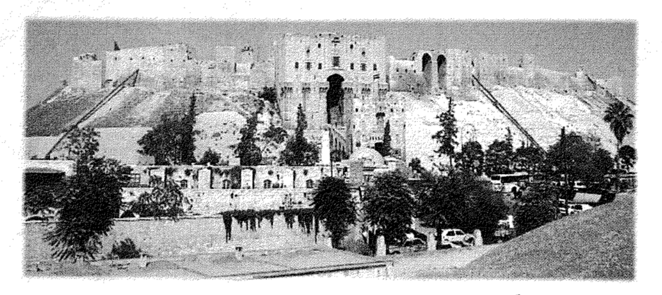
تتهيَّأ للعُرس

مدير التحرير

حلب مضمّخة بنا، هي محبوبة نرتاح إليها، ومنها نتعلّم.. كانت قبلنا أمّاً، رضعنا منها حليب عشق رائحة التراب ومن ساروا عليه.. من أزقّتها بزغت طفولتنا يانعة مفعمة بالحياة.. إنه وجه، والآخر حكاية الحجر المرصوف على شوارعها، على هديه نمشي، وبه تتعثّر خطواتنا الأولى.. ثم نعتذر من دمائنا المسكوبة عليه، لأننا أرقناه بطيش، ونحنُ إلى بذله من أجل الحرية. لكننا - أبداً- نجبن من أوّل تلويحة للسوط.

في قلوبنا إيمان عميق.. وفيها أيضا دم يجفّ في رؤية من يمثل الإرهاب الذي تشرّبناه من طول المدة التي استغرقتها رؤوسنا تحت التراب، إلى الله ندعو أن يمحق النظم الجائرة وأهلها المتسلطين.. حلب حضّرتنا كي نستكين.. وشمخت بقلعتها ساخرة من جبننا، مرّ بها الكثيرون وغادروا.. سادة... وأسياداً.. وعبيدا، ولكنّ السؤال الذي يحفر في وجداننا: ما فائدة أن نصمد تحت السياط إذا كنّا سنبقى تحتها حتّى نموت.. وما فائدة أن نحمل السوط ما دمنا سنخلّف ما جنيناه ونمضي؟!





وحده الذي يتعلّم من حلب شموخها.. يحفظ تاريخهما معاً.. ويبني، أو يساهم في بناء حضارتها، لا لمديح.. إنّما لنشوة العمل الذي يتوّجه الإخلاص. ثم يمضي هانئاً بعد أن "يمضي" بإبهام عريض.

حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

أقر المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الجزائر (كانون الأول ٢٠٠٤) تسمية مدينة حلب ((عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦)) وأصدرت رئاسة مجلس الوزراء في الجمهورية العربية السورية التعليمات اللازمة لتنفيذ ذلك وتشكلت لجان برئاسة السيد رئيس الوزراء.

واختيار مدينة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية تم بناء على اقتراح رفع إلى مؤتمر وزراء الثقافة الإسلامية الثالث الذي عقد في ٢٠٠٢ في مدينة الدوحة حيث أقر واعتمد في مؤتمر وزراء الثقافة الرابع الذي عقد في ربيع العام ٢٠٠٤ في الجزائر.

وكانت اليونسكو قد سجلت حلب مدينة إسلامية مهمة وهي من التراث الإنساني العالمي الذي يجب الحفاظ عليه.وفضلا عن ذلك فان حلب القديمة هي أكبر مدينة في العالم الإسلامي. وهي مدينة قال عنها: المتنبي:

كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا
وإليها وجيفنا والذميل

قرر المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة في العام ٢٠٠٤ التعريف بعواصم الثقافة الإسلامية والاحتفاء بها كل سنة عن المناطق العربية والآسيوية والإفريقية في العالم الإسلامي لإبراز المكانة التاريخيةوالحضارية لها، وكانت عواصم الثقافة الإسلامية الثلاث للعام ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٠٠٦ م هي مدينة حلب في الجمهورية العربية السورية ومدينة أصفهان في الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومدينة تنبكتو في جمهورية مالي.

ومن المعلوم أن المدن التي تقام فيها الاحتفالات تبدأ تحضيراتها قبل أعوام من موعد الاحتفال بها بحيث تؤلف

الكتب ويتم إحياء المخطوطات وترسم الخرائط وتصدر كتب خاصة بتلك المناسبة، وتنشأ مجلات وصحف جديدة لإنجاح ذلك الاحتفاء، فما الذي نستطيع أن نساهم به جميعاً للاحتفاء بمدينة وصفها الأخطل الصغير:

نفيت عنك العُلا والظرف والأدبا
وإن خلقت لها إن لم تزر حلبا
لو ألف المجد سفرا عن مفاخره
لراح يكتب في عنوانه حلبا

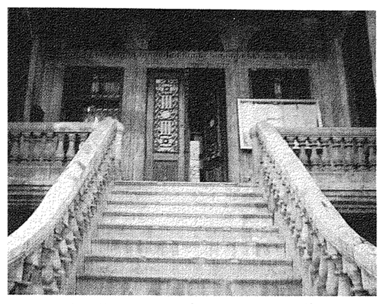
ويمكن لكل من يجد في نفسه الرغبة بالمساهمة في هذا الاحتفال أن يتصل باللجان المتخصصة أو بمراسلة موقعنا لنوصل صوته ورغبته بالمشاركة إلى الجهات المعنية بالاحتفال.■

جمعية العاديات تتأهب بكل طاقاتها للاحتفال بحلب

دعت جمعية العاديات جميع المهتمين إلى حضور اجتماع اللجنة الثقافية الموسعة في مقر الجمعية يوم السبت ٢٠٠٥/٩/١٧ وذلك لمناقشة البرنامج الثقافي السابق وتقديم المقترحات لنشاط الجمعية الثقافي بوصف حلب عاصمة للثقافة الإسلامية للعام القادم ٢٠٠٦. حضر الاجتماع عدد من الشخصيات الأدبية وعدد كبير من أعضاء الجمعية.

وقد نتج عن المداولات المقترحات التالية:

- تلزيم القطاع الخاص بتخديم المدينة القديمة كونها وجه حلب التاريخي والثقافي أولاً وحالة النظافة فيها وصلت لأسوأ المستويات ثانياً، حلب



القديمة مصنفة كموقع من التراث العالمي الذي يجب المحافظة عليه في منظمة اليونيسكو.

- أن تقوم جريدة الجماهير بإصدار ملحق أسبوعي ثقافي يستمر مدة عام كامل خاص بموضوع الاحتفالية.
- التقدم لرئيس اللجنة الإعلامية للاحتفال بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية بضرورة الاهتمام التلفزيوني والإذاعي بالاحتفالية.
- التقدم إلى اللجنة الإعلامية أيضاً بضرورة تنظيم مسابقة يدعى إليها جميع المبدعين من فنانين ومهندسين ومصممي رسومات.. لتصميم شعار للاحتفالية يعتمد كشعار رسمي يعلن عنه في كافة وسائل الإعلان.
- الاتصال بوزارة الثقافة الإيرانية ومدينة أصفهان خصوصاً بصفتها أيضاً عاصمة للثقافة الإسلامية للعام ٢٠٠٦ على مستوى المدن غير العربية للاطلاع على برنامجها الثقافي ولتبادل الآراء والمقترحات.

- أن تقوم اللجنة المالية بفتح باب المشاركة المادية للجميع وذلك بالاتفاق مع إحدى شركتي تشغيل الهاتف الخليوي أو كلاهما عن طريق الاتصال برقم معين أو إرسال الرسائل القصيرة.
- التقدم إلى بلدية حلب ومديرية المدينة القديمة بالنظر في المخالفات الواضحة في بعض الأماكن وعلى بعض المباني الأثرية بأقرب وقت كونها تتنافى مع سعينا جميعاً لإنجاح الاحتفالية.■

مسابقة بين حفاظ القرآن الكريم

بمناسبة الاحتفالية الكبرى بحلب عاصمةً للثقافة الإسلامية ستقام مسابقة في محافظة حلب للذكور والإناث لحفاظ القرآن الكريم، ومسابقة القارئ الحلبي المتميز بالصوت والأداء لكل الأعمار لمن يحفظ جزءا واحدا على الأقل من القرآن الكريم. وسيتم تكريم الفائزين بالجوائز والتقدير.■

المشهد الافتتاحي في احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

ورشة عملٍ كبيرة تحتضنها صالة الأسد استعداداً لليوم الافتتاحي الكبير الذي ستشهده حلب في احتفاليتها الضخمة لتفتح الستار عن مشاهد رائعة تستعرض التاريخ الحافل بالأحداث والوقائع. مشاهد مسرحية يقدم لها الحكواتي الحلبي، لتعرض واقع مدينة حلب وسكانها وأهلها منذ الألف الحادي عشر قبل الميلاد إلى الآن.

مشاهد مسرحية وأخرى استعراضية يتناغم فيها الإنشاد الديني برقص المولوية، بالتعايش المسيحي



الإسلامي في هذه المدينة، ومشاهد تاريخية تظهر فيها عظمة بلاط سيف الدولة الحمداني والشعراء والمفكرون الذين استقطبهم البلاط.■

إطلاق مسابقة للشعراء العرب في سورية

بمناسبة اختيار مدينة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

"الشرق الأوسط"

أعلنت منتديات الحلبي في مدينة حلب السورية عن إطلاق مسابقة الشعر العربي الأولى، وذلك بمناسبة اختيار حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦، واشترطت لجنة المسابقة على المشاركين أن يقدموا نصوصا لا تقل عن ١٥٠ كلمة ولا تزيد عن ١٠٠٠ كلمة، وتفضل أن تكون مواضيعها منسجمة مع اختيار حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، واقترحت عدة مواضيع ومجالات منها: العادات والتقاليد الحلبية وصف مدينة حلب وإظهار مآثرها في المجالات كافة تاريخ حلب والأماكن الشهيرة فيها.■



النشاطات الثقافية المقترحة خلال الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية

بحثت اللجنة الثقافية للاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية خلال اجتماعها المقترحات المقدمة حول النشاطات الثقافية التي ستقام في هذه الاحتفالية حيث قدم الأديب الروائي وليد إخلاصي رئيس اللجنة مجموعة من المقترحات بهذا الصدد تضمنت عقد مؤتمر ذي طابع عربي ودولي تحت عنوان "دور الثقافة الإسلامية قديما وحديثا في الثقافة العالمية" وإقامة ندوات تحت عناوين "الإسلام هو الثقافة والعبادة، العمارة في حلب التاريخ والواقع، فنون الغناء والموسيقى في حلب، المتعة الروحية والشعبية، التقاليد الحلبية شخصيات حلبية مؤثرة.. الخ".

أما المقترحات المتعلقة بالمحاضرات الفكرية فقد شملت عناوين عديدة منها الفكر الإسلامي المعاصر، الاجتهاد في الإسلام، الدور التنويري لعبد الرحمن الكواكبي، مدارس حلب قديما وحديثا ونظرة إسلامية للكون، في حين تم اقتراح عقد أمسية لشعراء سوريين وأمسيتين لشعراء عرب وإقامة تسعة عروض مسرحية سورية وعربية وإسلامية وأمسيات غنائية تتضمن الغناء الحلبي والإنشاد في سورية مع الحرص على استضافة فرق متخصصة بهذا الشأن من سورية والدول العربية والإسلامية.

وفيما يخص المجال السينمائي فقد قدم اقتراح بإقامة أسبوع لعرض أفلام من دول عربية وإسلامية تمثل ثقافات هذه الدول إضافة إلى أفلام من دول غربية ترغب بالمشاركة في هذه الاحتفالية.

وتم خلال الاجتماع استعراض أسماء الشخصيات المقترحة للمشاركة في هذه الفعاليات حيث تم التأكيد بهذا الصدد على أن تكون هذه الشخصيات تتمتع بمكانة مرموقة وذلك لاستقطاب اكبر عدد ممكن من الحضور.

كما قدم عدد من أعضاء اللجنة مقترحات حول مواضيع الندوات والمحاضرات شملت الإسلام، الدين والدولة، جماليات الحضارة الإسلامية، الحركة الأدبية والفكرية في بلاط سيف الدولة، الفكر النهضوي الإسلامي، شخصيات إسلامية، خصائص القصة القرآنية، القدود الحلبية وأصولها الدينية والمثاقفة بين الأدب العربي والأدب

الفارسي والتركي إضافة إلى إقامة معرض كتب ومخطوطات تراثية ومعارض للفن التشكيلي والفوتوغرافي على هامش الفعاليات الآنفة الذكر.

ونوقشت هذه المقترحات في اجتماعات اللجنة التنفيذية للاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية التي تمّ جزء منها في مقر جمعية العاديات.■

الجامع الأموي الكبير

وهو من أكبر الجوامع التي أقيمت في مدينة حلب القديمة.

وقد تم ترميمه خلال الأعوام الماضية بحيث عاد إليه رونقه الحضاريّ. ولدى سؤالنا المهندس تميم قاسمو قدم لمحة عن الدراسات والأعمال التي نفذت في مشروع ترميم الجامع الأموي بحلب، وسنعمل على نشرها حيث سبقت الأعمال دراسة تاريخية لنشأة الجامع وعصوره المختلفة ودراسة أعمال التحسين والترميم والإضافات التي أجريت فيه على مر العصور. وهناك أعمال التوثيق الضوئي والرقمي والأعمال الطبوغرافية والمساحية ودراسة التربة والأعمال المعمارية، والإنشائية، والدراسة الكهربائية والصوتيات، وجرت الدراسة الصحية والدراسة الميكانيكية والتدفئة والتكييف وأعمال الديكور.

استغرقت الأعمال ما يقارب ست سنوات وقد تضافرت لإنهائها جهود الباحثين والمهندسين والمتعهدين.

وسيتم افتتاح الجامع من جديد في بدء فعاليات احتفاليّة "حلب عاصمة الثقافة الإسلاميّة".■

السهروردي في عمل مسرحي

غسان جباعي المخرج المسرحي السوري يستعد حالياً لعرض مسرحيته الجديدة سيد الوقت السهروردي الشهيد ، وذلك على مسرح الحمراء في دمشق خلال الشهرين المقبلين ليعرضها في ما بعد في مدينة حلب ضمن احتفالات وفعاليات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦. يشترك فيها العديد من الفنانين الكبار أمثال زيناتي قدسية وهي من تأليف عبد الفتاح قلعه جي.■

قرص ليزري توثيقي لمدينة حلب

أحد رواد موقع فارس حلب الشباب يقوم حالياً بالتحضير لقرص ليزري حول مدينة حلب وتاريخها ومعالمها وآثارها، وهو في طور الإنجاز والتحضير، وهو يتضمّن تقريباً كل شيء حول مدينة حلب المحروسة.■

شعار الاحتفال بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية

ظهر "شعار مهرجان حلب عاصمة الثقافة الإسلامية على أغلب السطوح الإعلانية في المدينة وعلى شاشة التلفاز السوري، وكأنه ينذر باقتراب موعد هذا المهرجان.

مهرجان تستضيفه مدينة حلب، بعد أن تم اختيارها لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية خلال عام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م وذلك بقرار من منظمة المؤتمر الإسلامي.

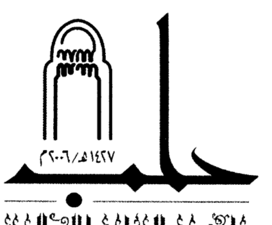
بمناسبة اعتماد الشعار أجرى عضو لجنة المعلوماتية في الجمعية محمد فارس حوارا مع المهندس غسان قصير

الـذي فـاز بمسـابقة تصميـم شـعار المهرجان.

وقـد توجـه إليـه بعـدة أسـئلة تتعلـق بأهميـة الشـعار الغرافيكـي بشـكل عـام، وشـعار المهرجان علـى وجـه الخصـوص، وعـن مضمـون الفكـرة الـتي اعتمدهـا في تصميـم الشـعار فأجـاب: يعتـبر الشـعار الغرافيكي بشكل عام، أحد الدعائم الهامة في رسـم معـالم الهويـة البصريـة لمؤسسـة مـا، أو لهيئة رسمية، أو لمهرجان احتفالي مثل الذي نحن بصدد الحديث عنه.

ويمكـن اعتبـاره مجـازاً نـواة الهويـة البصريـة، إذ بواسـطته نتمكـن مـن ربـط المفهوم النظـري المطـوّل (اسـم الهيئـة أو الجهة الراعية) بشارة فنية بصرية كإعلان مكثـف. وهـو بمثابـة أداة تعريـف بصريـة للربـط بـين مـا هـو مُعلـن ومرئـي، وبـين الجهة الـتي تمثلـه، ومن هنـا تـأتي أهميتـه وللشـعار الغرافيكـي مواصفـات فنيـة وتقنيـة: كسـهولة قراءتـه، ووضوحـه، وتعبيره وقابليتـه للتكبـير أو التصغـير دون أن يفقـد ماهيتـه، نظـراً لتطبيقاتـه المختلفـة والواسـعة، سـواء علـى الوثـائق الرسميـة، أو السـطوح الإعلانيـة أو في وسـائل الإعـلان المرئيـة، إضافـة إلى حضوره البصـري القـوي والمتميـز، ومـن هنا تكمن صعوبته أما عن مضمون وفكـرة شـعار مـهرجان "حلـب عاصمـة الثقافـة الإسـلامية" فقـد كـانت الانطلاقـة في البحث وتطوير جملة أفكار يمكن أن تكون كل واحـدة منـها كحجـر أسـاس في بنيـة الشعار، وهـذا ما يقوم به كل مصمم.

ثم اسـتقر بي الأمـر علـى فكـرة المحراب. فأهمية المحراب كرمـز وعنصـر مشـترك في العـالم الإسـلامي كبـيرة،



ولطالما أن المقرنصـات الحجريـة تشـكل إحـدى ممـيزات فنـون العمـارة الحلبيـة، فقـد أخـذت حصتـها في تصميـم الشـعار بخطـوط إعلانيـة مبسـطة. لتصبـح بذلـك حلب محراب الثقافة الإسلامية وقد كتبت كلمـة حلـب بـالخط الكـوفي المشـرقي القـديم بشـموخ الـلام وثباتهـا كجـدران مدينتها وصمود قلعتها وأخيراً، مـهرجان حلب عاصمـة الثقافـة الإسـلامية، ليـس عـرس حلـبي صـرف، وإنمـا هـو عـرس وطـني بامتيـاز، ولذلـك فقـد ضمنـت خطوط المحراب ألوان العلم السوري وهي ألـوان بحد ذاتهـا لهـا دلالات رمزيـة نعتـز بهـا جميعاً. وخير معبر عن تلك الدلالات ما قاله الشاعر صفي الدين الحلي:

بيضٌ صنائعنا سودٌ وقائعنا

خضرٌ مرابعنا حمرٌ مواضينا■

جدار حلب من مجموعة كريم

مجموعـة كـرّيم الاقتصاديـة تقـوم حاليـاً بالتحضـير لمشـروع ثقـافي ممـيز والاسـم المقـترح لـه حاليـاً (جـدار حلـب) وهـو عبـارة عـن جدار مصمم وفق أحـدث الطـرق التكنولوجيـة مـع الحفـاظ علـى الـتراث يسـتعرض مـن خلالـه المشـاهد

الحضارات المتعاقبة على مدينة حلب والمكان المقترح لوضعها خان الشونة يذكر أن هذه المبادرة تأتي ضمن مشاركة الفعاليات الخاصة بالاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية هذا العام■

كتاب تذكاري عن ثانوية المأمون

يقوم العديد من المختصين من الأدباء والمدرسين من مدينة حلب بالتحضير لكتاب تذكاري عن ثانوية المأمون وهو عبارة عن مجموعة مقالات ممن درس ودرّس وأدار هذه الثانوية ويأتي هذا الكتاب ضمن فعاليات الاحتفال بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية والجدير بالذكر أن مبنى ثانوية المأمون سوف يتم البدء بترميمه قريباً وتصل كلفة ترميم هذا المبنى حوالي الخمسين مليون ليرة سورية تبرع بها رجل واحد من أبناء حلب البررة.■

معارض يستضيفها سوق الإنتاج وكتب تُطبَع

يستضيف سوق الإنتاج الصناعي والزراعي بحلب العام القادم عدداً من المعارض المهمة مساهمة من إدارة السوق في الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية والتي تنظمها الوزارات والجهات العامة المختلفة ويقام المعرض الأول في التاسع عشر من شهر آذار وحتى مطلع نيسان وهو معرض للكتاب تنظمه مكتبة الأسد ووزارة الثقافة ويتزامن مع بدء الاحتفالية التي ستنطلق في الثامن عشر من الشهر ذاته.

وتقيم وزارة السياحة معرضاً للصناعات التقليدية بين العاشر من أيار والعشرين منه.

وتقيم لجنة الأمانة العامة للاحتفالية معرضاً للأزياء الإسلامية بين منتصف حزيران والخامس والعشرين منه.

وهناك معرض آخر من بداية تشرين الأول وحتى منتصفه حول حلب عاصمة الثقافة الإسلامية ويضم تحفاً ومقتنيات فنية وأثرية مهمة.

وتتم طباعة أكثر من /١٠٠/ كتاب وترميم عشرات الأبنية الأثرية الإسلامية وإعادة توظيفها.. كشف سور المدينة القديمة وإزالة المخالفات.

أهم المشاريع التي يجري تنفيذها بهذه المناسبة

من أهم المواقع التي ستجري فيها عمليات الترميم:

كشف سور المدينة، دار غزالة، البيمارستان أرغون الكاملي، بيمارستان النوري، قلعة حلب، قلعة نجم. جامع الشعيبية، الجامع العمري ، التكية المولوية جامع الأطروش، جامع ومدرسة الفردوس، وبعض الجوامع ذات الطابع العمراني المميز. سيتم ترميمها وتنظيف واجهاتها ضمن معايير الترميم العالمية..

مسابقة أفضل كتاب

أكد الدكتور معن الشبلي رئيس مجلس مدينة حلب أنه قد تقرر إحداث مسابقة جديدة لمجلس مدينة حلب لأفضل كتاب توصيفي تعريفي شامل لمدينة حلب وتخصيص ثلاث جوائز لأفضل ثلاثة كتب تؤلف وتصدر حديثاً عن المدينة احتفالاً بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية للعام ٢٠٠٦■

الندوات العلمية المقترحة
بمناسبة تسمية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٦



الإسلام وحقوق الإنسان (حلب نموذجا)



فلسفة العمارة الإسلامية (حلب نموذجاً)



حلب وحوار الحضارات



الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة



التراث الثقافي غير المادي لمدينة حلب في العصور الإسلامية



النتاج العلمي والفكري لمدينة حلب في العصور الإسلامية



دور حلب في حركة النهضة القرن (١٩-٢٠)

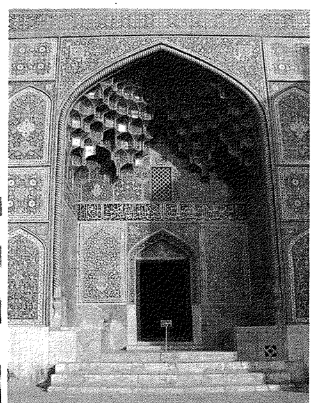


الحياة الاقتصادية في حلب عبر التاريخ

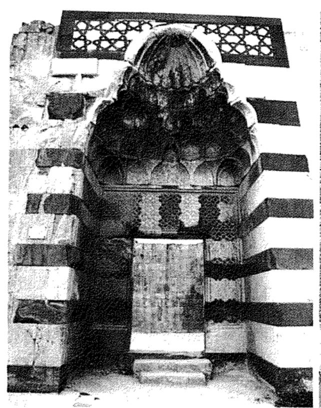
من حلب إلى أصفهان

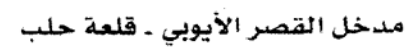
عاصمتان للثقافة الإسلامية

محمد قجة*



مدخل جامع الشيخ لطف الله - أصفهان





مدخل القصر الأيوبي - قلعة حلب

* رئيس مجلس إدارة جمعية العاديات السورية

لم يكن اختيار منظمة المؤتمر الإسلامي لمدينتي حلب وأصفهان عاصمتين للثقافة الإسلامية مصادفة ولا افتعالا.

ففي ضوء المعايير التي اعتمدت لاختيار المدن بعد مكة المكرمة كان الدور الثقافي والتراثي في المقام الأول. وفي هذا المجال تحتل أصفهان المرتبة الأولى خارج نطاق المدن العربية. ولو أحصينا عدد العلماء والأدباء والباحثين الذين ارتبط اسمهم بمدينة أصفهان لاقترب هذا العدد من مائتي اسم بعضهم كبير الشهرة مثل أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، والعماد الأصفهاني المؤرخ والوزير للدولة الأيوبية وعشرات المحدثين وعلماء الدين واللغة والأدب.

وفي هذا المجال تأتي مدينة "بغداد" متفوقة في نسبة الأعلام الذين نسبوا إليها ويحملون لقب "البغدادي" بينما تحتل "حلب" المنزلة الثالثة في هذا السياق متساوية مع مدينة "الري" فيمن يحمل لقب "الحلبي" و"الرازي" بينما تبقى المرتبة الثانية لأصفهان.

ولكن هذا المعيار لم يكن كافيا لوحده. وبتفسيره الحرفي بل إنه يشمل نوعية الفترات المتألقة. وفي هذا السياق تحتل مدينة حلب المرتبة الأولى منفردة بالبلاط الحمداني الباذخ أيام "سيف الدولة" الذي يقول فيه الثعالبي: "إن العلماء والأدباء والشعراء الذين اجتمعوا في حلب أيام سيف الدولة، لم يشهد أي بلاط لخليفة أو سلطان أو ملك أو أمير ما يماثلهم".

وبعضهم كان الأول في ميدانه على مر التاريخ الإسلامي:

- الفارابي: الأول في الفلسفة والموسيقى
- المتنبي: الأول في الشعر العربي بصورة مطلقة.
- الصنوبري: الأول في شعر الطبيعة.
- ابن جني: الأول في خصائص اللغة.
- أبو فراس الحمداني: الأول في شعر الفروسية.
- أبو علي الفارسي وابن خالويه وأبو الطيب اللغوي: وهم أوائل في علوم اللغة.
- الخوارزمي: صاحب المنطق والأدب والحكمة.

وقد أحصى الخالديان أكثر من عشرة آلاف بيت شعري قيلت في سيف الدولة.

إلى جانب ذلك ارتبط اسم كثير من الشعراء والأدباء بمدينة حلب على مر العصور، كالبحتري ومحبوبته علوة الحلبية، والمعري الذي كانت أمه من بني سبيكه في حلب. وكتب حول هذه المدينة روائع مؤلفاته، مثل رسالة الغفران، والصاهل والشاحج، ويقول في رسالة الغفران إن الله تعالى اختار طباخيه من حلب ليكونوا مسؤولين عن مطبخ الجنة وذلك في الرحلة المتخيلة لعلي بن القارح الحلبي التي كتبها أبو العلاء المعري تحت عنوان "رسالة الغفران"

وكان معيار العمارة ماثلا في الأذهان لاختيار المدينة التي تسمى

عاصمة للثقافة الإسلامية. وفي هذا المجال تتفوق حلب على أصفهان وعلى غيرها من مدن العالم الإسلامي لتوفر شروط فيها لا تتوفر في سواها، وهذه الشروط هي:

١- إن العمارة الإسلامية في حلب تشمل سائر الوظائف العمرانية: فالعمارة الدفاعية تمثلها القلعة والأبواب والأبراج والأسوار والأنفاق المحفورة تحت المدينة. وتنفرد قلعة حلب بأنها الأقدم في العالم ٧٠٠٠ ق.م بموجب اللقى الأثرية التي تم العثور عليها فيها. كما أنها الأكبر داخل مدينة مع خندقها الدفاعي المحكم وشبكات الأنفاق تحتها وحولها. والدور الديني والسياسي والعسكري والثقافي الذي لعبته مدى عمرها.

والعمارة الدينية ممثلة بالمساجد التي يزيد عددها على ألف مسجد في حلب القديمة والحديثة، والكنائس التي تزيد على خمسين كنيسة. وبعض هذه الجوامع يعود إلى القرن الهجري الأول، مثل جامع الشعيبية في باب إنطاكية الذي يعود إلى عام ١٦هـ. والجامع الأموي الكبير الذي يعود إلىعام ٩٨ هـ وهناك مساجد تمثل العصور الإسلامية كافة التي عرفتها حلب باختلاف طرازها المعماري من سلجوقية وزنكية وأيوبية ومملوكية وعثمانية وحديثة.

وفي حلب عدد من الزوايا والتكايا الصوفية تمثل الطرق الصوفية المختلفة من مولوية وقادرية ونقشبندية وشاذلية.. إلخ.

أما العمارة المدنية فهي تضم سائر حاجات الحياة اليومية من أسواق وخانات وقيساريات وحمّامات وبيمارستانات وحارات ودور مختلفة وقساطل وخانقاهات ومدارس.

وكل هذه الوظائف المعمارية تراها في حلب بأعداد كبيرة. وبعضها تنفرد به حلب، كالأسواق المسقوفة وعددها ٣٩ سوقاً تتمحور حول سوق مركزي مستقيم ممتد من باب إنطاكية حتى مدخل سوق الزرب أمام القلعة.

٢ - وهذا التميز بالوظائف العمرانية يقابله تميز زمني، ففي مدينة حلب يطل التاريخ منذ الألف العاشر قبل الميلاد في تنقيبات "تل القرامل". وفي حلب تتعانق الحضارات عبر آلاف السنين، ويزيد عددها على ثلاثين حضارة من أبرزها السومرية والآكادية والعمورية والبابلية والآشورية والكلدانية والحثية والميثانية والمصرية والأخمينية والآرامية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والممالك العربية قبل الإسلام. وصولاً إلى الحضارة الإسلامية التي استوعبت كل تلك الحضارات في ردائها السمح المرن المعترف بالآخر. وخلال العصور الإسلامية المتتابعة نجد في مدينة حلب نماذج عمرانية تعود إلى كل تلك المراحل التي عرفتها الدول المتتالية منذ العصر الراشدي حتى العصر الحديث مروراً بكل الدول التي عرفتها حلب والتي تركت كل منها بصمات عمرانية خاصة في المدينة. ولعل

الفترة الأيوبية شهدت غنى في الحركة العمرانية، وكذلك الأمر بالنسبة للتطور الاقتصادي الواسع في مطلع العصر العثماني وما رافقه من عمارة ضرورية كالخانات والأسواق والقيساريات.

أما مدينة أصفهان فهي من المدن القديمة في جمهورية إيران الإسلامية، وهي تتوسط إيران ويمر بها نهر يدعى "زندروز" ويسميه أهلها "نيل أصفهان" وعليه مجموعة من الجسور التاريخية الجميلة.

وكلمة أصفهان أو أصبهان فيها وجوه ومعان لعل أقربها. "المعسكر" ويبدو أنها كانت مركزًا لتجمع الجند والفرسان فحملت هذا الاسم.

ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن أرض أصفهان صلبة، وتربتها لاتفسد فيها اللحوم، وهي صحيحة الهواء خالية من جميع الهوام. وهي من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في عظمها حتى يتجاوزوا حدّ الاقتصاد. وحولها ١٦ رستاقًا وكل رستاق ٣٦٠ قرية بين قديمة ومحدثة. وقد فتحها المسلمون عام ١٩ هـ صلحًا بموجب معاهدة وقّعها عبد الله بن عتبان.

ومن يومها تدخل أصفهان في نطاق التاريخ الإسلامي، وتتعاقب عليها الأحداث والدول، ويشهد العصر العباسي قيام الدول المستقلة أو شبه المستقلة في شرق العالم الإسلامي من غزنوية وسامانية وبويهية وسلجوقية ومغولية وصفوية وقاجارية. وصولاً إلى العصر الحديث.

وتحتفظ أصفهان بروائع معمارية من العصور الإسلامية التي تعاقبت عليها وبخاصة منذ الفترة السلجوقية وما بعدها.

ولكن أهمية العمارة الإسلامية في أصفهان تتجلى بروعتها وإبهارها في الفترة الصفوية، حينما أصبحت أصفهان عاصمة الدولة الصفوية بعد سقوط "تبريز" بيد العثمانيين.

ويحلو لأهالي أصفهان وصف مدينتهم "نصف جيهان" أي نصف الدنيا.

وتتوسط مدينة أصفهان القديمة ساحة هائلة تدعى "نقش جيهان" أي صورة الدنيا. وقد أطلق عليها حديثًا تسمية "ميدان الإمام الخميني" وهذه الساحة الأسطورية تضم فعلاً صورة الدنيا بعمارتها الفنية المتنوعة من جوامع ومدارس وقصور وأسواق. ويحمل ذلك كله طابع الطراز المحلي من الزخارف المتقنة والفسيفساء بألوانها المتناوبة بين الأبيض والأزرق.

ويقف جامع الإمام علمًا معماريًا فريدًا. وهو الجامع الأكبر في أصفهان. وجامع الشيخ لطف الله. والمئذنتان المتحركتان. وقصر عالي قابو (الباب العالي).

وتحيط بساحة "نقش جيهان" سلسلة الأسواق العجيبة المسقوفة والمكشوفة. وهي أسواق متخصصة تجد فيها المصوغات الذهبية والفضية، والنحاسيات، والخشبيات، والأقمشة المزركشة، والأحجار الكريمة، والسجاد

الباهر الباذخ الذي لا يماثله أي سجاد في العالم.

والجولة في أسواق أصفهان تحملك فورًا إلى أسواق المدن الإسلامية القديمة، فكأنك في حلب أو دمشق أو فاس أو تونس أو دلهي القديمة أو القاهرة القديمة. مع التميز في أسلوب البناء وزخارفه.

وإلى جانب معياري التراث الثقافي والعمارة... كانت هناك أسئلة حول الدور الاقتصادي للمدن. وفي هذا الإطار تشكل مدينة حلب أهم حلقة على طريق الحرير العالمي. لوقوعها على مفترق طرق يربط شرق آسيا بالأناضول ثم أوربا. ولوقوعها على مسافة متساوية تقريبًا بين الفرات والبحر المتوسط. حيث كان الفرات ممرًا مائيًا تجاريًا للسفن القادمة من الخليج. وكان ميناء "بالس" (مسكنة حاليًا) مرسى للسفن.. وتكمل القوافل طريقها إلى حلب عبر الجمال، ومنها إلى ميناء اسكندرون على المتوسط. وهذا ما يفسر الحجم الهائل للخانات التي كانت مستعدة لاستقبال القوافل المؤلفة من آلاف الجمال دفعة واحدة. وكان ما يباع في حلب في يوم واحد يحتاج إلى ثلاثة أشهر لكي يباع في القاهرة.

وتحتفظ حلب بخانات قديمة منها خان البنادقة الذي يعكس الاتفاقية التجاريةالتي وقعت عام ١٢٠٧ بين الظاهر غازي الأيوبي ملك حلب ومندوب البندقية "بيتروماريني اني".

وليس غريبًا أن أوائل القنصليات الأجنبية أسست في حلب، وأول غرفة تجارية كانت فيها، وأوائل المصارف، ورغم افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م وفقدان حلب جزءا كبيرًا من تجارتها. إلا أنها احتفظت بمركز متميز خلال الفترات اللاحقة.

أما أصفهان فتلعب دورًا اقتصاديًا بارزًا لوقوعها في مركز متوسط في إيران، ولشهرتها الكبيرة في الصناعات التقليدية وبخاصة السجاد العجمي الفاخر، والصناعات النحاسية والخشبية والحريرية وصياغة الذهب والفضة. إلى جانب كونها مركزًا صناعيًا وتجاريًا هامًا في الوقت الحاضر.

وتتميز مدينة حلب باحتضانها للتراث الموسيقي بشقيه المشرقي والمغربي، فقد غدت حلب مركز إشعاع تلتقي عنده الدراسات الموسيقية. ويكفي أن نذكر في هذا المجال قدوم الفارابي في وقت مبكر إلى حلب ليكون واسطة العقد في بلاط سيف الدولة الحمداني.

كما جاء من أصفهان أبو الفرج الأصفهاني يحمل كتابه "الأغاني" وهو أهم كتاب من نوعه في تاريخ الأدب العربي والغناء والموسيقى وقد تخطى أبو الفرج كل سلاطين عصره بمن فيهم خليفة بغداد واختار أن يأتي إلى حلب ليقدم كتابه إلى أميرها الجليل سيف الدولة.

كما جاء بعد ذلك بأكثر من قرنين المؤرخ والوزير العماد الأصفهاني ليكون واحدًا من أركان الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر.

وورثت حلب الموشح الأندلسي وطوّرته حتى غدا لدينا لون متميز اسمه الموشح الحلبي، ونشأت بعد ذلك القدود الحلبية الشهيرة. وتطور عن ذلك الغنى الفريد في الإنشاد الديني من خلال الزوايا الصوفية والفرق العديدة المستمرة خلال القرون حتى يومنا هذا. وأصبحت حلب بذلك عاصمة الطرب العربي بجانبيه الديني والوجداني. وخرج منها أعلام كبار أغنوا الساحة الموسيقية بتراث واسع لا حدود له.

وبناء على هذه المعايير جميعًا وافق المؤتمر الإسلامي على اختيار كل من حلب وأصفهان عاصمتين للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦، بعد أن تم اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٥، وبذلك تكون كل من حلب وأصفهان قد جاءتا في المقام الثاني بعد مكة المكرمة،

ويهدف هذا الموضوع أساسًا إلى إبراز الوجه الحضاري المرن المتسامح للحضارة الإسلامية. وقد نصح المؤتمر الإسلامي بإجراء الاستعدادات اللازمة للاحتفالات التي تستمر عامًا كاملاً، وذلك بتشكيل اللجان المتخصصة، وتأمين الأموال اللازمة، ووضع البرامج للأنشطة المتعددة من ندوات ومحاضرات ومعارض ومطبوعات وحفلات فنية وتراثية وترميم المباني الأثرية ونشرات للتعريف بالمدينة صاحبة الاحتفال. ولوحات تعريفية وإعلانات تلفزيونية ومجلة خاصة، وتغطية إعلامية واسعة بالصحافة والإذاعة والتلفزيون واللقاءات الواسعة في المنتديات والمساجد والكنائس والجامعات والمدارس. وتنظيم زيارات للوفود المشاركة إلى المتاحف والأماكن الأثرية. وتنظيم مسابقات وأمسيات أدبية وشعرية وفنية ومسرحيات وأفلام سينمائية وتلفزيونية ووثائقية.

ومن المهم تنظيم حفل افتتاح يغطي عددًا كبيرًا من الأنشطة الإعلامية والثقافية والفنية والمعروضات. ودعوة أسماء بارزة من أنحاء العالم لحضور هذا الحفل.

إن هذه المناسبة الهامة الفريدة فرصة لا تتكرر. ومن واجبنا التصدي لكل المصاعب التي قد تعترض طريقنا في تنفيذ المشروعات والأنشطة المبرمجة مهما كان حجمها كبيرًا ومحاورها متشعبة.

والسباق الجميل المشروع بين حلب وأصفهان سوف يحدد مَنْ منهما سيكون لها السبق؟!■

المنمنمات العربيّة

نشأتها ومدارسها

طاهر البني *

حفلت الأرض العربية منذ فجر التاريخ بضروب شتى من الفنون الجميلة، لا سيما فنون النحت والتصوير الجداري، وفن الفسيفساء وحفر الأختام، وغيرها من الفنون التشكيلية التي ظهرت في الممالك القديمة ببلاد الرافدين ووادي النيل وسواحل بلاد الشام وأطراف الجزيرة العربية.

والعرب كغيرهم من شعوب الأرض في العالم القديم، كانوا يهتمون بهذه الفنون التي تجسد أفكارهم وأساطيرهم وعقائدهم، وتصور ملامح الحياة التي يعيشونها، لا سيما تلك التي تتعلق بشؤون الزراعة والرعي والحرب والاحتفالات الدينية والمراسم الملكية وغيرها من المناسبات الاجتماعية، وحيث أنّ هذه الفنون ارتبطت بالقصور الملكية والمعابد الدينية التي شجعتها وأثرت في اتجاهاتها، فقد تعرض معظم الإنتاج للهلاك نتيجة الحروب المدمرة وعوامل الزمن والمناخ المختلفة، كما خضعت هذه الفنون لمؤثرات أسلوبية مختلفة كان بعضها محليًا: (الأكادي، الآرامي، الآشوري، الحثي، الفرعوني القبطي) وكان بعضها وافدًا: (الفارسي، الإغريقي، الروماني، البيزنطي، الإفريقي).

وقد استمر فن التصوير عند العرب حتى الفتح الإسلامي وقيام الدولة الأموية، وأظهر «تاريخ الفن الإسلامي ملوكًا وأمراء كثيرين كانوا من أكبر دعاة التصوير ومشجعيه منهم الخليفة الأموي الذي شيد (قصير عمرة) ببادية الشام، وزيّن جدرانه وسقفه بالنقوش الجميلة، والخلفاء العباسيون الذين زينوا قصورهم في سامراء بالنقوش المختلفة الألوان»[1].

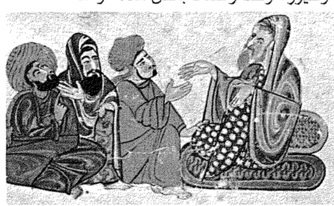
وبالرغم من انصراف العرب المسلمين إلى فنون الزخرفة والرقش الإسلامي والخط العربي فإن فن تصوير

---

* فنان، باحث في التراث

الأحياء الإنسانية والحيوانية ظل مستمرا «وأعظم ما وصل إلينا من بقايا الصور في صدر الإسلام نجده في قصير عمرة الذي كشفه العالم النمساوي (موزيل) سنة ١٨٩٨ م شمال شرقي البحر الميت، وعلى سقوف قاعاته نقوش أحدها يمثل الملوك الستة الذين هزمهم الأمويون، وهناك قاعات أخرى فيها راقصون وموسيقيون، وأشخاص عراة وآخرون يقومون ببعض التمرينات البدنية، ثم مناظر لصيد الحيوانات البرية، وفي القاعة الرئيسية نقش يمثل أميرًا على عرشه لعله الأمير الذي شيد القصر له»[٢].

اهتم الخلفاء العباسيون بتشييد القصور، وتزيينها بالزخارف والنقوش والصور الملونة كما كانت عليه القصور الساسانية في بلاد فارس، وقد عثر الباحثون على نماذج من هذه الصور الجدارية في قصر الجوسق حيث كانت تغطي جدرانه في أجزائها العليا ولعل أجملها تلك التي كانت تغطي جناح الحريم «وتضمّ هذه الرسوم صور راقصات وموسيقيات وصائدات حيوانات وطيور، ولقد وضعت بعض هذه الوحدات



صورة من كتاب (مختار الحكم ومحاسن الكلم) أنجز في سورية عام ١٢٠٠ - ١٢٥٠م



من كتاب عجائب المخلوقات - القزويني

الحيّة داخل مناطق مستديرة أو مربعة يحيط بها إطار مزخرف بنقط تشبه حبات اللؤلؤ وأشكال القلوب»[٣].

ومنذ أواخر العصر الأموي نشطت ترجمة العرب للكتب الهندية والفارسية والإغريقية التي تجسد إنجازاتهم في العلوم الطبيعية والطب والأدب والفلسفة، فجاءت هذه الكتب المترجمة مزودة بالرسوم التوضيحية التي دفعت الناسخين العرب إلى تزويقها وتزيين صفحاتها بالأشكال الزخرفية والخطوط العربية المبتكرة، بالإضافة إلى الرسوم التشخيصية التي حملت ملامح التأثيرات الهندية والبيزنطية والفارسية لأنها كانت تقليدًا لصور المانويين واليعاقبة والنساطرة «حيث أخذ العرب يقلدون الفرس والروم في تزويد النقود بالصور، وتزيين الملابس والأواني الزجاجية



مخطوط من كتاب المواد الطبية، أنجز رسمه شمال العراق عام ١٢٢٩م، موجود في متحف (طوبقاي ساراي) استانبول

والنحاسية والفخارية والأثاث المنزلي بالرسوم والنقوش والصور التزيينية، وكانت الحمامات تحظى بقدر وافر من الرسوم، ثم انتقل فن التصوير إلى الكتب والمخطوطات العلمية والأدبية والتاريخية» [٤].

وقد أشار إلى ذلك عبد الله بن المقفع (المتوفى عام ٧٥٩ م) في ترجمته لكتاب (كليلة ودمنة) عن الفارسية بقوله: «.. وينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أقسام وأغراض أحدها... والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنسًا لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشدّ للنزاهة في تلك الصورة».

وكان لصناعة الورق التي انتشرت في العصر العباسي الأثر الواضح في تطوير فن تصوير الكتب والمخطوطات، فقد استعيض عن الرقاق التي كانت مستعملة بالورق الذي أدخلت صناعته عن طريق سمرقند بعد انتشاره في الصين، فوجد فيه الناسخون العرب حقلًا رحبًا لإبداعاتهم الكتابية والتصويرية.

وفي نهاية القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي» تكونت أول وأقدم مدرسة للتصوير العربي في بلاد الرافدين، ومن المرجح أنّ هذه المدرسة نشأت أول الأمر في شمال العراق وكان مركزها غالبًا مدينة الموصل التي نشطت في ترجمة المؤلفات اليونانية في علوم الطب والطبيعة والنبات والحيوان، ثم تكونت بعد ذلك في القرن السابع الهجري



كتاب الترياق. الغلاف الداخلي - شمال الرافدين - ١١٩٩م محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس

(الثالث عشر الميلادي) مدرسة تصوير أخرى في بغداد، كما تكونت أيضاً مدارس في ديار بكر وماردين وحلب مراكز حكم بني أرتق، ولو أنّ مراكز إنتاج هذه المدرسة الرافدية كانت في أملاك السلاجقة، فقد كانت عربية أكثر منها إيرانية، كما يظهر في أسلوب بعض صورها التأثر بصور المخطوطات البيزنطية.

وفي بلاد الشام ومصر نشأت مدرسة مملوكية لتصوير الكتب والمخطوطات في الوقت الذي انحسرت فيه مدرسة الرافدين عقب الدمار الذي لحق العراق على أيدي المغول، واستمر ذلك حتى نهاية القرن الرابع عشر.

مدرسة بلاد الرافدين:

تضم مدرسة بلاد الرافدين نتاج الفنانين العرب في (بغداد، البصرة، الكوفة، الموصل، ديار بكر) وقد امتدّ نشاط مبدعي هذه المدرسة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ولعل (كتاب الترياق) الموجود في المكتبة الوطنية في باريس يعتبر أقدم كتاب في هذه المدرسة إذ يعود تاريخ إنجازه لعام ١١٩٩. لحساب شخص يدعى محمود، لا يذكر مكان نسخه ويرجح أن يكون شمال العراق (الموصل). ومن أبرز أعلام هذه المدرسة:

- (عبد الله بن الفضل) الذي صور كتاب (خواص العقاقير الطبية) سنة ٦١٩ هـ ١٢٢٢ م المحفوظ في متحف فرير بواشنطن.

- (محمد بن أحمد بن ناصر الدين) الذي صور كتاب (الحيل الميكانيكية) سنة ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م المحفوظ في مكتبة المتروبيلتان في نيويورك.

- (يحيى بن محمود الواسطي) الذي صور كتاب (مقامات الحريري) في أكثر من نسخة أشهرها نسخة (شيفر) المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس المؤرخة في بغداد سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م ونسخة محفوظة في أكاديمية العلوم بـ(لينينغراد) ومؤرخة في بغداد سنة ١٢٣٥م.

ومن أشهر إنجازات هذه المدرسة:

- كتاب (البيطرة) لأحمد بن الحسين بن الأحنف، صور في بغداد سنة ١٢١٠ م وهو محفوظ في مكتبة (طوبقابي ساراي) في استانبول.

- كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، صور في الموصل سنة ١٢١٧ م وهو محفوظ في مكتبة استانبول.

- كتاب (المواد الطبية) لديوسقوريدس، صور في شمال العراق سنة ١٢٢٩ م وهو محفوظ في متحف (طوبقابي ساراي) في استانبول.

- كتاب (إخوان الصفا وخلان الوفا) صور في بغداد سنة ١٢٨٧ م وهو محفوظ في مكتبة السليمانية.

- كتاب (كليلة ودمنة) تأليف الفيلسوف الهندي (بيدبا) ترجمه عبد الله بن المقفع، صور في العراق سنة ١٢٠٠ م موجود في المكتبة الوطنية بباريس.

- كتـــاب (خـــواص العقاقـــير) لديوسـقوريدس، صـور في العـراق سـنة ١٢٢٢ م محفـوظ في متحــف فريــر - واشنطن.

ويمكننا في هذا المقام أن نستعرض إحـدى صفحـات (كتـاب الترياق) وهـي تعـرض مشـهدًا مـن الحيـاة الزراعيـة والرعوية في بلاد الرافديـن، وتتكون مـن صورة ملونة رسمت بخطوط حمراء باهتة واكتست بمجموعة محدودة من الألوان يغلب عليها الصفـرة الترابيـة والأخضـر الداكن وقليل مـن الأحمر، وقد رسمت بعنايـة واضحـة ورهافـة ظـاهرة، تعكس مقدرة الفنان في التكوين العفوي المستند إلى خبرة مسبقة.

تتضمـن الصـورة ثمانيـة شـخوص يعملون في الزراعة، في وضعيات مختلفة يمسـكون بـأدوات زراعيـة (المنجـل، الرفش، المذراة، الغربال، الدرّاسة).

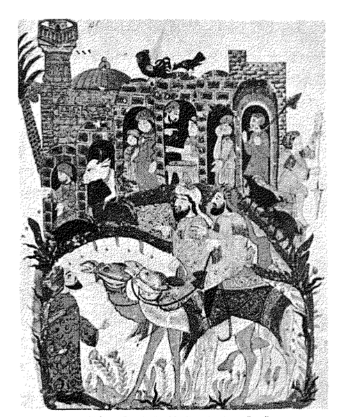
والصـورة ذات مسـتويين أفقيـين: الأعلى يمثـل عمليـة الفلاحـة اليدويـة والحصاد، والأسفل يمثّل عملية دراسـة الحبوب وبدرها في البيدر.

تعلو الصورة زخارف نباتية رشيقة، تتخللـها عبـارة كتابيـة منمقـة بـالخط الكوفي، كما تحـاط الصورة مـن أعلاهـا وأسفلها بهامشـين عريضـين دونـت فيـهما كتابـات وشـروح بخـط نسـخي بديـع وفواصل تشبه النجوم القرآنية الفاصلة بـين الآيات، تحيط بـرؤوس الأشـخاص هالات تذكر بالرسوم المقدسة في الأديرة والكنائس الموجودة في شمـال العـراق، ومـن الطريـف أنّ الأشـخاص يظـهرون بملابس خفيفة أقرب للعري، وفي الجانب الأيسر من اللوحة يبدو شخص في ملابس مزخرفة يحمل طبقًا عليه بضعة صحـون مملوءة بالطعام، بينما يحمل في يسـراه كوزًا فخاريًـا لحفـظ المـاء أو الشـراب، وفي المشهد السفلي يبدو أحد المزارعين يقـود (جرجـرًا) درّاسـة يجرهـا ثـوران، بينمـا أمسـك أحـد المزارعـين بـالمذراة وآخر بالغربال.

أمـا كتـاب (الأغـاني) لأبي فـرج الأصفـهاني، فقـد نسـخ في الموصـل والمنطقة المحيطة بها عـام ١٢١٧، وكـان في الأصل عشرين مجلدًا بقي منـها ستة مجلدات فقط، واحد في كوبنهاغن واثنان في القاهرة، وثلاثة في استانبول.

يتصدر كل مجلّد رسم إيضـاحي في الصفحـــة الأولى «يصـــور في مجلديـــن شخصًا راكبًـا علـى جـواده، وفي مجلديـن آخرين يظهر نفس الشخص متوّجًا، وفي مجلد خامس يحتكم شخصان إليه، بينما في المجلّـد الأخـير تصـور مجموعـة مـن الإنـاث، تمّ التعـرف عليهنّ بـأنهنّ راهبـات منـهمكات في طقـوس تطهيريـة ورقصـات طقوسـية.. والرسـم فـاخر ومـهيب عظيـم الأثـر في كـل حالـة مـن الحـالات، وقـد أوليـت عنايـة كبـيرة لنقشـات الأقمشـة المصنوعـة منـها الأزيـاء، ممـا يـؤدي لأن يكـون التأثـير في الوقـت ذاتـه زخرفيًـا وضخمًا» [٥].

وقد أثارت مقامات الحريري اهتمام النـاس في ذلك العصـر لمـا امتازت بـه من تصوير دقيق للحياة الاجتماعية، بما فيها من مفارقات ونوادر وطرائف، ووجد فيها



مشهد قرية يمثل الحياة الاجتماعية ومختلف المهن والصناعات - مقامات الحريري تصوير يحيى بن محمود الواسطي - بغداد ٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م - المكتبة الوطنية باريس

الفنانون مادة موحية للتعبير عن قضايا عصرهم، فراحوا يتسابقون إلى نسخها وتصويرها، وقد عثر على عشر مخطوطات مزدانة برسوم متنوعة، متفاوتة في قيمتها الفنية، بيد أن النسخة التي صورها الواسطي كانت أكثر إتقانًا وإبداعًا لما امتازت به من براعة في التصوير ومهارة في الأداء، ودقة في الملامح ذات السمات العربية.

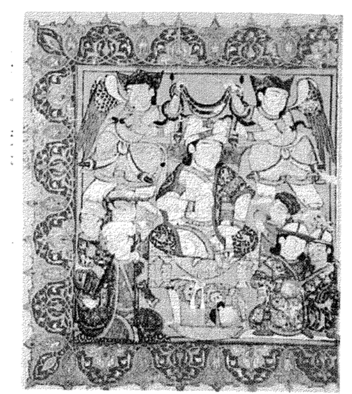
وقد أشاد الناقد (ريتشارد اتنغهاوزن) بالقيمة الفنية لهذه الرسوم، ورأى أن فن التصوير العربي بلغ ذروته في رسوم المقامات التي أنجزت في بغداد «بالجهد الكبير والمتنوع الذي بذل فيها، وقد تمّ ذلك على الرغم من أن كتاب الحريري بحد ذاته لا يقدم للمزوق سوى الشيء القليل»[٦].

وتحتفظ المكتبة الوطنية في باريس بأهم مخطوطة لمقامات الحريري التي صورها الواسطي، ويطلق عليها اسم (حريري - شيفر) نسبة إلى مالكها الأصلي الذي أهداها إلى المكتبة الوطنية في باريس، ووضعت تحت رقم (٥٨٤٧) عربي، وهي تضم ٩٤ صورة ملونة في ٩٩ صفحة قياس ٧٣ سم × ٢٨ سم.

وهناك نسخة من مقامات الحريري تدعى (نسخة القديس فاست) محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس (مخطوطة عربية رقم ٣٩٢٩) تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر، صورت من قبل ثلاثة مزوقين عرب، لكن جميع رسومها متماثلة في الأسلوب الذي يولى الزخارف



راعية الإبل ت مقامات الحريري - يحيى بن محمود الواسطي - المكتبة الوطنية بباريس



مقامات الحريري - أمير وكأس في يده - مصر ١٣٣٤م - المكتبة الوطنية في فينا

عناية بالغة، ويحتمل أن يكونوا جميعهم يعملون في منطقة الموصل، معظم شخوص المخطوطة ذوي هالات من الطراز البيزنطي، رغم ابتعاد الأسلوب عن هذا الفن، حيث تبدو الأشكال متطاولة ورشيقة، والأزياء ذات طابع تقليدي والخلفية ذهبية، والعمائم ذات ملامح عربية.

المدرسة المملوكية:

حين عصفت جحافل المغول ببلاد الرافدين أهدرت آلاف الكتب المصورة حرقًا وغرقًا، لكن سورية الغربية نجت من هذا الدمار بعد معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ م ونتيجة لذلك «خلّفت المدرسة الرافدية القديمة في الرسم والتي انكشفت إلى حد كبير في موطنها تراثًا تمّ تطويره تطويرًا كبيرًا جدًا في سورية ومنها تغلغل إلى مصر، حيث رسمت رسومٌ مصغرة ذات جمال بالغ تحت رعاية السلاطنة المماليك وذلك حتى القسم الأخير من القرن الرابع عشر» [٧].

وتضم المدرسة المملوكية نتاج المزوقين العرب في سورية ومصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ولعل من أبرز أعلامها:

- (شهاب الدين غازي بن عبد الرحمن الدمشقي) الذي صور مقامات الحريري المؤرخة في ١٣١٠ والمحفوظة بالمتحف البريطاني.

- (أحمد بن يوسف بن هلال الحلبي) المتوفى عام ١٣٣٧ الذي أولع في رسم الأوضاع المستحسنة في الأوراق التذهيبية، كما برع في النقش والتزميك.



الاحتفال بشهر رمضان - مقامات الحريري - الواسطي
المكتبة الوطنية في باريس

- (محمد بن قيصر السكندري) الذي صور (دعوة الأطباء) عام ١٢٧٣م المحفوظة بمكتبة امبروز بميلان.

- (أبو الفضل بن أبي اسحاق) الذي صور كتاب (مقامات الحريري) سنة ١٣٣٤ م المحفوظ بالمكتبة الأهلية بفينا.

ومن أشهر إنجازات هذه المدرسة:

١- مقامات الحريري المصورة في سورية عام ١٢٢٣م المحفوظة في ميلانو

٢- مقامات الحريري المصورة في سورية عام ١٣١٠ م المحفوظة في المتحف البريطاني

٣- مقامات الحريري المصورة في سورية عام ١٢٢٢ م المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس.

٤- مقامات الحريري المصورة في مصر عام ١٣٣٤ م المحفوظة في المكتبة الأهلية فينا.

٥- كليلة ودمنة المصورة في سورية عام ١٣٣٤ م المحفوظة في مكتبة (بودليا) اكسفورد.

٦- الحيوان للجاحظ المصورة في سورية القرن الرابع عشر الميلادي المحفوظة في مكتبة ميلانو.

٧- كشف الأسرار المصورة في سورية القرن الرابع عشر الميلادي المحفوظة في مكتبة السليمانية - استانبول.

٨- معرفة الحيل الهندسية المصورة في سورية القرن الرابع عشر الميلادي المحفوظة في مكتبة المترويلتان - نيويورك.

وتوجد في المتاحف المحلية والعالمية «مجموعة من الكتب في الجغرافية والرحلات والطب والفلك والكيمياء والتنجيم والسحر، مزودة بالرسوم والأشكال والخرائط التوضيحية وكلها ذات أسلوب فطري بسيط يتميز بالجرأة والبعد عن التكلف»[٨].

ويبدو جليًا تأثر هذه الكتب المصورة بالأساليب الكلاسيكية السائدة في الفن البيزنطي رغم الخصوصية الماثلة في الأشكال الإنسانية وملامحها العربية، لكن هذا التأثر يبدو في المعالجة الخطية والأناقة الزخرفية المتجلية في ثنايا الملابس، ويتضح ذلك في نسخة من مقامات الحريري التي أنجزت في سورية عام ١٢٢٣ والمحفوظة في ميلانو حيث «نشاهد في إحدى الصور فريقًا من الحجاج يسعون إلى أبي زيد السروجي، ويلاحظ في رسم الأشخاص تأثر الفنان بالمخطوطات البيزنطية..».

بينما تظهر تأثيرات الفن الساساني في كتاب كليلة ودمنة المنجز عام ١٢٠٠ - ١٢٢٥ في سورية من خلال الصور النباتية والحيوانية.

وتعتبر مقامات الحريري المصورة في مصر عام ١٣٣٤ المحفوظة في المكتبة الوطنية في فينا من أفضل المخطوطات المصورة في المدرسة المملوكية، فهي تمتاز بدقة رسومها وجمال زخرفتها ووضوح ألوانها بالإضافة إلى الألوان

المذهبة، وهي تجمع بين التأثيرات الساسانية المتجسدة في الزخرفة وبين التأثيرات البيزنطية المتمثلة في تكوين الشخوص وزخرفة ملابسها، وهي إلى جانب ذلك لا تداني مقامات الحريري التي صورها الواسطي في بغداد، لما فيها من روعة التشكيل وحيوية التكوين، وعبقرية التجسيد الصادق للأوضاع والأشكال التي تمتاز بملامحها العربية الأصيلة.

ويرى بعض الباحثين أن الفنانين والمزوقين العرب كانوا يتمتعون بسيرة محمودة فهم يتصفون بالتقى والورع و«أن المثل الأعلى للفنان أو الصانع الماهر المسلم لا صلة له بالفنان البوهيمي الذي نعرفه في العصر الرومانسي»[9]، وهذا ما نجده لدى رسامي الأيقونات المقدسة في الكنائس العربية، إذ ينبغي للرسام المصور أن يكون على قدر كاف من التقوى قبل أن يباشر عمله في التصوير الأيقوني الذي يتناول قصصًا من الكتاب المقدس.

ويمكننا أن نوجز أبرز سمات فن تصوير المنمنمات العربية بالنقاط التالية:

١- تستمد هذه المنمنمات أغلب موضوعاتها من المادة العلمية أو التاريخية أو الأدبية الواردة في المخطوطات التي تصورها، وهي تعكس الأفكار وأنماط الحياة الاجتماعية وأشكال الشخوص والكائنات، والأزياء والمباني التي سادت القرن الثالث عشر الميلادي.

٢- وردت معظم التصاوير بصيغة واقعية مبسطة من دون تكلف في الرسم أو جنوح في الخيال، أو إمعان في التزويق والزخرفة، ما عدا تلك الرسوم التي استمدت مادتها من بعض القصص الدينية، فقد ساهم الخيال الديني في تأليف عناصرها على نحو يجمع بين الواقعي والمتخيل.

٣- تحفل هذه التصاوير بأشكال إنسانية ذات ملامح شرقية سامية، فالرجال يظهرون فيها قنى الأنوف ذوي لحى سوداء، تظهر عليهم ملامح النشاط، ولا تبدو عليهم الرشاقة والدعة وغيرها من الملامح التي نجدها في الأشكال الإنسانية التي تظهر في المنمنمات الفارسية أو المغولية.

٤- يلاحظ تشابه كبير في أسلوب التصوير السائد لدى مسيحيي الكنيسة الشرقية، حيث تحيط أكاليل النور، وهالات التقديس برؤوس بعض الأشخاص، وتبرز أشكال الأنوف بخطوط بارزة من اللون وتعالج الملابس المزركشة والمزينة بالزهور والزخارف النباتية، وأشكال الملائكة ذات الأجنحة المدببة، وفروع الأشجار، والأشكال النباتية، بأسلوب نمطي يشبه أسلوب التصوير المسيحي الشرقي الذي يظهر التأثر الواضح بالفنين الساساني والبيزنطي، مما دعا بعضهم إلى الاعتقاد بأن هذه الصور الإسلامية من صنع المسيحيين أنفسهم[10].

٥- اعتمد المصورون العرب على التكوين الإيقاعي الذي يستند إلى رهافة

الفنان وخبرته في توزيع عناصر العمل الفني، بما في ذلك من خطوط وألوان وسطوح، بحيث تتكون الأشكال من خطوط داكنة، تكسوها الألوان والزخارف النباتية والكتابية من دون تداخل هرموني، أو تدريج في نغمات اللون أو تباين في إيقاعات الظل والنور كما هو الحال في التصوير التقليدي الغربي.

٦- تكون الأشكال مسطحة، ولا تخضع للتجسيم، وتتوزع في أرجاء اللوحة، وفق أهميتها، وغالبًا ما تكون الوجوه البشرية شبه أمامية، في حين تبدو رؤوس الدواب والماشية في أوضاع جانبية، وهناك بعض المحاولات لإعطاء أشكال الأبنية بعدًا ثالثًا دون إدراك لمفاهيم المنظور في التصوير الغربي.

٧- تتنوع الألوان بكل درجاتها في هذه التصاوير، وتتوزع وفق المعايير الوضعية أو الجمالية المحلية، حيث يبدو الاهتمام واضحًا بالألوان الذهبية والزرقاء على الأرضية البيضاء لما يتضمنانه من دلالات مقدسة، بينما تبدو الخطوط أكثر عفوية وعاطفية، وأقل رهافة من تلك التي نجدها في التصوير الفارسي أو المغولي.

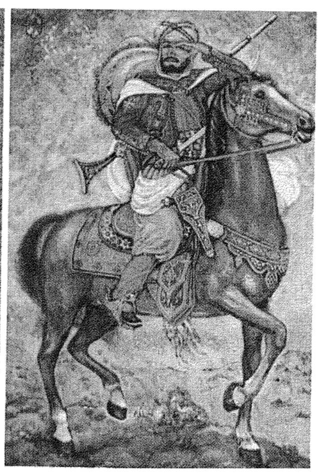
٨- يستعين الفنان بكل العناصر والمفردات الفنية من أجل تجسيد أفكاره ووضعها ضمن إطارها الملائم، وهو يعتمد في ذلك على الأشكال الآدمية والحيوانية والنباتية، والمعمارية بالإضافة إلى الزخرفة الهندسية أو النباتية، وأنماط الكتابة العربية.



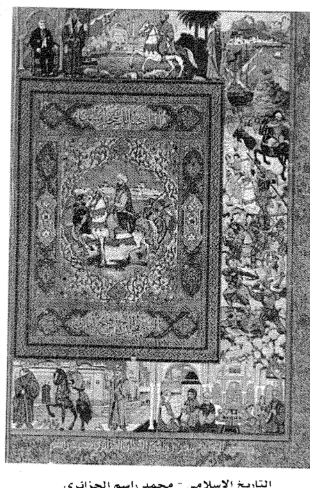
مخطوط (كتاب الترياق) يصور زيارة الطبيب للفلاحين في الحقول. صوّر في العراق في عصر أتابكت السلاجقة، مؤرخ ٥٩٥ هـ- ١١٩٩م. موجود في المكتبة الأهلية بباريس

٩- يرى بعض الباحثين أن التصوير العربي لجأ إلى تقديم فراغ شاقولي بدل الفراغ الأفقي الذي يعتمده الغربيون، حتى يتمكن الفنان من تقديم شخوصه في سلسلة تبدأ من الأسفل نحو الأعلى، وقد أطلقوا على ذلك (المنظور الحلزوني الشاقولي) أو البعد اللولبي مستأنسين ببعض أعمال الواسطي.

لقد كان القرن الثالث عشر بحق عصر النهضة بالنسبة إلى الفن العربي، وكان تصوير المنمنمات يتطور من خلال أسماء لامعة وخالدة، حققت غزارة في الإنتاج عبر الرسوم التوضيحية للكتب الأدبية والعلمية، ولاشك أن هذا الفن شهد تطورًا مماثلاً في المغرب العربي والأندلس، رغم ندرة ما وصلنا منه نتيجة



فارس عربي - محمد راسم الجزائري



التاريخ الإسلامي - محمد راسم الجزائري

الحروب وآثارها المدمرة التي ذهبت بآلاف الكتب والمخطوطات العربية التي ازدانت بفن المنمنمات، وليست منمنمات الفنان الجزائري (محمد راسم) في القرن الماضي إلا امتداداً لمدرسة التصوير العربي في المغرب.■

الهوامش:

١- عمر رضا كحالة - الفنون الجميلة في العصور الإسلامية - المكتبة العربية بدمشق ١٩٧٣ ص١٥٥.

٢- المصدر السابق ص ١٥٦

٣ -٤- نعمت إسماعيل علام - فنون الرق الأوسط في العصور الإسلامية - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٧ ص ٥٤

٥- دافيد تالبوت رايس - الفن الإسلامي - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ترجمة د. منير صلاحي الأصبحي - جامعة دمشق ١٩٧٧ ص ١١٧

٦- زياد أحمد - مقامات الحريري - الحياة التشكيلية - العدد الثالث - دمشق ١٩٨١ ص٣٨

٧- دافيد تالبوت رايس - ١٢٤

٨- أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٤٦

٩- شاخت وبوزورث - تراث الإسلام - القسم الثاني - عالم المعرفة - عدد ١١- ١٩٧٨- الكويت ص ٨٢

١٠- الكسندر بابا دوبولو - الفراغ الحديث - الحياة التشكيلية - العدد ٣ - ١٩٨١ - ص ٤٣.

ضيفة خاتون ـ ملكة حلب

لمياء الجاسر*

١- ضيفة خاتون - حياتها:

في يوم من أيام سنة إحدى (أو اثنتين) وثمانين وخمسمائة هجرية وبينما كان الملك العادل أبو بكر بن أيوب (شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي) يستقبل ضيفاً في مقر إقامته في قلعة حلب بلغته البشرى بولادة طفلة له فسماها "ضيفة خاتون"... وشاءت الأقدار أن ينتقل الملك العادل من حلب إلى دمشق فمصر، ويتسلم الحكم مكانه في مدينة حلب السلطان الظاهر غازي (ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي) ويتزوج ابنة عمه غازية بنت الملك العادل. ولكن يد المنون اختطفت هذه الزوجة...

وفي سنة ٦٠٨ هـ/ ١٦١١م أرسل الملك الظاهر غازي القاضي بهاء الدين ابن شداد ليخطب له ابنة عمه ضيفة خاتون، وفي المحرم من سنة ٦٠٩ هـ/ ١٦١٢م عقد قرانه عليها وكان المهر خمسين ألف دينار.

خرجت ضيفة خاتون في موكبها من مصر مع شمس الدين بن التنبي متوجهة إلى مسقط رأسها حلب مرورا بدمشق حيث التقت بالقاضي بهاء الدين بن شداد، ثم "مرت بتل السلطان"، حيث كانت العساكر الحلبية بانتظارها. وفي حلب احتفل الظاهر غازي لملقاها أيما احتفال وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة وحظيت عنده بحظوة لم يسمع بمثلها[1]. ولما ولدت له الملك العزيز محمد في سنة عشر بقيت حلب شهرين متتاليين مزينة والناس في أكل وشرب ولم يبق طبقة من طبقات الشعب إلا وقد أفاض عليهم السلطان بالنعم ووصلهم بالإحسان كما سير إلى المدارس والخوانق الأغنام والذهب لإقامة الولائم ثم فعل ذلك مع

---

* مهندسة معمارية - ماجستير في علم الآثار

١- الغزي كامل نهر الذهب.. م٣ ص ٩٧. ابن العديم زبدة الحلب من تاريخ حلب م٢ ص ٦٢٣.

الجند والغلمان وأقام للنساء دعوة مشهودة أغلقت لها المدينة. وأما داره في القلعة فقد زينها بالجوهر وأواني الذهب[٢]..

توفي الملك الظاهر غازي سنة ٦١٣هـ /١٢١٦م وتسلم الحكم بعده الأتابك طغرل بك وصاية على الملك العزيز محمد إلى أن بلغ هذا سن الرشد فانفرد بالحكم. ولما توفي الملك العزيز محمد في شهر ربيع الأول من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م أُستدعي الملك المعظم صاحب دمشق وأقارب السلطان وحلفوا للسلطان الجديد الملك الناصر يوسف بن محمد وللملكة ضيفة خاتون، ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ورؤساؤها ثم حلف الأجناد والعامة.. وتولى تدبير الدولة في تلك الفترة الأميران شمس الدين لؤلؤ الأميني، وعز الدين عمر بن محلي ووزير الدولة القاضي جمال الدين الأكرم. وكان جمال الدولة إقبال الخاتوني يحضر بينهم المشورة فإذا اتفق رأيهم على شيء دخل إلى الستر العالي الخاتوني " وأطلعها على ما اتفق عليه رأي الجماعة فتأذن لهم في فعله. وكانت أيضاً العلامات على التواقيع والمكاتبات ترفع إليها[٣].

وهكذا ملكت الملكة ضيفة خاتون حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز محمد وتصرفت بالملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكانت مدة ملكها نحو ست سنين ولما توفيت سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م وكان عمرها نحو تسع وخمسين سنة دفنت في القلعة تجاه الصفة التي دفن فيها ولدها الملك العزيز. وأغلقت أبواب المدينة ثلاثة أيام. وهكذا شاءت الأقدار أن يكون مولدها ووفاتها بقلعة حلب[٤]..

كانت رحمها الله تؤثر الفقراء والعلماء وتحمل إليهم الصدقات الكثيرة وما قصدها أحد إلا ورجع مجبوراً. ولقد كان الملوك من بني أيوب يحترمونها ويقدرونها وكان بعضهم يعرض نفسه لخدمتها ولامتثال أمرها فيما تأمر به ويرسل إليها الرسل تقبل الأرض بين يديها[٥]..

وقد كان لهذه الملكة من الحكمة ما جعلها تأخذ موقف الحياد من النزاع الدائر بين أولاد أخيها من ملوك بني أيوب....كما أنها قامت من أجل التقارب مع سلاجقة الروم بالموافقة على تزويج غياث الدين كيخسرو ببنت السلطان الملك العزيز أخت السلطان الملك الناصر" غازية خاتون" وأن يتزوج السلطان الملك الناصر أخت السلطان غياث الدين كيخسرو "ملكة خاتون بنت كيقباذ"[٦].

٢- أبو ذر سبط ابن العجمي كنوز الذهب.. م١ ص ٣٢٨.
٣- ابن العديم كمال الدين زبدة الحلب م٢ ص ٦٧٧، ٦٨٤، ٦٨٥.
٤- الطباخ راغب - أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء م٢ ص ٢١٢.
ابن العديم - زبدة الحلب من تاريخ حلب م٢ ص ٧٠٧
٥- ابن العديم - الزبدة م٢ ص ٦٩٣.
٦- ابن العديم - الزبدة م٢ ص٦٩١- ٦٩٢. ٦٨٦.

وهكذا كانت الملكة ضيفة خاتون خلال حياتها ابنة ملك، ثم زوجة ملك، فوالدة ملك، فجدة ملك. أما الألقاب التي أطلقت عليها فهي كما جاءت في النصين المكتوبين على جداري مجمع الفردوس الأول ضمن الرواق شرقي الباحة والآخر ضمن الجدار الشرقي الخارجي: "الشرف الرفيع، والحجاب المنيع، الملكة الرحيمة، عصمة الدنيا والدين".

لقد كانت الملكة ضيفة خاتون ثاني ملكة في الإسلام بعد أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحية التي تزوجها المكرم ففوض إليها الأمور. فقامت بتدبير المملكة والحروب واستمرت في الحكم أيضاً بعد وفاة المكرم سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) وخلفه ابن عمه سبأ بن أحمد. وكانت ترفع إليها الرقاع ويجتمع عندها الوزراء وتحكم من وراء حجاب وكان يدعى لها على منابر اليمن ولها مآثر وسبل وأوقاف كثيرة وهي آخر ملوك الصليحيين[٧].

٢- الملكة ضيفة خاتون - آثارها:

مجمع الفردوس:

يقع هذا المجمع ظاهر حلب في حي الفردوس خارج باب المقام، أنشأته الملكة ضيفة خاتون. وجعلته مدرسة، وتربة، ورباطاً سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م). ورتبت فيه عدداً من القراء والفقهاء والصوفية. كما ذكر ابن شداد فيه زاوية لتدريس الحديث الشريف[٨].

يمثل هذا المبنى قفزة في فن العمارة فهو أول مجمع بني ليس في حلب فقط وإنما في العالم الإسلامي. ويحتل ما تبقى منه مستطيلاً أبعاده (٥٦×٤٤) م وقد اتخذ التناظر أساساً في تصميمه ويتألف من (شكل١):

الشكل (١): مجمع الفردوس - مسقط أفقي

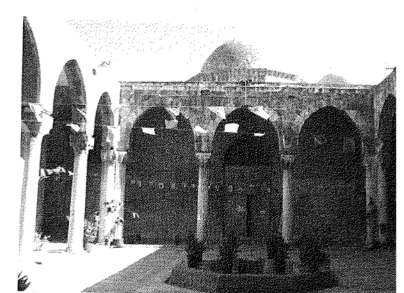
مدخل - يؤدي إلى باحة تضم بركة ماء مثمنة مفصصة على ثلاث طبقات (خاتم سليمان) ويحيط بالباحة من جهاتها الثلاث (جنوب، شرق، غرب) أروقة وقد استعمل الترخيم باللونين الأصفر والأسود بأشكال هندسية في تبليط الباحة والأروقة والإيوان والممر (صورة ١).

تؤدي الباحة جنوباً إلى جامع مستطيل يمتد مع الجدار الجنوبي للباحة قسم إلى ثلاثة أقسام سقف كل منها بقبة.

٧- كحالة رضا - أعلام النساء م١، ص ٢٤٩.

٨- ابن شداد عز الدين الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة م١ ج١. ص١٢٢.

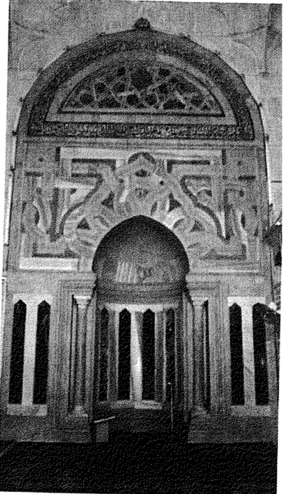
الرباط يدل على ذلك النصوص والأشعار الصوفية المنقوشة على جدرانه الداخلية الثلاثة[١٠]. وبهذا يكون المبنى الرئيسي في هذا المجمع هو الرباط وربما يعود الإيوان الخلفي للمدرسة مما يدعو للاعتقاد أن المدرسة كانت هناك شمال المجمع أيضاً. ويتصل بالممرين على طرفي الإيوانين داران تقعان في الزاويتين الشمالية الغربية، والشمالية الشرقية من البناء وهما على طابقين، أخذ المخطط في الطابق الأرضي فيهما شكل المسقط ذو



صورة (١): مجمع الفردوس: الباحة والأروقة - واجهة الجامع

وعلى طرفيه غرفتا المدفن سقف كل منهما بقبة، وتؤدي الباحة شرقاً إلى قاعة تحتل كامل الجزء الشرقي، وغرباً إلى قاعة أخرى تماثل القاعة الشرقية وتقابلها. تمثل هاتان القاعتان كما تذكر المراجع التربة والرباط. وتنقسم كل منهما بواسطة قوسين مدببين كبيرين إلى ثلاثة أقسام سقف كل منها بقبة.

وتؤدي الباحة شمالاً إلى إيوان يقابل الجامع على طرفيه ممران يؤديان شرقاً إلى المدخل والقسم الخلفي. وغرباً إلى القسم الخلفي وغرفة المؤذن. هذان الممران الطويلان يؤديان شمالاً إلى خارج المبنى حيث يعتقد أن بستاناً - يضم دواليب ماء - تابعاً له كان يقوم هناك[٩]. وخلف هذا الإيوان إيوان آخر كان ينفتح على ذلك البستان أيضاً.



صورة (٢): مجمع الفردوس: المحراب

أعتقد أن الإيوان الأمامي يعود إلى

٩- طلس أسعد - الآثار الإسلامية ص٨٥.

١٠- انظر النص عند الغزي - النهر م٢ ص ٢١٩- ٢٢٠.

الإيوانين المتقابلين، وتذكر بعض المراجع أنهما كانا يضمان الزاوية والمطبخ. أما الداران في الطابق الأول فقد كانتا كما يبدو معدتين لإيواء طلاب المدرسة أو المتصوفة.

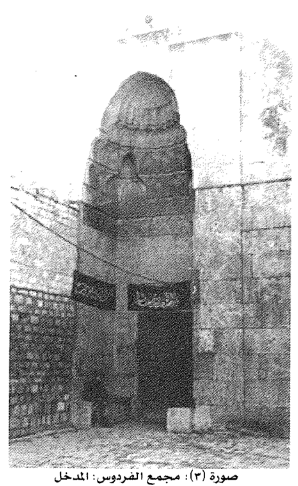
المحراب (صورة ٢):

يعتبر المحراب في جامع هذا المجمع من أجمل المحاريب في العالم الإسلامي، وهو مصنوع من الرخام الأبيض المعرق والأسود والأصفر استعمل فيه التناوب اللوني بين الأبيض والأسود، مسقطه الأفقي نصف دائرة متجاوزة، ويضم ناصيتين مجوفتين تضم كل منهما عموداً من الرخام الأبيض، لكل منهما تاج مزخرف بزخارف نباتية وقاعدة فوق ركيزة من الحجر الأصفر المصقول. أما واجهته فهي تضم أشكالاً هندسية متداخلة، وقد استعملت الدوائر بشكل خاص حول قوس المحراب المدبب، ويتوج واجهة المحراب أشكال نجمية تملأ فراغ قوس هناك يحيط بها نص قرآني كتب بخط الثلث.

المدخل الرئيسي:

ينفتح على الشرق وهو يتألف من بوابة خارجية يليها دهليز على شكل حرف L (الباشورة). والبوابة الخارجية صغيرة قليلة العمق ويسقفها نصف قبة مدببة ومفصصة والانتقال من زاويتي البوابة القائمة إلى الشكل المستدير لنصف القبة يتم بالمقرنصات وبحنية ركنية مفصصة.

أما واجهة المدخل (صورة ٣): فهي بوابة مرتفعة يتصدرها باب خشبي يحده



صورة (٣): مجمع الفردوس: المدخل

من الأعلى نجفة مستقيمة مكونة من قطعة حجرية واحدة تأخذ كامل فتحة البوابة. يليها إلى الأعلى ثلاث حجارة كبيرة بنيت على سيفها، فوقها نص قرآني، يلي النص إلى الأعلى صف من الحجارة (مدماك) ثم ثلاث طبقات من المقرنصات تتصاغر كلما اتجهنا إلى الأعلى، وتنتهي بنصف قبة مفصصة، ويحد البوابة من الأمام قوس مفصص يأخذ شكله من نصف القبة والمقرنصات أسفلها..

يستمر النص على طول الواجهة على طرفي البوابة، وهو يتكون من بسملة وجزء من سورة الزخرف بالإضافة إلى

نص تاريخي كتب على الجدار جنوب البوابة ينسب البناء إلى ضيفة خاتون ابنة الملك العادل.

الواجهات الداخلية

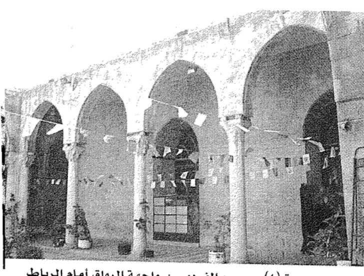
الواجهة الشمالية:

رواق يطل على الباحة بعقد ثلاثي مدبب، يرتكز على عمودين مقرنصين في الوسط ونصفي عمودين ملتحمين بركيزة مربعة في الطرفين (صورة ١) ويربط بين ذروة التيجان قضبان خشبية تستمر على طول الواجهة غايتها مقاومة الزلازل وتخفيف وطأتها على المبنى. ويتوج الواجهة في الأعلى القباب. ومن الجدير بالذكر أن هذا المبنى ضم أول أعمدة مقرنصة وأن الأعمدة السابقة لها كانت تضم أربعة مثلثات كروية، مثلث في كل زاوية من زوايا التاج المكعب، أو كانت كورنثية أو متطورة عن الكورنثية....

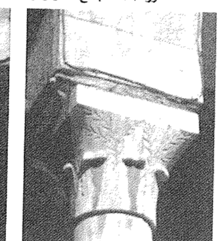
خلف الرواق تبدو واجهة الجامع بأقواسها الثلاثة المتساوية، وقد سدت هذه الأقواس وترك فيها باب. وهناك نص على طول الجدار في الأعلى.

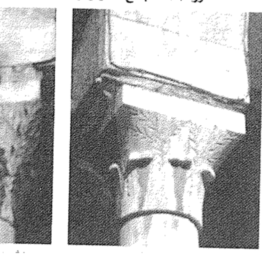
الواجهة الشرقية - واجهة الرباط (صورة ٤):

تطل على الباحة بأربعة أقواس مدببة ترتكز على جدار شمالا، فثلاثة أعمدة، ثم نصف عمود ملتحم بالجدار جنوبا، العمود الأول مما يلي الشمال له تاج مزخرف بزخارف نباتية ناعمة يقابله في الرواق المقابل عمود له تاج مشابه (صورة ٥، ٦). بينما زخرفت تيجان الأعمدة الثلاثة الباقية بمقرنصات لها



صورة (٤): مجمع الفردوس: واجهة الرواق أمام الرباط





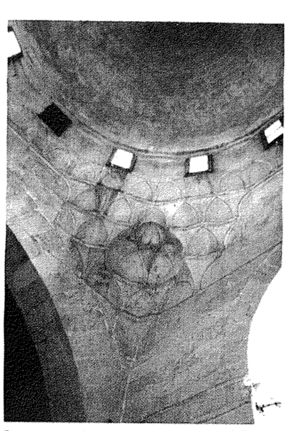
صورة (٥، ٦): تيجان أعمدة مزخرفة بزخارف نباتية

أشكال مختلفة. ويصل بين ذروات التيجان قضبان خشبية. وخلف الرواق تبدو واجهة الرباط التي تنفتح عليه بثلاثة أقواس كبيرة مدببة. وتضم جدرانها نصوصا صوفية مما يدل على أن هذا القسم في الطرف الغربي من الباحة يمثل الرباط. ويتوج الواجهة القباب الثلاث المدببة للقاعة.

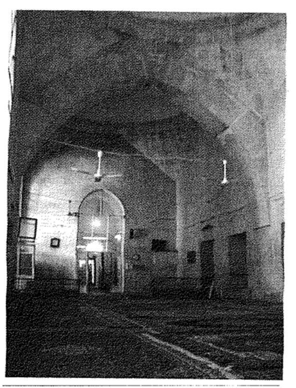
أما من الناحية الإنشائية فيمتاز هذا المبنى بمتانته كأنه الحصن وقد استعمل في تسقيفه التقاليد المستعملة في أبنية العهد الأيوبي كالقبو المتطاول

ونراه فوق الأواوين ودهليز المدخل والممرات. ولكن أصبح التركيز هنا على القباب أكبر فهناك (١١) قبة تتوج البناء منها قبة مدببة حجرية فوق القسم الأوسط من الجامع تقوم فوق رقبتين تبدوان من الخارج الرقبة العلوية مضلعة اثنى عشرية وتحملها رقبة ثانية مربعة وهي حالة نادرة في آثار حلب، أما باقي القباب فقد كانت قرميدية وبدون رقبة. والانتقال من الشكل المربع إلى الشكل المضلع يتم بالمقرنصات والحنايا الركنية المفصصة في القبة الوسطى من الجامع (صورة ٧) وهي حالة متطورة للحنايا الركنية، وكان الانتقال كما في أغلب المباني الأيوبية بالمثلثين الهرميين المشطوبين المقلوبين في باقي القباب (صورة ٨).

كما استعمل القوس المدبب الذي تميزت به العمارة الإسلامية في الأروقة وواجهة القبلية والقاعات وواجهات الأواوين والأقواس الفاصلة في القبلية والقاعات وفي المدخل. والقوس العاتق المثلثي الذي تميزت به العمارة الأيوبية في مدينة حلب فوق خزن الإيوان الجدارية والقاعات. والقوس المفصص يأخذ شكله من نصف القبة ومن المقرنصات التي يحدها في المدخل والعقد الثلاثي في واجهة القبلية والرواق أمامها. والنجفة الكبيرة من حجرة واحدة فوق باب المدخل وتحت الأقواس العاتقة.



صورة (٧): جامع الفردوس: مناطق الانتقال، الحنية



صورة (٨): الفردوس: داخل القاعة، المثلثين الهرميين في مناطق الانتقال والأقواس العاتقة فوق الفتحات

٢-٢ الرباط الناصري (خانكاه الفرافرة، خانكاه العادلية):

يقع في حي الفرافرة، داخل باب الأربعين[١١]. وكان يسمى الدرب أمامها درب بني الريان[١٢]. ويسمى حالياً جادة عبد الله الخطيب المنطقة - ١- حي الفرافرة - ١.

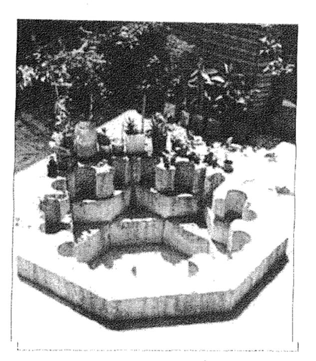
أنشأ الرباط الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولذلك يسمى بخانكاه العادلية، في أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد ولذلك يطلق عليه" الرباط الناصري"، وهناك نص فوق الباب[١٣] يدل على تاريخ الإنشاء وهو سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

خصص هذا الرباط للنساء المتصوفات ويذكر أن فاطمة بنت قريمز (ت: ٩٦٦هـ/١٥٥٨م) كانت شيخة للخانكتين العادلية والزجاجية كما يذكر أيضاً أن ست المنى بنت محمد الزكي (ت: ٩٦٣هـ/١٥٢٩م)[١٤] وكانت شيخة دينة خيرة جاورت بالخانكاه العادلية بحلب أكثر من نصف قرن. مما يدل على استمرار عمل الخانكاه في أوائل الفترة العثمانية.

كانت غرف الرباط في الطابق الأول عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م) متهدمة ويسكنها غرباء من العبيد والجواري والفقراء. وظل البناء بدون ترميم أكثر من مئتي عام لذلك كان سائراً إلى الخراب. وقد قامت مديرية الآثار منذ فترة بترميم القبلية وبعض أقسامه. يتألف المبنى على الطرفين من طابقين بينما يأخذ الإيوان والقبلية ارتفاع الطابقين.

٢- ٢-١ الطابق الأرضي (شكل ٢):

يتألف من مدخل يليه دهليز منكسر L وقد وضع المدخل منحرفاً وذلك ليسمح بوضع الإيوان أمام القبلية. يؤدي المدخل إلى باحة (١) تضم كما في مجمع الفردوس بركة مفصصة مثمنة مكونة من(٨) أحجار كبيرة على ثلاث طبقات (صورة ٩).



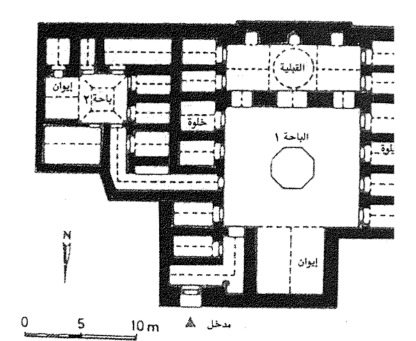
صورة (٩): الرباط الناصري: البركة

١١- لذلك يطلق عليها خانكاه الفرافرة وخانقاه باب الأربعين أيضاً.

١٢- الطباخ راغب - أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء م٥ ص ٢٨. ابن الحنبلي- در الحبب ج١ قسم ٢ ص ٢٠٩. من الأجدر المحافظة على التسميات القديمة للجادات والحارات.

١٣- جاء النص عند بيشوف الجرماني غير كامل وفيه أخطاء كثيرة. انظر: بيشوف تحف الأنباء ص ٢٠٣.
الطباخ - المرجع السابق م٥ ص ٢٨. Herzfeld. tome 1 , vole 2 p 303.

١٤- كان للأولى خط جميل ونسخ كثير لكتب كثيرة والعبارة الفصيحة والمثابرة على النصيحة والتقشف.
انظر حول ذلك: الطباخ - أعلام النبلاء م٦ ص ٤٣، ٢٨. أيضاً ابن الحنبلي: در الحبب ج٢ قسم ١ ص٢١، ج١ قسم٢ ص٦٧٧ ترجمة ٢٠٩



شكل (٢): الرباط الناصري: مسقط أفقي (عن سوفاجيه)

يحد الباحة شمالا إيوان، وجنوبا قبلية مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أقسام سقف القسم الأوسط بقبة. على كل من طرفيها غرفتان صغيرتان، وغربا (٤) غرف صغيرة وشرقا بدءا من الجنوب غرفتان يليهما دهليز يؤدي إلى باحة (٢) يليه غرفة. أي ما يعادل (١١) غرفة. والدهليز المؤدي إلى الباحة (٢) منكسر يضم في قسمه الأول درج يصعد إلى الطابق الأول وفي قسمه الثاني غرفة. وقد غاب المدفن في هذه الخانكاه.

أما الباحة (٢) فأعتقد أنها مخصصة لإقامة من تتولى المشيخة على الخانكاه وهي صغيرة مسقوفة بقبة مربعة مفتوحة كما في المدارس الأناضولية[15]، تضم بالقرب من مدخلها بئرا معطلا ويحيط بها من الشرق إيوان صغير ومن الجنوب غرفة وموزع يوزع إلى حمام ودورة مياه، ومن الغرب مطبخ ويسقف كل منها قبو متطاول.

٢-٢-٢- الطابق الأول:

يصعد درج مكون من (١٥) درجة من دهليز الكتلة الشرقية إلى موزع يوزع إلى غرفة في الشرق وحمام في الشمال وغرفة في الجنوب وإلى ممر يتجه غربا بمحاذاة الدرج ويتفرع هناك إلى فرعين شمالي وجنوبي يوزعان إلى غرف تقع على طرفيهما وينتهي الموزع في الجهة الشمالية بدرج يصعد إلى السطح وبموزع يوزع إلى غرفتين بمحاذاة جدار الإيوان. سقفت كل من الغرف والموزع بقبو متطاول ويضم سقف الموزع فتحات مربعة للتهوية والإنارة.

أما الكتلة غرب الباحة فقد كان هناك كما أعتقد درج حجري بمحاذاة الإيوان ولكنه تخرب فأنشئ عوضا عنه أمام الإيوان درج خشبي مكون من (٢١) درجة ينتهي إلى موزع يطل على الباحة بثلاث نوافذ والباب ويوزع إلى (٦) غرف في الجهة الغربية منه وقد سقفت كل من هذه الغرف وكذلك الموزع بقبو متطاول.

تميزت هذه الخانكاه بمدخلها وبالزخرفة الخشبية فوق مدخل القبلية فيها وبمحرابها.

١٥- انظر جاسر لمياء مدارس حلب الأثرية ص ٤٢.

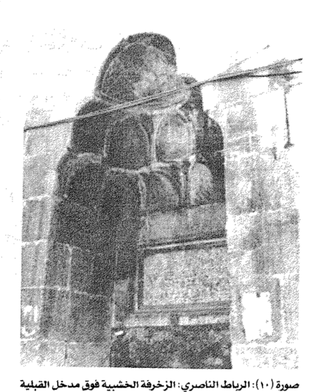
المدخل: بوابة مقرنصة صغيرة ينزل إليها بدرجتين[16] على طرفيها مكسلتان صغيرتان. يليها كما في مجمع الفردوس دهليز منكسر على شكل حرف لـ تنفتح عليه غرفة محولة إلى دورات مياه ويسقفه قبو متطاول. أما واجهة المدخل (صورة ١٠) فهي عبارة عن باب على طرفيه حجران كبيران أسودا اللون وتعلوه نجفة من قطعة حجرية واحدة سوداء فوقها لوحة كتب عليها ضمن إطار النص المذكور. وفوق النص صفان من المقرنصات الكبيرة تدور على محيط البوابة وتنتهي بنصف قبيبة تضم زخارف نجمية نرى مشابها لها في الباب الثانوي للمدرسة الكمالية العديمية (الطرنطائية).

مدخل القبلية:

وهو عبارة عن عتبة يسقفها طبقة من الخشب المزخرف بأشكال نجمية بارزة مثمنة وخماسية على شكل لوحة يحيط بها زخارف ناعمة محفورة (صورة ١١).

المحراب (صورة ١٢):

مسقطه الأفقي نصف دائرة متجاوزة له ناصيتان مجوفتان في كل منهما عمود من الرخام الأزرق يعلوه تاج كورنثي متطور (صورة ١٣). يحده من الأمام قوس مدبب يضم مفتاحه دائرة تضم مسدسات محفورة حول نجمة سداسية ضمنها قطع صغيرة من الفسيفساء الملونة تؤلف أشكالا نجمية، وهناك أشكال فسيفسائية أيضا في



صورة (١٠): الرباط الناصري: الزخرفة الخشبية فوق مدخل القبلية

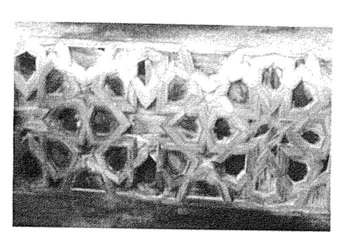
المثلثين على طرفي القوس (صورة ١٤). وحنية المحراب عبارة عن نصف قبة يتناوب فيها الحجر الأصفر مع الرخام الأسود المعرق تتطاول إلى الأمام، أما محيط المحراب فقد كسي بألواح من الرخام الأبيض والأخضر تتناوب على محيطه أسفلها أفاريز من الحجر الأصفر تستمر إلى واجهة المحراب وتشكل قاعدتين للعمودين المذكورين.

أما من الناحية الإنشائية: فقد استعملت في هذا المبنى قبة نصف كروية فوق رقبة مثمنة (فوق وسط القبلية). والانتقال من الشكل المربع إلى المضلع بالمقرنصات. والباحة المسقوفة بقبة مربعة مفتوحة. كما استعمل القبو المتطاول (في الغرف والإيوان وطرفي القبلية والممرات) والقوس المدبب (في

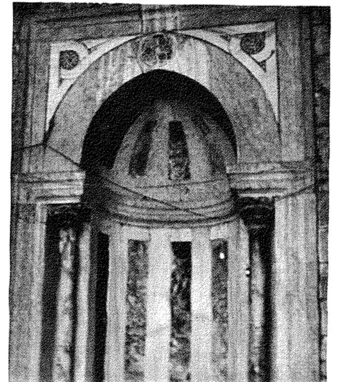
١٦- جاءت في المراجع درجة واحدة ربما رفع الشارع أمامها عبر الأيام.

واجهة الإيوان والقبلية) والقوس العاتق المدبب في واجهة القبلية والقوس المجزوء في نوافذ وأبواب والقوس العاتق المثلثي في نوافذ وخزن والمفصص الثلاثي (يتقدم المقرنصات ونصف القبة في المدخل والنجفة المستقيمة قطعة واحدة فوق باب المدخل. والقوس المستقيم تحت الأقواس العاتقة.

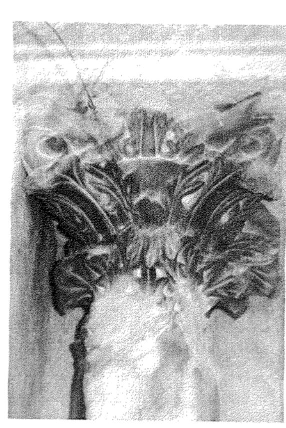
وهكذا نرى أنه لم تختلف خانكاه الفرافرة في تصميمها أو في عناصرها المعمارية والإنشائية والزخرفية كثيرا عن رباط الفردوس السابق ذكره الذي بنته الملكة ضيفة خاتون أيضا وعن المدارس الأيوبية بشكل عام.■



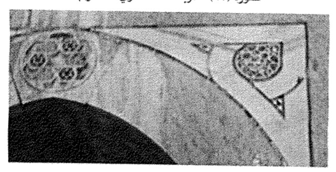
صورة (١١): الرباط الناصري، الزخرفة الخشبية فوق مدخل القبلية



صورة (١٢): الرباط الناصري: المحراب



صورة (١٣): الرباط الناصري (خانكاه الفرافرة): عمود المحراب

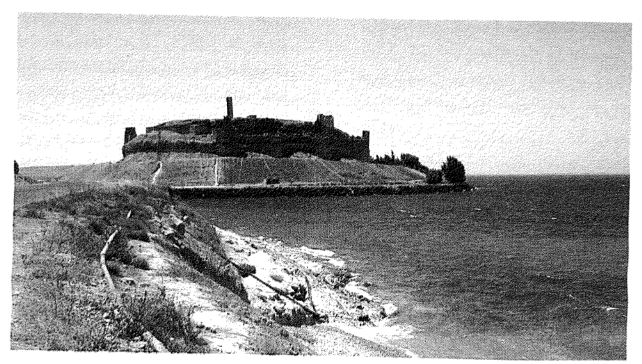


صورة (١٤): الرباط الناصري زخرفة فسيفسائية في المحراب

قلعة جعبر

في حوض الفرات الأوسط بسوريا (بين الأمس واليوم والمستقبل)

شوقي شعث *



١- موقع القلعة:

تقوم قلعة جعبر على هضبة صخرية جيرية على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهي بهذا الموقع تسيطر على نهر الفرات. تبعد القلعة عن مدينة الثورة سبعة عشر كيلو مترًا شمالاً وتأخذ شكلاً بيضويًا تقريبًا ويعتقد أنها بالقرب من أحد المعابر (مخاضة)[1] في نهر الفرات مقابل الرصافة في البادية الشامية، وتعتبر القلعة حلقة في سلسلة من القلاع والمواقع الحصينة على طول وادي الفرات منذ زمن طويل.

---

* مدير آثار ومتاحف المنطقة الشمالية، سابقاً.

اسم القلعة:

حملت القلعة في مسيرة حياتها عدة أسماء، من أهمها اسمان:

الأول الدوسرية في الفترة التي سبقت الإسلام، والثاني: جعبر في القرن الخامس الهجري.

يعتقد أنها حملت اسم "دوسر" نسبة إلى أحد غلمان النعمان بن المنذر ملك الحيرة ويقال إنها سميت باسم دوسر بن تغلب بن وائل وهو من أصل عدناني. سمي بنو تغلب بالدواسر ذلك لأنه كان لهم جيش عظيم يسمى (الداء السائر) الذي إذا دخل مدينة دمرها وإن أغار على قبيلة أبادها، وقد تطورت عبارة الداء السائر مع الزمن إلى أن أصبحت "الدواسر" بعد حروب بني تغلب مع بكر نزحوا من الشمال إلى الجنوب تاركين ديار تغلب وبكر من مواقعهم في الشمال مثل قلعة الدوسرية (جعبر) التي كانت تسمى باسمهم ونزحوا إلى جنوب نجد بالمملكة العربية السعودية اليوم (مجلة فواصل ٤٩، يونيو حزيران ١٩٩٨ ص٩) أما الاسم الثاني فنسبة إلى شيخ قبيلة هو جعبر بن سابق القشيري الذي تنتسب إليه وكان يلقب سابق الدين، ويصف ابن خلكان سابق أنه كان أسن وأعمى وكان لديه ولدان يقطعان الطريق ويخيفان السابلة وظلت القلعة بيد آل قشير إلى أن أخذها السلاجقة منهم عام ٤٧٩هـ.

تاريخ القلعة: يبدأ تاريخ القلعة في الوضوح منذ سقوطها بيد السلطان السلجوقي ملكشاه، وقد لعبت إمارة جعبر دورًا كبيرًا في أحداث الحروب الصليبية فقد أخذها الإفرنج القادمون من أوديسا (الرها) عام ٤٧٩هـ/ ١١٠٤م ولكن ما لبث أن حررها المسلمون من أيديهم. آلت القلعة بعد وفاة سالم بن مالك عام ٥١٩هـ إلى ولده مالك، ففي عهده وعهد ولده قدم ملاذاً لكثير من المستجيرين به ففي عام ٥٠٧هـ لجأ إلى القلعة رئيس حلب صاعد بن بديع بعد أن خلعه ألب أرسلان بن رضوان عن رئاسة حلب، وفي عام ٥١٥هـ لجأ إليها الملك سلطان شاه وأخوه إبراهيم ابنا رضوان ونفر من اتباعهما حين طردهم من حلب سليمان بن أرتق التركماني، وفي عام ٥٢٥هـ وصل إليها دبيس بن صدقة بعد أن هزم في معركة مع جيش الخليفة المسترشد، وغيرهم.

بعد وفاة مالك بن سالم أمير قلعة جعبر تولى إمارتها ولده بدران وكان بدران هذا ابن أسيرة إفرنجية كان قد أسرها المسلمون، ويتحدث عن قصتها أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار تحت عنوان: (إفرنجية تفضل أن تكون زوجة لإسكافي من قومها) بعد أن كانت أميرة وأم أمير وهو الأمير بدران بن مالك أمير قلعة جعبر، ويفصل أسامة ذلك قائلاً: إن الله ساق لهم سبيًا ورأى والده أي والد أسامة بين السبايا مليحة فسيرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، وكان صديقه فأعجب بها واتخذها لنفسه فولدت غلامًا سماه بدران حيث أصبح ولي العهد وكبر الغلام ومات شهاب الدين فأصبح ولده بدران

أميرا على القلعة وأصبحت أمه الإفرنجية الآمرة الناهية، إلا أن الحنين للعيش بين قومها دفعها لمواعدة نفر منهم وتدلت من القلعة بحبل وسارت معهم إلى سروج، وهي يوم ذاك بيد الإفرنج وهناك تزوجت بإسكافي إفرنجي وابنها صاحب قلعة جعبر.

وعند وفاة بدران أمير قلعة جعبر تولى أخوه علي وظل أميرًا على القلعة فترة طويلة وفي زمانه عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م حاصر القلعة الأتابك عماد الدين زنكي الذي لقي مصرعه على يد أحد غلمانه حسب ما تذكره الرواية التاريخية ليلة ١٤/ أيلول عام ١١٤٦م وفي رواية أخرى أن عماد الدين ذهب ضحية مؤامرة دبرها أمير قلعة جعبر، على أي حال لقي اغتيال عماد الدين على أي وجه استنكار العالم الإسلامي كيف لا وقد كان عماد الدين رافعًا لراية الجهاد ضد الإفرنج الصليبيين، وفي عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م تمكن نور الدين زنكي ابن عماد الدين من أخذ القلعة بعد حصارها مرتين فلم يظفر بها ولكن بعد ملاطفة صاحبها وإغراق الوعود الكثيرة له سلمها إليه وعوضه عنها سروج وأعمالها الواقعة بين حلب وباب بزاعة وعشرون ألف دينار معجلة وكانت يومها بيد المسلمين بعد أن حررها جميعًا عماد الدين زنكي، فقيل يومها لأمير قلعة جعبر المخلوع: أيهما أحب إليك مقامًا سروج والشام أم قلعة جعبر فقال مجيبًا: هذه أي البلاد الجديدة أكثر مالاً وأما العز ففارقناه يوم تركنا قلعة جعبر.

بعد أن آل الأمر إلى بني أيوب بقيادة صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام دخلت القلعة في حكمهم، ثم أصبحت في حكم الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل وظلت في حكمه قرابة اثنين وعشرين عامًا، ضمت بعدها إلى ممتلكات حلب حين تنازل الملك الحافظ عنها لحلب وسلمها إلى أخته ضيفة خاتون التي عوضته عنها وعن بالس بإعزاز وبلدات أخرى تساوي ما تنازل عنه، ويذكر التاريخ إن الملك الحافظ ساهم في حفظ المملكة الأيوبية الكبيرة مع غيره من الملوك الأيوبيين، فقد حدث أن شارك بجيوش قلعة جعبر في الحملة التي قام بها السلطان الكامل سلطان مصر عام ٦٣٦هـ/١٢٣٣م لقتال كيقباز ابن كيخسرو وسلطان السلاجقة الروم مع ستة عشر ملكًا من الملوك اشتركوا في الحملة المذكورة سابقًا، إلا أن الفشل كان نصيب تلك الحملة بسبب تقاعس بعض الملوك ٦٣٤/١٢٣٦م، وفي عام ١٢٤٠م تنازل الملك الحافظ عن قلعة جعبر وبالس وسلمها لأخته خاتون كما أسلفنا سابقًا.

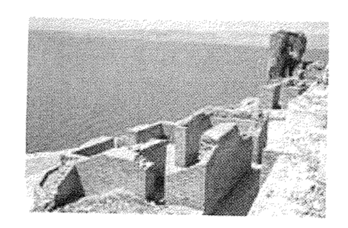
تعرض العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد لغزوة همجية مدمرة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد المغول بقيادة هولاكو وخضعت فيها جميع البلاد الواقعة إلى الغرب من بغداد ومنها الممتلكات الأيوبية في قلعة جعبر وحلب وكادت تسقط بيد المغول مصر التي كانت يوم ذاك في أيدي المماليك إلا أن الظروف المحلية والدولية ساعدت على

تغيير مجرى المعركة ونتائجها فقد عاد هولاكو إلى بلاده بسبب قضايا داخلية تتعلق بولاية العرش، ومن طرف آخر استعد العالم الإسلامي في مصر والشام لملاقاة المغول فكانت معركة عين جالوت بفلسطين عام ١٢٦٠م حيث هزم المغول وعادوا إلى بلادهم يجرون ذيول الهزيمة.

كانت من نتيجة الغزو المغولي أن خربت كثير من القلاع والمدن ومنها قلعة جعبر حيث ظلت خرابًا حتى تم تجديدها زمن السلطان المملوكي محمد الناصر قلاوون الألفي، فقد وصلها الأمير سلف الدين أبو بكر الباشري مبعوثًا من قبل نائب دمشق الشام تنكز مصطحبًا معه الرجال والصناع وشرع بعمارتها وقد استنفذ ترميمها ما في بيت النيابة من أموال، ويومها كانت قلعة جعبر إحدى ثلاث نيابات في الجزيرة شرقي الفرات، ويذكر ابن فضل الله العمري أن القلعة زمن الناصر محمد كانت تابعة إلى دمشق ثم ما لبثت أن أعيدت إلى حلب.

دفن بالقرب من القلعة سليمان شاه جد الأتراك العثمانيين الذي توفي أثناء عبوره نهر الفرات إلا أن العثمانيين بعد أن غرق زعيمهم سليمان شاه تطيروا واتجهوا نحو آسيا الصغرى ويذكر أن العثمانيين ينتسبون إلى قبيلة قاني التركمانية التي كانت تعيش في كردستان وكان أفرادها يزاولون مهنة الرعي، أجبرهم الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على التحرك نحو الغرب ثم توجهوا إلى العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى وكانوا بزعامة "سليمان شاه بن قيا ألب" جد العثمانيين الذي قرر الهجرة عام ٦٧١هـ/١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول واستقر في مدينة أخلاط في شرق تركية الحالية وعندما هدأ الغزو المغولي رغب سليمان شاه بالعودة إلى موطنه الأصلي واتجه نحو الرقة وعندما أراد عبور الفرات عند قلعة جعبر غرق عام ٦٨٢هـ على نحو ما أسلفناه ودفن هناك بالقرب من قلعة جعبر وبعد موته انقسم القوم فمنهم من عاد إلى وطنه الأصلي ومنهم من تابع السير إلى الأناضول حيث استقر هناك (محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ٥٩/٨، علي الصلابي، الدولة العثمانية ص٨) وظل ذلك القبر "قبر سليمان شاه" مزارًا للأتراك العثمانيين بالقرب من قلعة جعبر وقد نظم وجوده في الأراضي السورية بموجب اتفاقية بين سورية وتركيا عقدت عام ١٩٢٣ زمن الانتداب الفرنسي، ثم رُئي نقله إلى مكان آخر شمالاً بعيدًا عن منطقة الغمر حيث نقل وبني له ضريح جديد بمنطقة "قراقوزاق".

قل شأن قلعة جعبر زمن العثمانيين وتراجعت تدريجيًا حتى أصبحت خرابًا وملاذًا للقبائل العربية البدوية ومواشيهم، وإلى الشرق من قلعة جعبر هناك قرية تعرف باسم جعبر الشرقي وتبعد عن القلعة نحو ثلاثة كيلو مترات باتجاه الشرق وهناك قرية أخرى تدعى بقرية جعبر الغربي وتقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات إلى الغرب من القلعة.



٢- عمارة القلعة:

ذكرنا سابقًا أن القلعة تتوضع فوق هضبة قابلة للانحلال والتفتت عند ملامستها الماء، يرتفع سطح الهضبة إلى منسوب +٣٤٧م وبالتأكيد تأثرت تلك الهضبة بعوامل الطبيعية كالرياح والأمطار مما سبب تآكلها وأصبحت كقطعة الفطر الكبيرة.

تأخذ القلعة شكلاً إهليليجيًا يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٣٢٠م ومن الشرق إلى الغرب ١٧٠م يحيط بها سوران تقوم عليها أبراج يبلغ عددها ٣٥ برجًا بعضها يأخذ شكل المربع وبعضها يأخذ الشكل السداسي وبعضها مثمن الشكل وبعضها نصف دائري.

تضم القلعة عددًا كبيرًا من المساكن والقصور والمساجد، في المنطقة الجنوبية الغربية من القلعة مبنى كبير ينقسم إلى عدة غرف وممرات يتصل بعضها ببعض مبنية بالقرميد وأرضها مرصوفة بالحجارة أو القرميد تأخذ شكل زخارف هندسية بديعة مزودة بأقنية للمياه المالحة بشكل متقن يدل على مهارة المهندس المسلم، ويقال إن القلعة الحالية كانت مسبوقة بقلعة أنشأها دوسر غلام النعمان بن المنذر المشار إليه سابقًا.

يقوم بوسط القلعة مسجد مستطيل الشكل بني من الآجر والحجارة الكلسية المقطوعة من المنطقة المجاورة، يتكون المسجد كغيره من المساجد من صحن بالوسط تحيط به أروقة أكبرها رواق القبلية وقد تم التعرف على أن منطقة الجامع قد استخدمت عدة مرات بعد هدم المسجد والقلعة زمن هولاكو، للمسجد أيضًا مئذنة ضخمة أسطوانية تقوم على قاعدة مربعة لا تزال قائمة وهي مبنية من القرميد تزينها زخارف كتابية.

عثر في السفح الغربي للقلعة على مدافن منحوتة بالصخر تعود في معظمها إلى العصر البيزنطي مما يدل على أن القلعة استخدمت في العهد البيزنطي، ومن أهم تلك المدافن مدفن مقطوع في الصخر يتألف من فناء مستطيل طوله ١٧م وعرضه ٩ أمتار تحيط به من الشمال والجنوب والشرق تسعة إيوانات مقطوعة بالصخر نحتت على واجهتها وعلى مداخلها صلبان بيزنطية ويظهر أن هذه المدافن نهبت سابقًا حيث لم يعثر فيها على أية لقى. عثر وفي السفح الغربي للقلعة كذلك على بئر منحوتة بالصخر مليئة بكسر من الخزف الإسلامي وبعد فرز تلك الكسر أمكن تجميع نحو ثلاثين آنية مختلفة الأشكال من أهمها إناء[٢] يرقى إلى القرن الثالث عشر الميلادي ذو بريق معدني عليه زخارف نباتية وصورة

الشمس يتوسطها وجه إنسان يعتقد أنها تشبه صورة السلطان السلجوقي كيخسروا الثاني ابن كيقباد الذي حكم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

٣- صيانة وترميم القلعة:

جرت بالقلعة عدة ترميمات قصد بها المحافظة على القلعة وصيانتها، وقد جرت تلك الترميمات بعد كل غزوة سببت خرابًا بالقلعة وأهم تلك الترميمات وأوسعها ترميمان:

١- تم تجديد وترميم قلعة جعبر في العصر المملوكي زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٣٥هـ كما أسلفنا فقد وصل إلى قلعة جعبر الأمير سلف الدين أبو بكر الباشري موفدًا من قبل نائب الشام الأمير تنكز مصطحبًا الرجال والعمال المهرة وشرع بعمارة القلعة وترميمها بعد أن لحق بها الخراب من قبل المغول بقيادة هولاكو، وتذكر الكتب بأن تلك الترميمات كلفت خزينة النيابة الشامية أموالاً كثيرة ناءت بحملها، بسبب أهمية القلعة.

٢- الثاني في العصر الحاضر[٣] عندما قررت الحكومة السورية إقامة سد الفرات من أجل تنظيم مجرى النهر لدرء أخطار الفيضانات التي كانت تحدث سنويًا قبل إنشاء السد، وللاستفادة من مياه السد في ري المناطق الزراعية الواسعة التي يجري استصلاحها في المنطقة المحيطة بالنهر، ولتوليد الطاقة الكهربائية التي تحتاجها سورية في الإنارة والصناعة وغيرها.

وجرى ترميم واسع في إطار الحملة الدولية لإنقاذ آثار حوض الفرات حيث تطلب الأمر إعداد مشروع كبير لإنقاذ المواقع الأثرية (التلال الأثرية) والمباني التاريخية التي ستغمرها مياه بحيرة سد الفرات أو تغمر المناطق المحيطة بها ومن أهمها قلعة جعبر وموقع مسكنة وموقع أبي هريرة إضافة لعدد من التلال الأثرية حيث قامت البعثات الأثرية الأجنبية وخبراء منظمة اليونسكو في تنفيذ تلك الحملة، كما أخذت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية على عاتقها القيام بالأعمال الضرورية لترميم وصيانة قلعة جعبر والمباني الأخرى في حوض الفرات، ولما كانت قلعة جعبر ستصبح جزيرة وسط بحيرة السد حسب المخطط توجب حماية القلعة خاصة الكتلة الجيرية التي تقوم عليها من خطر المياه.

تولت هيئة سد الفرات عمل حاجز إسمنتي حول القلعة لحمايتها من خطر المياه المحدق بها وسنتحدث عن تلك الأعمال في مكان آخر، كما قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية وفروعها بحلب (مديرية الآثار ومتاحف المنطقة الشمالية) بجهد كبير في دراسة حالة القلعة وحاجتها إلى الترميم والصيانة كما شكلت بعثة تنقيبية[٤] للتنقيب في قلعة جعبر. أمضت البعثة الأولى وهي البعثة المختصة بالصيانة والترميم فترة طويلة في دراسة احتياجات ولوازم الترميم الأخرى إلى جانب المدخل المحفور في الصخر ومنارة الجامع الكبير بوسط القلعة، بعد الدراسة والرفع

الهندسي لمباني القلعة إلى جانب التعرف على الحاجات اللازمة للترميم من حجارة وقرميد وأخشاب وضرورات أخرى. حيث توجب إقامة مصنع لصناعة القرميد اللازم للترميم وفق المواصفات المناسبة لترميم القلعة من حيث النوعية والقياسات المطلوبة وقد قدم ذلك المصنع خدمات كبيرة لترميم القلعة وغيرها من المباني الطينية. وكررت التجربة لنجاحها في موقع هرقلة بالقرب من الرقة.

لقد كانت أعمال المديرية العامة للآثار في مجال التنقيب الأثري والصيانة والترميم أعمالاً على مستوى عال من المهنية بشهادة المختصين في هذا المجال فالطرق الفنية التي طبقت في نقل مئذنتي مسكنة وأبو هريرة إلى أمكنتهما الجديدة أثبتت جدواها وأشاد بها كثير من الاختصاصيين العرب والأجانب كما أطرت المنظمات الدولية على الأعمال الإنقاذية سواء في مجال التنقيب أو الصيانة التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية ومن الفوائد العلمية التي قدمتها حملة الإنقاذ هو التعرف على بعض أسماء المدن القديمة مثل إيمار في مسكنة وغيرها.

٤- التنقيبات الأثرية في قلعة جعبر:

قامت البعثة الأثرية الوطنية(٥) التي شكلت لهذا الغرض بإجراء عدة أسبار في مواقع مختارة من قلعة جعبر داخل القلعة وخارجها، ففي داخل القلعة تركز العمل التنقيبي في منطقة الجامع والمئذنة حيث تم التعرف عن طريق التنقيبات على مخطط الجامع والمراحل التاريخية التي مرت عليه، كما تم التعرف على تاريخ المئذنة والترميمات التي جرت عليها عبر تاريخها، كما أجريت تنقيبات آثرية في المنطقة الجنوبية الغربية بين السورين حيث تم التعرف على الأبنية التي كانت هناك والتي يعتقد أنها كانت قصوراً للأمراء وكبار رجالات الدولة وفي منطقة الجامع حصل المنقب على معلومات عن مخطط الجامع ومكوناته خاصة المئذنة الضخمة الأسطوانية والقائمة على قاعدة مربعة هذا وقد تبين أن منطقة الجامع قد استُخدمت عدة مرات بعد هدم الجامع والقلعة زمن هولاكو بدلالة العثور على عدة كسر فخارية تعود إلى عصور غير العصور الإسلامية.

حماية قلعة جعبر:

حين تقرر أن تصبح قلعة جعبر وسط بحيرة سد الفرات التي ستشكل خلف السد تقرر حماية الهضبة الكلسية التي تقوم عليها القلعة من عوامل الحت التي ستسببها مياه البحيرة حينها تقدمت هيئة سد الفرات بمشروع تأخذ بموجبه مهمة حماية الهضبة الكلسية خاصة في الجانب الغربي الأكثر تأثراً بأمواج البحيرة فوضعت شروط ذلك المشروع حيث يتضمن تعرية قاعدة الهضبة من الأتربة للوصول إلى الطبقة الصخرية الأساسية ومن ثم كسوتها بقميص من الاسمنت المسلح(٦) وقد قدرت نفقات

المشروع بنحو عشرين مليون ليرة سورية ولما كان من المفترض أن تصبح القلعة بمثابة جزيرة وسط البحيرة كما ألمحنا برزت فكرة تحويلها إلى مرفق سياحي مستقبلاً في منطقة الفرات الأوسط حيث جرى تخصيص أحد الأبراج المرممة بالقلعة وهو برج عليا ليكون متحفاً للآثار المكتشفة في حوض الفرات في إطار الحملة الدولية لإنقاذ آثار السد، كما جهز مقصف بجوار القلعة بالقرب من المدخل الرئيسي، ومن المؤمل أن يقام لاحقًا عدة مشاريع سياحية ومرافق أخرى تخدم الزائر والسائح المحلي والأجنبي[٧].

تكللت جهود المديرية العامة للآثار والمتاحف وجهود البعثات السورية والأجنبية التي عملت في التنقيب الأثري في المواقع الأثرية بحوض الفرات، وفي إنقاذ المباني الأثرية[٨]، خاصة الطينية منها، في قلعة جعبر وبالس / مسكنة وأبي هريرة بإقامة معرض لنتائج النجاحات التي أحرزتها الجهات العاملة في الإنقاذ. أقيم المعرض بدعم المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) التي آزرت أعمال الحكومة السورية في الإنقاذ حين قام مديرها[٩] بزيارة المواقع التي جرت فيها التنقيبات وعمليات الإنقاذ كما ساعدت في طباعة دليل لمعرض مكتشفات حوض الفرات الأثرية، لقد كان المعرض معبرًا عن النجاحات التي أحرزت في عملية الإنقاذ، بعد افتتاح المعرض في حلب وتكريسًا للنجاحات وبذلك ساعدت المعارض والندوات التي أقيمت في الخارج وكذلك المعارض في إعطاء حملة الإنقاذ بعدًا عالميًا، كما ساعدت الجمهور الأوروبي والأمريكي على الإطلاع على الأعمال الناجحة التي تمت في إنقاذ آثار حوض الفرات.

وفي الختام، وفيما سبق عرضه يمكننا القول إن قلعة جعبر لعبت دروًا متميزًا في الدفاع عن المنطقة في وجه الأخطار القادمة من شرق آسيا الصغرى أو من بلاد ما بين النهرين، لوقوعها في موقع استراتيجي هام، فهي محطة من محطات القوافل التجارية القادمة من الشرق والشرق الأقصى، وهي تقع بالقرب من مخاضة الفرات، يمكن لمن أراد العبور أن يعبر النهر من الجزيرة إلى الشامية، كما تقوم على نهر الفرات كالحارس الذي يراقب في سهر دائم الحركة في النهر القادمة من الشمال أو الجنوب وكذا الحركة القادمة من الشرق فالقلعة تقع وفي خلفها فضاء مكشوف. لقد تنبه أصحاب القرار والسياسة زمن الأيوبيين والسلاجقة والمماليك إلى أهمية هذه القلعة وأهمية موقعها الاستراتيجي وقد سيطرت عليها القبائل العربية منذ العصور البيزنطية فأقامت أسرًا حاكمة تسهر على مصالحها ومصالح أسيادها، فبعد الدواسر وهم من بكر، جاء القشيريون، ثم جاء العقيليون ثم تولى الأيوبيون في عهد الحافظ نور الدين إلى أن تنازل عنها لأخته ضيفة خاتون الوصية على عرش

حلب.

بقيت القلعة بيد الأيوبيين إلى أن دمرها المغول بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وكاد أن يقع الشرق العربي المسلم في قبضته لولا عناية الله التي تدخلت وساعدت المماليك المصريين وغيرهم من حكام الشام المسلمين من إلحاق هزيمة موجعة بالتتار في موقعة عين جالوت بفلسطين بسبب عودة هولاكو إلى عاصمة بلاده لأمور تتعلق بولاية العهد وتولي كتبغا أمور المعركة ولم يصمد أمام قطز ولا أمام الظاهر بيبرس الذي خلف قطز، وعاد جيشه يجر أذيال الخيبة متشفيًا في تدمير المدن والقرى والقلاع التي مر بها في طريق العودة وعندما استقر الأمر للمماليك حرصوا على ترميم القلعة لأهميتها وبذلوا من أجل ذلك الكثير، كما ألمحنا سابقًا هذا ورمموا كثيرًا من المدن والقلاع التي خربها المغول أثناء هجومهم على البلاد الإسلامية غرب بغداد وأثناء زحفهم على مصر[١٠] ■

هوامش:

١- يُعتقد أنه بالقرب من قلعة جعبر، وجدت "مخاضة" أي مكان قليل العمق بالنهر يمكن العبور منه من الجزيرة إلى الشامية، كانت تعبر منه القوافل التجارية وجحافل الجند ويظن أن سليمان شاه قد غرق في تلك المخاضة بعد أن تعثر حصانه فيها وبالتالي سقط سليمان ليلاقي حتفه غرقًا.

٢- يعود تاريخ هذا الصحن إلى الفترة ما بين ١٢٠٠/١٢٥٠م تبلغ أطواله: القطر ٤١سم والارتفاع ٣,١٤ سم ويعتبر من النوع النادر.

٣- كان كاتب هذا المقال مديرًا لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في سورية يومها.

٤- تشكلت بعثة الصيانة والترميم في قلعة جعبر من عناصر من المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق وفرعها بحلب من السادة: المهندس ربيع دهمان، المهندس عبد الغني حافظ، المهندس يوسف جبلي، المهندس نبيل قصبجي، وعدد من الفنيين والرسامين والمصورين والمرممين.

٥- تولى الإشراف على التنقيب الأثري في القلعة الأستاذ عبد الرزاق زقزوق من متحف حماه يساعده عدد من الفنيين في الرسم والمساحة والتصوير.

٦- كانت مديرية آثار ومتاحف المنطقة الشمالية تقوم بتأمين لوازم البعثة المشار إليها من الأخشاب والحديد والاسمنت إلى جانب إصلاح الآليات وغيرها من الأعمال لعمل البعثة في قلعة جعبر، إضافة إلى مشاركة عناصرها الفنية في أعمال الصيانة والترميم.

٧- هناك أفكار كثيرة تدور في الأذهان تجعل قلعة جعبر إذا ما نفذت منطقة سياحية هامة فإلى جانب أنها ستصبح جزيرة وسط بحيرة الأسد، هناك رغبة في إقامة شاليهات حول النهر منطقة الشامية إلى جانب إقامة محمية طبيعية قبالة القلعة وغيرها مما يساعد ولا شك على تطور المنطقة السياحية.

٨- كان لكاتب هذا المقال شرف المشاركة بالحملة الدولية للإنقاذ بإدارة بعثة أثرية تنقيبية مشتركة مع جامعة جون هوبكنز الأمريكية في تل الفري المجاور لقرية الصفرة بحوض الفرات وقد قسم التل بين

بعثتين.. بعثة مشتركة سورية أمريكية، وبعثة مشتركة سورية إيطالية ونتائج أعمال التنقيبات معروضة في معرض حوض الفرات بمتحف حلب.

٩- بناء على طلب الجمهورية العربية السورية قامت منظمة اليونسكو بتوجيه نداء عالمي إلى الهيئات العلمية في الدول الأعضاء للمساعدة في إنقاذ الآثار التي ستغمرها مياه بحيرة سد الفرات عام ١٩٧١م فتقاطرت البعثات الأثرية فكان منها الإنكليزية والإيطالية والدنمركية والسويسرية وغيرها كل ذلك ساعد على إتمام عملية الإنقاذ قبيل تكوين البحيرة.

١٠- كانت القوى السياسية المتواجدة على المسرح السياسي أو المؤثرة فيه بمنطقة آسيا الغربية هي: المغول القادمين من الشرق بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية قاصدين الشام ومصر، ثم كان هناك الأيوبيين في حلب ودمشق، وهناك المماليك الذين ورثوا الأيوبيين في مصر والشام وهزموا المغول في موقعة عين جالوت بفلسطين ثم تمكنوا من طرد الإفرنج الصليبيين القوة الرابعة من بلاد الشام.

المراجع:

- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، م٢ القسم الألفبائي، مركز الدراسات العسكرية بدمشق ط١ سنة ١٩٩٢م.
- كتاب دائرة المعارف، المعلم بطرس البستاني، م٦ دار المعرفة بيروت.
- دائرة المعارف الإسلامية، م١٢ مادة جعبر.
- الندوة الدولية لتاريخ الرقة وآثارها، دمشق ١٩٨٤م
- لسترانغ: بلدان الخلافة الشرقية، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد
- فلسطين تحت حكم المسلمين، تعريب محمود عمايرة، عمان الأردن ١٩٧٠م
- ابن فضل الله العمري، التعريف، القاهرة ١٣١٢هـ.
- القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة ١٣٢٤هـ.
- الهروي: الزيارات، دمشق ١٩٥٢م
- معرض آثار الحملة الإنقاذية في حوض الفرات (اللغة العربية) دمشق ١٩٧٧.

تطور المسكن في سورية

من المغارة إلى بداية العمارة

بسام جاموس*

مقدمة:

إنّ عصور ما قبل التاريخ تمثل أكثر المراحل غموضاً في حياة الجنس البشري، ومنذ أكثر من قرنين جرت دراسات عديدة معظمها في فرنسا، هدفت إلى توضيح صورة مجتمعات ما قبل التاريخ عن طريق البحث الميداني والمخبري والاستنتاج العلمي واستنطاق الشواهد والدلائل الأثرية.

لقد لفت النظر، في بلاد الشام إلى أهمية العصور قبل التاريخية بشكل متأخر، ولكن البحث الحقيقي والمنهجي لها بدأ في الثلاثينيات من القرن الماضي وذلك مع الاكتشافات الهامة لمواقع إنسان الهوموإركتوس (إنسان منتصب القامة) وأيضاً إنسان النياندرتال.

إنّ أقدم آثر للإنسان في بلاد الشام يعود إلى العصر الحجري القديم (الباليوليت الأدنى) الذي بدأ منذ حوالي مليون سنة واستمر حتى حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت وهذا العصر يرادف ما يسمى في أوربا بالحضارة الآشولية. في مطلع السبعينات وأثناء المسوحات الأثرية تم الكشف عن ما يقارب (٣٠٠) موقع أثري يعود إلى فترة عصور ما قبل التاريخ.

لقد أدرك إنسان ما قبل التاريخ أهمية الكهوف فسكن في مداخلها ثم قسمها بجدران من الأغصان والجلود وأنشأ المواقد والمصاطب، أما الخطوة الحضارية الأهم فقد أتت عندما استطاع التحرر من الاعتماد على الملاجئ الطبيعية وبنى لنفسه بيوتاً خاصة مكنته من العيش في الكثير من المناطق الجغرافية المكشوفة. لقد كانت البيوت الأولى عبارة عن أكواخ صغيرة وبسيطة من الأحجار والأغصان والجلود. في الفترة النطوفية التي تمتد بين (١٢٠٠٠ - ١٠٠٠٠) ظهرت أولى المساكن في الهواء الطلق وخاصة في مواقع جبل الكرمل

* المدير العام للآثار والمتاحف في سوريا.

وغـور الأردن وكـانت عبـارة عـن حفـر وخنادق دائرية ذات جدران مدعمة لكن البيوت الحقيقية ظهرت مع ظهور القرى الزراعية الأولى وتحديداً مع مطلع فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ppna) وظهور بدايات التنظيم الاجتماعي وممارسات الطقوس الشعائرية المتعددة، والتي وضحت لنا دور المسكن وظيفياً ورمزياً واجتماعياً ودينياً.

١- فترة العصر الحجري القديم:

سكنت بلاد الشام جماعات أطلق عليها اسم الهوموإركتوس (Home Erectus) أي إنسان منتصب القامة الذي استقر على ضفاف الأنهار والمناطق الخصبة إن كل ما نعرفه عن هذا الإنسان هو أدواته وفي مقدمتها الفؤوس الحجرية الكبيرة والتي عثر عليها في مواقع متعددة نذكر منها:

موقع ست مرخو الواقع شمال مدينة اللاذقية على بعد ١٥ كم على ضفة نهر الكبير الشمالي. تعتبر أدواته هذه من أقدم الأدوات التي ظهرت خارج القارة الإفريقية، فمثلاً مواقع حوض نهر العاصي وتحديداً موقعي اللطامنة والقرماشي والبادية التدمرية ومواقع متعددة في فلسطين ولبنان والأردن.

عثر في موقع اللطامنة على بقايا معسكر سليم، عبارة عن أرضية سكن أكدت لنا وجود مساكن بسيطة أيضاً كالألواح. كما عثر في موقع القرماشي على أرضية سكن معسكر يظهر عليه انتشار الأحجار الكبيرة التي استخدمت في بناء الموقع، والأكواخ وتعود إلى عصر الباليوليت الأدنى الثالث. هناك مواقع مشابهة تماماً كالتي أتت من مغارة الطابون ومغارة أم قطفة في فلسطين، وفي رأس بيروت في لبنان، وفي منطقة الأرزق في الأردن.

وفي المرحلة الانتقالية من الباليوليت القديم إلى الباليوليت الأوسط، حصلت تطورات وتغييرات وتفسيرات في سورية والمشرق العربي القديم، تقترن بظهور أقوام جديدة، تمثلت بالنياندرتاليين (١٥٠٠٠٠ - ٣٥٠٠٠) سنة ق.م.

انتشرت هذه الجماعات في مناطق متعددة في بلاد الشام، وتعتبر الحضارة اليبرودية، نسبة إلى موقع يبرود الواقع بين أحضان جبال القلمون المتاخمة لجبال لبنان الشرقية، من أكثر الحضارات المشرقية تميزاً، اكتشف هذا الموقع الباحث الألماني الفريد روست الذي عثر فيه على كهوف وملاجئ بين عام ١٩٣٠ - ١٩٣٣م، ثم نقب في ملاجئ ثلاثة كانت محطات سكن واستقرار لهم.

أما الموقع النياندرتالي الهام في سورية هو كهف الديدرية الواقع شمال غرب حلب على بعد حوالي ١٢٠ كم، الكهف له بابان، يبلغ طوله حوالي (١٠٠م)، عثرت فيه البعثة السورية - اليابانية على هيكل عظمي لطفل يتراوح عمره بين ٣ - ٥ سنوات.

وشكّل هذا الاكتشاف منعطفاً هاماً حول أصل إنسان النياندرتال ومصيره وعلاقته بالإنسان الحالي وتعود أهمية هذا الاكتشاف إلى أنه الأكمل من نوعه في العالم من جهة وأجاب على كثير من التساؤلات التي تتعلق بقدومه واستقراره ومصيره وعلاقته بالإنسان الحالي. والأهم من ذلك العثور على نصلة صوانية فوق

منطقة القلب وهي ذات حيز جمالي متميز ويدل على ممارسة طقس شعائري ديني يعود إلى مائة ألف عام خلت.

ويعتبر عصر الباليوليت الأوسط (١٠٠٠٠٠ - ٣٥٠٠٠) سنة خلت في بلاد الشام هام جدا لأنه شهد عملية تطور النياندرتال وظهور الإنسان العاقل وأكبر مثال على ذلك ما جاء من مكتشفات مغارة الطابون في فلسطين وعدلون في لبنان ويبرود والديدرية في سورية.

إن معظم المواقع النياندرتالية في بلاد الشام هي مغاور وملاجئ لكنهم أقاموا مراكز استيطان على شكل معسكرات أو محطات، وفي العصر الحجري القديم الأخير الممتد من (٣٥٠٠٠ - ١٢٠٠٠ سنة ق. م) ظهر نوع جديد من البشر أطلق عليه اسم (الهوموسابين) أي الإنسان العاقل في هذه الفترة أحدث تطور نوعي في مجال البناء، فأقيمت المساكن ذات الأشكال البيضوية والدائرية التي رصفت أرضها بالحجارة وقسمت من داخلها إلى مناطق للسكن والنوع وإلقاء الفضلات، وبلغت تلك البيوت مساحات كبيرة أحياناً.

وجدت الآثار العائدة لعصر الباليوليت الأخير للإنسان العاقل في مغارة الواد ومغارة الأميرة في فلسطين ويبرود ومنطقة الكوم وتدمر في سورية وكسار عقيل في لبنان.

مع انتهاء العصر الحجري القديم وحضاراته الأشولية، والموستيرية، والأورنياسية أو المجدلانية. . نشأت حضارات جديدة وكبيرة، أهمها الحضارات الكبارية والنطوفية في بلاد الشام والرافدين.

٢- الكباريون:

أصل تسميتهم من موقع مغارة الكبارا في جبال الكرمل في فلسطين، انتشروا على منطقة واسعة امتدت من سيناء في الغرب وحتى سواحل المتوسط والفرات في الشرق. وقد تطوروا على مرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى، الأقدم، وتؤرخ بين ١٧٠٠٠ - ١٢٠٠٠ سنة ق. م، وعاشوا أيضاً ضمن المغاور والملاجئ، كما أنهم بنوا بيوتاً لهم، وهي عبارة عن بيوت بسيطة صغيرة، على شكل حفر دائرية مغروسة في السفوح والمنحدرات، وجدرانها وأرضها من الطين والحجر، وسقفها من الجلود والأغصان. وأقدم دليل لتلك البيوت جاء من موقع عين جيف على الضفة الشرقية لبحيرة طبريا في فلسطين. وفي مطلع الألف الثامن عشر ق. م، تضاعفت تجمعاتهم واتسعت مناطق انتشارهم، وسكنوا على مصاطب أنشئت أمام المغاور والمساحات الأخرى. ففي مغارة الكبارا مثلاً بلغت المساحة المسكونة حوالي ٥٠٠ م٢، وفي مغاور شقبة وهايونيم (بيت لحم) وصلت إلى ١٠٠٠ م٢ في فلسطين.

انتشر الكباريون الهندسيون على مساحات واسعة من بلاد الشام ونعرف من مواقعهم الهامة في فلسطين: الخيام، غرب البحر الميت، ووادي الفلاح وهايونيم على الساحل الفلسطيني. وفي لبنان جعيتا وملجأ ((برجي)) إلى الشرق

من بيروت، نهر الحمر على الفرات، وعفرين شمال مدينة حلب، ويبرود وجيرود والكوم في البادية السورية. وفي الأردن في منطقة الأزرق ومنطقة البتراء.

٣- النطوفيون:

في النصف الثاني من العصر الحجري الوسيط بين حوالي ١٢٠٠٠ - ١٠٠٠٠ ق.م ظهرت جماعات النطوفيين، نسبة إلى موقع وادي نطوف في جبال القدس والخليل في فلسطين، ووجدت آثارهم في مناطق متعددة من بلاد الشام نذكر منها: مغارة شقبة التي نقبت فيها الباحثة الإنكليزية غارود D. Garrod في ثلاثينيات القرن الماضي، وتشكلت في هذه الفترة القرى النطوفية التي تنقسم إلى قسمين:

- النوع الأول: عبارة عن محطات سكن صغيرة.

- النوع الثاني: تمثل بوجود معسكرات كبيرة دائمة سكنتها أعداد كبيرة من الناس، دلت عليها مواقع عين الملاحة في فلسطين ومواقع المريبط وأبو هريرة في حوض الفرات. وتدل الدراسات على أن عدد السكان تراوح ما بين (١٠٠ - ٢٠٠ شخص)

٣-١- البيوت النطوفية:

كانت صغيرة الحجم، دائرية الشكل، وهي عبارة عن منازل مدفونة في الأرض الصلبة أو الطرية، بنيت جدرانها من الحجر والطين والخشب، واستندت سقوف المنازل إلى أعمدة خشبية داخلية، وزودت بالأحواض والمواقد، ومستودعات الحبوب.

تشكلت هذه الفترة النطوفية في بلاد الشام ونذكر منها عين الملاحة بجوار بحيرة الحولة في وادي الأردن والقرية الثالثة هي المريبط (الطبقة I A + B) وهي قرية عاش سكانها في بيوت دائرية وقريبة من أبو هريرة.

في نهاية الألف التاسع قبل الميلاد دخلت بلاد الشام عصر الزراعة الحقيقي. أي العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠ - ٥٠٠٠) سنة ق.م.

تطورت القرى، وعرف السكان الزراعة والتدجين، وظهرت تقنيات جديدة، وظهرت بيوت كبيرة دائرية ومستطيلة وأهم النماذج في هذه المرحلة ما عثرت عليه البعثة السورية - الفرنسية في موقع الجرف الأحمر الواقع شرق مدينة منبج (حلب) على بعد ١٧ كم، حيث عثرت على قرية نموذجية مؤلفة من حوالي ٥٠ منزلاً منها الدائري الشكل ومنها المستطيل ومنها الإهليلجي والأهم من ذلك إن جميع منازل القرية بنيت بأحجار منحوتة على شكل طولاني يشبه السيجار وهذا يدل على التطور الفني المعماري لإنسان تلك المنطقة في تلك الفترة العائدة إلى منتصف الألف العاشر قبل الميلاد إضافة إلى اكتشاف قرى متعددة نذكر منها قرية بقرص الواقعة في محافظة دير الزور وتعود إلى الألف السابع قبل الميلاد. وقرى عديدة في بلاد الشام. وبرز باحثون مختصون في مجال عمارة ما قبل التاريخ ومازالوا يدرسون أوجه التشابه والاختلاف والخصائص الوظيفية والرمزية للأنماط المعمارية وتطورها عبر العصور.■

القصر الملكي الأيوبي

في قلعة حلب

ربى قاسمو*

في الجزء الجنوبي الشرقي من قلعة حلب، ما يزال قصر الملك الظاهر غازي -المؤسس الفعلي للحكم الأيوبي في حلب- يقف شاهدا على مرحلة مهمة من تاريخ حلب. وعندما نستحضر الامتداد الذي وصلت إليه إمارة حلب في عهد الظاهر لتشمل حارم، جسر الشغور، منبج، أفاميا، وقلعة نجم، وصولا إلى ميناء اللاذقية، تصبح المسميات التي سمى بها مقر إقامته مثل دار العز ودار الشخوص أسماء على مسمى.

١ـ القلعة وحلب:

يتميز موقع قلعة حلب بتاريخ طويل تؤكده الطبقات التاريخية المتراكبة والمكتشفات المستمرة (أحدثها المعبد الذي يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد).

لعبت القلعة في البداية دورا دفاعيا هاما، ثم تحولت إلى مقر لسكن حكام المدينة. حيث يذكر ابن شداد في كتابه "الأعلاق الخطيرة" أن هجوم الروم بقيادة نقفور فوكاس على حلب في عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م وقيامهم بتخريب كامل المدينة وقصر سيف الدولة الحمداني على ضفة نهر قويق، قد لفت انتباه الأمراء الحمدانيين إلى أهمية القلعة لكونها الموقع الوحيد الذي استعصى على الروم، فقاموا ببنائها وتحصينها. وكان سعد الدولة (ابن سيف الدولة) أول من سكنها.

ونتيجة لهذا التغيير شهدت القلعة تحسينات وإنشاءات متعددة في عهد المرداسيين والزنكيين، وصولا إلى عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي قام بتحويلها إلى مدينة مستقلة مكتفية ذاتيا عن طريق إعادة تحصينها، وبناء مدخلها الدفاعي المميز، وإنشاء العديد من المباني فيها كالقصر الملكي ودار السلاح والجامع الكبير وصهاريج المياه ومخازن الحبوب.

* مهندسة معمارية، دبلوم في نظريات وتاريخ العمارة

في الوقت ذاته، عمل الظاهر على تشكيل منطقة اتصال بين قصره في القلعة والمدينة ذاتها، وذلك في الجزء الجنوبي من سفح القلعة. وكان البناء الأهم الذي ساهم في عملية الربط هذه هو دار العدل[1] التي بنيت في عام ٥٨٥ هـ / ١١٩٠ م كمقر للنظر في أمور الحكم والمظالم، واتصلت مع القلعة بواسطة باب سري دعي (باب الجبل).

٢ـ القصور الأيوبية بالقلعة في المصادر الكتابية:

استنادا إلى ما أورده ابن شداد عن تاريخ القصور في القلعة، يتبين لنا وجود قصرين بنيا قبل فترة حكم نور الدين زنكي هما دار العواميد وقصر الملك رضوان بن تتش السلجوقي. ثم قام نور الدين ببناء قصر كبير سماه (دار الذهب) ضمن أنشطة البناء التي قام بها في القلعة بين عامي ٥٦٠-٥٦٩ هـ / ١١٦٤-١١٧٤ م.

وظلت القصور السابقة قائمة إلى أن استبدلها الملك الظاهر جميعا " بدار العز "، ويقول ابن شداد في ذلك: " ولما ملك الملك الظاهر غياث الدين غازي... بنى فيها دارا تعرف بدار العز... فحازت كل معنى غريب وفن عجيب "، ثم يسوق قصيدة للشاعر الرشيد عبد الرحمن النابلسي في مدح الملك الظاهر عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، يصف فيها دار العز ذاكرا النقوش والبركة والتباليط الرخامية وغيرها، ويقول فيها:

دار حكت دارين في طيب ولا
عطر بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها
قطب على فلك السعود تدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج
غض وورد يانع وبهار
ما أينعت منها الصخور وأورقت
إلا وفيها من نداك بحار
وضحت محاسنها ففي غسق الدجى
يلفى لصبح جبينها إسفار

وفي عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م اندلع حريق كبير في دار العز -ما تزال آثاره واضحة على البقايا الحالية - في ليلة زفاف الظاهر على ابنة عمه ضيفة خاتون، مما دعاه إلى القيام بتجديد القصر وتسميته "دار الشخوص" يذكر ابن شداد: " ولما تزوج في سنة تسع وستمائة بضيفة خاتون ابنة عمه الملك العادل.. وقعت نار عقيب العرس فاحترقت وجميع ما كان فيها من الفرش والمصاغ والآلات والأواني، واحترقت معها الزردخاناه، وكان الحريق في خامس عشر جمادى الأولى من سنة تسع. ثم جدد عمارتها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان منها في زخرفتها، سعتها أربعون ذراعا في مثلها"

ثم يذكر أيضا أن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر بنى في عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠-١٢٣١ م قصرا بجانب الزردخانه، مساحته ثلاثون ذراعا في مثلها.

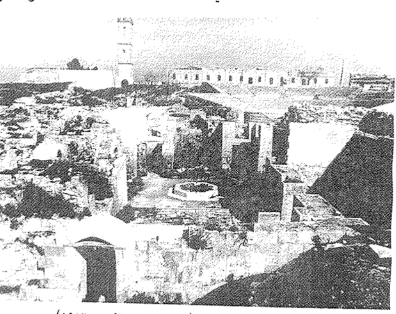
١- لم يبق هناك الآن أي أثر لدار العدل، ولكنها كانت تقع شرق مدخل القلعة في موضع مبنى المحافظة الحالي تقريبا، وذلك استنادا إلى ما أورده ابن شداد.

وقد قام سبط بن العجمي - الذي كتب بعد هذه الأحداث بوقت طويل - بوصف القصر مركزا على قاعاته الثلاث الرئيسية " وهذه القاعة هي القاعة العظمى الموجودة الآن وهي محكمة البنيان، واسعة الأرجاء، وبها إيوان كبير، وبصدره وجانبيه مخادع، .. ولهذه القاعة دهليز طويل جدا وبوابة عظيمة.

والى جانب هذه القاعة، قاعة لطيفة مفروشة من الرخام الملون المحكم التركيب. ولها بابان أحدهما يدخل من جانب القاعة العظمى، والآخر يدخل دهليزها.

وبهذه القاعة العظمى من جهة الشرق، قاعة ثالثة لطيفة، ولها أيضا بابان يخرج منه إلى عند حمام القلعة الآن وباب في جانب القاعة العظمى.

ولو استوفينا وصف هذه القاعة لأطلنا، وفي الجملة ما رئي مثلها "



صورة عامة لبقايا القصر (جان كلود دافيد - ١٩٨٢)

تعرض القصر للتخريب مرتين على يد المغول في هجومهم الأول ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م والثاني ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م، ورغم أعمال الترميم الجزئية التي قام بها المماليك إلا أنه أهمل وهجر بعد بناء القصر المملوكي فوق أبراج مدخل القلعة. وعلى كل حال يبدو أن هذه الترميمات لم تغير من معالم القصر بشكل جوهري، لأن بعض العناصر كالنافورة والبوابة ما تزال تحمل صفات الطراز الأيوبي.

مما يجدر ذكره أن هذا التعاقب في بناء القصور في مواقع متقاربة أثار ارتباكاً بين الباحثين حول إرجاع البقايا الحالية إلى قصر معين دون غيره، إذ قام عدد كبير منهم - وعلى رأسهم هرتزفيلد - بإرجاعها إلى قصر الملك العزيز محمد، ولكن التحليل الدقيق للكتابات التاريخية ودراسة الطراز المعماري يؤيدان بشكل كبير إن لم يؤكدا تابعية هذه البقايا إلى دار العز ودار الشخوص بعد التجديد.

٣- الدراسة المعمارية للقصر الأيوبي:

٣-١- تطور الطراز المعماري في حلب في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي:

شاع استعمال الزخارف النافرة المنفذة وفق تصاميم محلية في حلب خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ويمكن تسمية هذا الطراز بالطراز المزخرف، الذي كان يتطلب دقة كبيرة في التنفيذ وتدريباً خاصاً للحجارين. لم يكن هذا الطراز مبهرجا بالضرورة

فهو لم يعتمد على الألوان أو التشكيلات الفراغية الضخمة. ومن أهم أمثلة هذا الطراز مئذنة الجامع الأموي الكبير التي تمثل الطراز المحلي لعمارة حلب في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

مع نهاية حكم نور الدين زنكي تعرض الطراز المزخرف لتحديات كبيرة من قبل طراز جديد مناقض له يمكن تسميته بالطراز المستوي، ويعتبر مقام إبراهيم في القلعة الذي بناه نور الدين في عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م من أقدم المباني التي تمثل هذا الطراز.

إن التغير من الطراز المزخرف إلى الطراز المستوي في العمارة المدنية في سوريا كان مرادفا للتطور الذي حدث في العمارة العسكرية والذي كان بدوره انعكاسا للظروف الصناعية والحرفية المتغيرة في مجال البناء. فالحجم المتزايد للعمل والمتطلبات المصاحبة له من قوى العمل جعلت حفر الزخارف النافرة عمليات باهظة ومكلفة بحيث اقتصرت على الأبنية الاستثنائية فقط، وتركز التزيين في أسلوب تجميع الأحجار أكثر من تركزه في الأحجار بحد ذاتها وذلك عبر مؤثرات مستوية كنظام الأبلق. كما أن تطور صناعة استخراج الأحجار وقصها وتجهيزها للبناء ومن ثم توفر مخزون كبير من الأحجار الجاهزة وبمقاييس متنوعة أدى إلى انخفاض تكلفة البناء وزيادة حجم الأبنية المدنية.

إن كون الطراز المستوي كان السبب في جعل هذه التغيرات ممكنة، أو أن هذه التغيرات كانت ملحة بحيث نتج الطراز المستوي، هو أمر من الصعب تأكيده. ولكن من الواضح تماما أن الطراز المزخرف لم يجد المناخ والوسط الملائم للازدهار في ظل توسع صناعة البناء وتأثيرات العمارة العسكرية بسبب كلفته المادية والزمنية.

لم يسد الطراز المستوي أبدا بشكل كامل في حلب، فالحنيات والزخارف النافرة ظهرت في العديد من المباني الأيوبية، ولكن المؤكد هو أن الطراز المستوي قد أحدث تغييرا كبيرا وجوهريا في العمارة الحلبية، فلقد قضى على المبالغة في الزخارف وأوجد أساليب جديدة للتزيين. حيث نجد أن أغلب أبنية الملك الظاهر لم تعد عبارة عن وحدات مستطيلة جامدة مزودة بالزخارف الحجرية النافرة، بل غدت فراغات معمارية متنوعة وغنية بعناصر تزيينية كتلية كالنوافير والمقرنصات والحديد المشغول للنوافذ والتباليط الهندسية الملونة.

وتجدر الإشارة هنا إلى المعماري الذي أشرف على بناء بوابة القصر وهو ثابت بن شقويق واسمه الكامل الحاج أبو الغنائم ثابت بن أبي الفضل يحيى شقويق الحلبي، بدأ بالعمل لدى نور الدين زنكي في عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م عندما قام بإعادة بناء جدار القبلية في الجامع الكبير في حلب، ثم انتقل معه إلى دمشق ليشارك في بناء تحصيناتها ثم ليشرف على بناء المدرسة النورية في عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م. بعد موت نور الدين عمل ثابت بن شقويق لدى الملك الظاهر وأشرف على بناء بوابة دار العز، ومشهد الحسين

في عام ٥٩٢ هـ/١١٩٥م، وبوابة البيمارستان الأرغوني. توفي في عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م عند تهدم القسم الجنوبي من أسوار قلعة حلب حيث كان يشرف على أعمال البناء في كتلة المدخل. ومن دراسة أعمال ثابت بن شقويق يتبين لنا الدور الهام الذي لعبه في انتقال الطرز المعمارية بين دمشق وحلب، فلقد ساهم في البداية في انتقال الطراز المزخرف الحلبي إلى دمشق، ثم تعرف على الطراز المستوي وعاصر نشأته في دمشق ليعود إلى حلب ويطبقه في مشاريعه التي حافظت في شكلها العام على أساسيات الطراز المزخرف مع بعض العناصر التزيينية الجديدة وعلى رأسها نظام الأبلق.

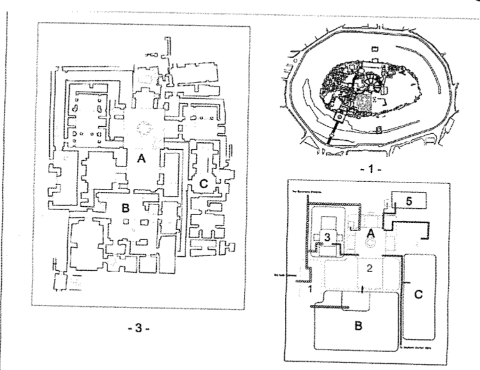
٣-٢- الأقسام الرئيسية للقصر الأيوبي:

يقع القصر الأيوبي A ضمن مجمع يضم أيضا دار السلاح (الزردخانة) B والحمام الملكي C. وقد كان القصر يتألف من طابقين، ويستدل على ذلك من الفتحات الموجودة في القسم العلوي من الواجهة الشمالية للفناء الرئيسي وبقايا الأدراج، ولكن لا توجد أي بقايا تدل على أسلوب التسقيف الذي كان متبعا.

يتألف القصر من خمسة أقسام رئيسية تربط بينها ممرات ومداخل متعددة تحدد اتجاهات الحركة وتتحكم بها بشكل واضح. وهذه الأقسام هي:

١- كتلة المدخل:

تتقدم كتلة المدخل بوابة تشبه بوابات الأبنية الدينية المعاصرة لها إلا أنها تفوقها تعقيدا في التصميم ودقة في التنفيذ. كما أنها لا تحتوي على كتابة تذكارية تشير إلى اسم الباني أو تاريخ البناء، وقد يكون السبب في ذلك سببا جماليا حيث يمكن أن تقلل هذه الكتابة من



A: القصر الأيوبي.
B: الزردخانة.
C: الحمام الملكي.

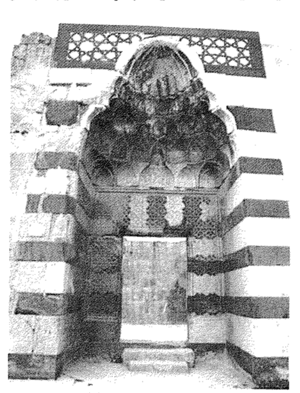
1- كتلة المدخل.
2- القاعة الأولى.
3- القاعة الثانية.
4- القاعة الثالثة.
5- منطقة الخدمات

غنى وتعقيد الزخارف المستعملة.

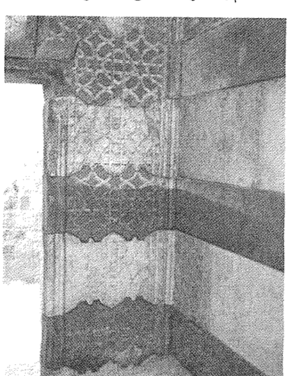
استخدم في البوابة نظام الأبلق القائم على تناوب الأحجار الكلسية الصفراء والبازلتية السوداء، أما المدخل المتراجع فهو عبارة عن باب تعلوه نجفة مستقيمة مدعمة بعنصر حديدي مخفي، ويحيط بهذا الباب أحجار بازلتية وكلسية معشقة بشكل هندسي ومغطاة بشبكة من الزخارف الهندسية المؤلفة من مثمنات ومعشرات مع شبكة أفقية وشاقولية محفورة بشكل مقاطع مربعة قليلة العمق وتتلاقى بشكل دقيق مع الحواف المقصوصة للأحجار، وفي الأعلى تنتهي شبكة الزخارف قبل بداية عقد المقرنص بمسافة قصيرة تاركة شريطا رفيعا من الأبلق. قد تبدو تقنية الزخرفة هذه بسيطة، إلا أنها معقدة وتتطلب دقة كبيرة في تنفيذها، فكل حجرة هنا يجب أن تؤدي وظيفة إنشائية وهندسية وزخرفية في وقت واحد.

يعلو الباب مقرنص نسبة عمقه إلى عرضه هي ١ : ٢، ويتألف من أربع حطات أو صفوف من الخلايا يقل ارتفاعها وعمقها باتجاه الأعلى، وتعلو هذه الصفوف نصف قبة مروحية الشكل تتألف من عشرة أضلاع. وعند مستوى قمة المقرنص تبدأ لوحة زخرفية تتألف من إطار من البازلت بداخله شبكة زخرفية هندسية منفذة بواسطة البازلت والرخام الأبيض.

تقود البوابة إلى بهو مستطيل يؤدي بدوره إلى رواق طويل يصل كتلة المدخل بالقاعة الرئيسية. وهو مزود بثلاث مجموعات من الأكتاف البازلتية تدل على وجود أبواب كبيرة سابقا، ومن الواضح أن اختيار مواقع هذه الأبواب قد تم بدقة للتحكم بالحركة ضمن القصر.



بوابة القصر (واجهة (١)



بوابة القصر (تفاصيل الأحجار المعشّقة)



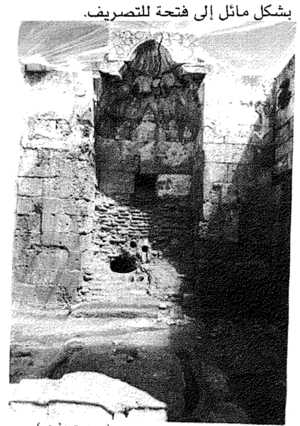
القاعة الأولى (الرئيسية) بعد الترميم

٢- القاعة الأولى (الرئيسية):

يوجد في القصر ثلاث وحدات غير متساوية في الحجم كل منها عبارة عن فناء داخلي محاط بأربعة أواوين من جهاته الأربع. ويمكن إطلاق مصطلح القاعة على هذا التكوين، ومن خلال دراسة مخططات القصور في الفترة الأيوبية نلاحظ أن القاعة شكلت الفراغ المركزي في القصور واعتبرت عنصر التوزيع الأساسي الذي تتوزع حوله فراغات الاستقبال والخدمة.

أكبر قاعات القصر الأيوبي في قلعة حلب تتألف من فناء داخلي أبعاده ٩،٥ × ٧،٥ م تقريبا، يوجد في وسطه نافورة مثمنة تشبه مثيلاتها في باقي الأبنية الأيوبية المعاصرة لها (مدرسة الفردوس - خانقاه الفرافرة-..)، وتغطي أرضيته مجموعة من التباليط الرخامية والحجرية الجميلة المنفذة ضمن تشكيل هندسي محكم، وعلى الرغم من زوال أجزاء كبيرة من التباليط وقطع الموزاييك إلا أن الأجزاء المتبقية كافية لتخيل التصميم وإدراك درجة إتقان التنفيذ. إن تاريخ هذه التباليط أمر لا يمكن التأكد منه، خاصة مع تعدد عمليات الترميم وإعادة البناء التي جرت في القصر.

يحيط بالفناء أربعة أواوين متفاوتة المساحة، يتميز الشمالي منها بوجود بقايا لسلسبيل جداري، وتتم تغذية النافورة الموجودة في الفناء من الساتورة الحلوة، حيث يتم تجميع الماء في خزان مبني من القرميد يقع خلف الإيوان الشمالي، ثم ينتقل الماء عبر مقلب إلى السلسبيل الجداري ومنه إلى النافورة عبر قنوات فخارية تمتد تحت أرضية الإيوان والفناء، وعندما يفيض الماء من النافورة يتجمع ضمن قناة محيطة بها موجهة بشكل مائل إلى فتحة للتصريف.



السلسبيل الجداري القرميدي (القاعة الأولى)

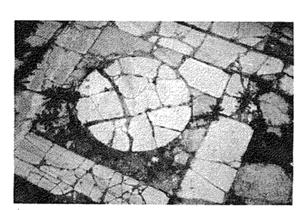
السلسبيل الجداري مبني من القرميد، ويبدو أن جدار السلسبيل وأرضيته كانت تغطيهما شبكة من الموزاييك الرخامي الملون الذي اكتشفت بعض بقاياه في الأرضية، ويعلو هذا السلسبيل مقرنص حجري يتألف من ثلاث حطات تعلوها نصف قبة مروحية.

٣- القاعة الثانية:

تتألف القاعة الثانية من فناء مربع أبعاده ٥،٤ × ٥،٤ م، تغطي أرضيته مجموعة من التباليط المرمرية والحجرية الملونة. يحيط بالفناء ثلاثة أواوين مرتفعة، الكبير في الشمال، واثنان أصغر حجما في الشرق والغرب، أما الجهة الجنوبية فيوجد فيها غرفة مستطيلة تنفتح على الفناء بواجهة ربما كانت عبارة عن ثلاث فتحات مقوسة. ولهذه الغرفة فتحات في طرفيها الشرقي والغربي تدل آثارها على وجود حواجز أو نوافذ حجرية فيها. وتوجد مثل هذه الفتحات في جدران الإيوان الشمالي الكبير.

٤- القاعة الثالثة:

تعرضت هذه القاعة إلى العديد من التدخلات والتغييرات مما جعلها غير واضحة المعالم. فقد تم التوسع في الحمام الملكي من الجهة الشمالية على حساب الجزء الجنوبي منها. أما بالنسبة لبقية الفراغات المعمارية الموجودة فيها فهي تماثل تلك التي في القاعة الثانية إلى حد كبير. وفي شمال هذه القاعة توجد منطقة التخديم الملحقة بالقصر والمشار إليها بالرقم ٥.



السلسبيل الجداري القرميدي (القاعة الأولى)

كانت المراحل التي شهدها القصر الملكي تأريخا لحكم الأيوبيين في حلب، فازدهر القصر بازدهارهم وأهمل بعد أفول نجمهم على يد المغول في عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م. ورغم عمليات التخريب وفترات الإهمال التي شهدها ما يزال أثرا تاريخيا ومعماريا مميزا يستحق مزيدا من الدراسة والتحليل. ■

المراجع:

١- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة / الجزء الأول - القسم الأول، تحقيق: يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة / دمشق - ١٩٩١.

٢- طباع، ياسر: المنشآت العسكرية والدينية في حلب في القرون الوسطى، منشورات جامعة بنسلفانيا - ١٩٩٧.

٣- سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب الجزء الأول، تحقيق: شوقي شعث وفالح البكور، دار القلم العربي / حلب ١٩٩٦.

٤- ألن، تيري: العمارة الأيوبية، الطبعة الإلكترونية www.sonic.net\tallen\palmtree\ayyfront.htm.

٥- هرتزفلد، ارنست: الكتابات التاريخية في المباني الأثرية في حلب، المعهد الفرنسي للآثار، ١٩٥٥ م.

عمارة القصور الأموية

في سوريا

غالب المير غالب*

العمارةَ أرشيفٌ صادقٌ للحضارة، ومخزن واسع يضمّ بين جدرانه نفائسَ تلك الحضارة والأحداث الكبار التي مرّت فيها، وتُوصل آثارُ العمارة المتبقية للحاضر طبيعةَ وحياةَ الأممِ والروابطَ التي كانت بين أهلها، وصوراً عن البيئة والعقيدة الدينية واللغة والعادات المكتسبة والثقافة السائدة أيامها، رغم تنوّع هذه الروابط وتوزّعها على مناطق متعدّدة مختلفة الأبعاد ومتغيّرة الألوان. ومن خلال استحضار هذا الأرشيف ودراسته دراسة دقيقة تتضح لنا الصورة التي كانت عليها المباني، وتتراءى لنا الفنون المشكلة لها، ويظهر لنا العلاقة بين هذه الصورة وخطوط الحياة السائدة بين عناصرها، وطبيعة الحياة فيها ونوعية الناس المعاصرة لها.

تميَّزت العمارة الأموية في سورية بالبساطة في التركيب والبعد عن التعقيد في التعبير، والمرونة الظاهرة في التخطيط والتصميم والتنفيذ، والتناسق الواضح بين العناصر، والدقّة في الزخرفة وإظهار التفاصيل الصغيرة.

ونظراً للطابع الديني وحاجاته الملحّة، كانت العمائر الدينية هي الغالبة في النوعية وفي العدد، ومن الطبيعي أن تكون عمارة المسجد وملحقاته والأضرحة وما يتبعها قد ازدادت بشكلٍ كبير ولافت للنظر في أغلب المناطق السورية، حيث أخذت طابعاً متقارباً في الشكل والتنفيذ، فتوضّحت العمارة الدينية وتوحّدت كأنها قالب واحد تختلف فيه بعض الإشارات من منطقة إلى أخرى، ضمن شكل عام واحد، لأنّ الغرضَ من الانتفاع الكامل للمبنى الديني واحدٌ؛وهو الهدف الرئيسي من تشييد المبنى.

لقد اهتمّ المعماري السوريّ في العهد الأمويّ بإضفاء جوٍّ من الأمن

* باحث في التراث المعماري.

والهدوء والترابط وسهولة الاستخدام داخل المبنى بشكل عام، وداخل القصور بشكل خاص، وأضاف للقصور البساطة والمرونة في عناصره المستخدمة، وهذا يُعدُّ من مميّزات العمارة الإسلاميّة، ومع أنَّ معظمَ أسسِ وتقاليدِ العمارة الأموية من مخططات وتكوينات وعناصر رئيسية، هي امتداد لعناصر العمارة المسيحية والبيزنطية المتواجدة في المناطق السورية بكثافة كبيرة، مع العمارة الرافدية، استطاع المعماريُّ السوريّ مزجَ كلِّ هذا الخليط المتراكم وأضاف إليه من الثقافة الإسلامية الكثير، وأخرج من كل هذا طرازاً معمارياً مختلفاً ومميزاً سمي بالطراز الأموي.

إن البحثَ عن أسماء المهندسين السوريين في العهد الأموي ومعرفتَهم مهمةٌ شاقة بل مستحيلة؛ لأن المؤرّخين تجاهلوا ذكرهم وهرعوا إلى التمجيد بالخلفاء والأمراء الذين قرروا إقامة البناء، وبات المهندس المصمم والمنفذ كالجندي المجهول الذي يضحّي بحياته في سبيل نصر يُنسب للقادة والحكام، رغم أن المؤرخين ذكروا أن المهندسين كانوا يقدّمون إلى الحاكم رسومات لمشاريعهم، وأحيانا يعملون مجسمات (ماكييت) للمبنى المقترح إقامته يقدمونها لصاحب المشروع ليسهل عليه تصور المشروع بعد التنفيذ؛ لكي يبدي


نقش داخلي في قصر خربة المفجر

ملاحظاته الخاصة قبل الشروع بالعمل، وفي أوقات كثيرة يقدم المهندس دراسة أولية بالكلفة المتوقعة للمشروع ليصار لرصد الميزانية لها.

في السنين الأولى للحكم الأموي كان يصعب التفريق بين المباني السكنية والمباني العسكرية؛ لأن أغلب القصور كانت تأخذ هيئة القلعة لتقوم بمهمة الدفاع عن ساكنيها، وفيها مراكز للعسكر ولقادتهم، وتحوي المكاتب والسجون، مثلها مثل أي موقع عسكري هام، وضمنها تقع أقسام القصر التي يسكنها القائد أو الأمير الحاكم، مع لوازمه المعيشية كافة.

تطور بناء القصور في العهد الأموي تطوراً كبيراً، نتيجة لتوفّر الإمكانات المادية واستقرار الدولة، وبلغ عدد القصور التي وصلت أخبارها إلينا حوالي الأربعين قصراً معظمهم موجود بالمدن أو قربها، والباقي متوضّع بالبادية الشامية.

١ـ قصر الخضراء:

بناه معاوية في دمشق بالقرب من المسجد، وهو أول قصر بناه الأمويون، وتميّز هذا القصر بفخامته وتنوع عناصره المعمارية، حيث بدت فيه النوافذ الواسعة والقناطر المتعددة، والسيراميك القيشاني والفسيفساء والمنمنمات التي توضّحت في الأعمال الخشبية، كما أحاطت بالقصر الحدائق وتعددت نوافير المياه ضمن ساحاته الداخلية، وأغلب هذا القصر بُني على أنقاض بناء روماني قديم، وقد استخدمت حجارته في بناء القصر الجديد، وهذا واضح من وجود بعض الكتابات الرومانية المنقوشة على حجارته، رغم أن القصر الجديد قد غطيت غرفه وصالاته بالنقوش النباتية والخطوط الكوفية، وزُينت أرضياتُ غرفه بالرخام الملون، غير أن معظم معالم هذا القصر قد اندثرت وأقيم فوقها مبانٍ جديدةٌ في أيام الدولة العثمانية.

٢ـ قصر الإمارة:

يقع غرب مدينة دمشق، وهو بناء ضخم كأنه مدينة مسوّرة بسور عال له بابان كبيران (باب الربوة، وباب حوران) وبينهما أبواب صغيرة كثيرة تسمى خوخات، وعلى القصر قبة حمراء مشرقة وتحيط الأنهار والحدائق بالقصر من جميع جوانبه، وتميّز هذا القصر بالواجهات العالية الجيدة البناء، وبتوزيع قاعاته وغرفه الداخلية التي فيها راحة وسهولة للمستخدم.

ولقد أكثر الوليد بن عبد الملك من بناء القصور في دمشق وباقي المدن السورية، لكونه مولعاً بالعمارة والبناء، وكان يُسرّ لكثرة التزيينات الجدارية والسقفية تلك المشغولة بالجصّ أحياناً أو بالفسيفساء أغلب الأحيان. وبنى حجاج بن عبد الملك قصر حجاج الذي احترق عام ٣٦٣ هجرية، وكان بناء القصر محكماً له قبة صفراء متعدد الحدائق ونوافير المياه الجميلة.

٣ـ القصور الصحراوية:

اتجهت رغبة الأمراء الأمويين إلى بناء القصور في الصحراء بعيداً عن أعين الناس وجعلوها مراكز إقامة لرحلات الصيد، وأماكن ينفى إليها الأمراء وعلية القوم إذا توجب ذلك، وفي أوقات كثيرة كانت تستخدم كمواضع لأولاد الخلفاء يرسلون إليها ليعيشوا عيشة أبناء البادية، وليكونوا على مقربة واحتكاك بالقبائل العربية البدوية ليتعلموا منها، ويتعرفوا عليها ويشكّلوا علاقات قوية وحميمة معها قد تفيدهم في المستقبل، وطبيعيّ أن يتمَّ اختيار مواقع القصور في الواحات الخضراء وقريباً من توفّر المياه الضرورية لتشكيل حدائقَ وبساتين وارفة الظلال، لتعطي الإحساس بالراحة، ولتساهم في تلطيف جو الصحراء الحار، وقد انتشرت القصور الأموية في أغلب بادية الشام وتعدّدت أسماؤها منها (قصر الحير الشرقي، وقصر الحير الغربي، قصر المشتى، قصر الرصافة، قصر طوبة، الرقة.. إلخ). وأغلب هذه القصور بني

على أنقاض مبانٍ قديمة، استُفيد من حجارتها وبعضٍ من هياكلها في البناء الجديد، ولقد وُجدت في هذه القصور أجمل اللوحات الفنية المرسومة على الجدران، ففي قصور البادية تحرّر المعماري السوري من القيود الدينية والتي كانت سائدة داخل المدن وقرب المرجعيات الدينية، وبعيداً عن الأنظار أعطى كل خبرته وثقافته المعمارية المتراكمة في فكره منذ سنين عديدة، عندها أطلق العنان لخيالاته فأظهر لوحات فنية ملونة بديعة التشكيل تمثل النساء العاريات ونصف العاريات وهن يعزفن على الآلات الموسيقية ويرقصن، كما أبدع تجسيد رحلات الصيد على الجدران والسقوف.

من أهم القصور التي أقامها الأمويون في المناطق الصحراوية:

١- **قصر هشام**: على ضفة نهر الفرات وقريباً من أرض صفين، لم يبقَ منه سوى بعض الجدران التي تشير إلى أماكن القاعات والغرف..

٢- **قصر العباس بن عمر الغنوي**: بين سنجار ونصيبين، يطلّ على بساتينَ ومياه، والعباس هو أحد قادة مسلمة بن عبد الملك وهو الذي بنى الرقة..

٣- **قصر هرقل**: شمال شرق سورية (قصر شمس الملوك) لم يبقَ منه سوى الجوسق والحمام، والجوسق تحول إلى خان للفقراء، وقد قام بترميمه عبد الملك بن مروان، وأضاف إليه بركة فسيحة الفناء، ورصف أرضياته من الرخام الأبيض، وجعل جدرانه من لوحات الفسيفساء الحاوية على صور الحيوانات والنباتات، وسقوف الغرف صنعت من الأخشاب المذهبة، وأضيف للقصر شرفات كثيرة تطل على الحدائق الداخلية والخارجية..

٤- **قصر خربة المفجر**: داخل البادية الشامية، وهو مبني من الحجر ويحتوي على غرف كثيرة مسقوفة بالخشب وبالجملونات والأقبية الطولية، وهذا القصر عبارة عن تحفة فنية جديرة بالتقدير، حيث تشير لوحاته التي تغطي الجدران والسقوف إلى عصر تاريخي كامل، وتدل المصادر التاريخية أن الأمويين (هشام) أعادوا ترميمه على عدة مراحل، واستخدموه بعناية وأضافوا له عدة مبانٍ، وتوجد بعض الكتابات والنقوش باللاّتينية واليونانية على كثير من حجارة هذا القصر مما يدل على أنها كانت تعود لمبانٍ سابقة متهدمة.

٥- **قصر الطوبة**: كان هذا القصر مبنياً من الحجارة السوداء والبيضاء، وهو يتألف من طابقين بسور واحد فيه ساحات ضخمة، وهذا القصر يعد الأجملَ من حيث توزيعُ أقسامه وتعددُ زخارفه، ولوحاته الملونة، وقد أُعيد بناؤه أيام (الوليد).

٦- **قصر بطياس**: شرق باب النيرب، بناه (صالح بن علي) أكثر فيه استخدام القيشاني والرخام للأرضيات والجدران.

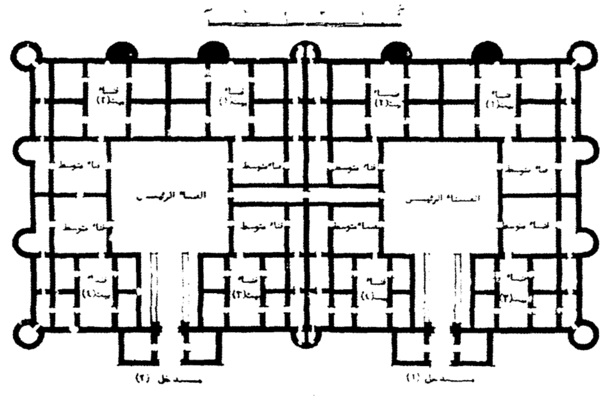
٧- **قصر الحير الغربي**: قرب /تدمر/ بناه (هشام) وهو يُعد أفضلَ نموذج للعمارة الأموية، وهو مربع الشكل وبناؤه من الحجر أسفل الجدران، ويعلو الحجرَ

الطوبُ الطيني والخشب والآجر، وللقصر مدخَل رئيسي واحد محاط ببرجين على هيئة نصف دائرة، وفي زواياه الأربعة أبراج عالية، والقصر مقسم إلى ستة بيوت في كل طابق، وكل بيت فيه ٨-١٢ قاعة وغرفة..

الخصائص الفنية والمعمارية للقصور الأموية:

ولقد اتضحت صورة العمارة الأمويّة منذ أيّام الوليد بن عبد الملك بعد إحضاره عدداً كبيراً من الصنّاع والفنيين من بلاد الروم، قُدِّر عددُهم بحوالي اثني عشر ألفاً، كان قد طلبهم من ملك الروم حين فكر ببناء الجامع الأموي في دمشق، وأرسلهم ملك الروم إلى دمشق، وقد شاركوا في إنجاز الجامع، وبعد الانتهاء منه عاد قسمٌ منهم إلى بلاده، وتوزَّع أكثرُهم في الأراضي السوريّة يعمل كلّ واحد منهم في مهنته، وكان لوجودهم الأثرُ الكبير في توفير اليد الفنية الماهرة، والتي استطاع بواسطتها المعماريّ السوريّ تحقيق الكثير من الأعمال المعمارية المميزة، مما سهَّل له إظهار الإحساس الروحي الممزوج بالإيمان الدينيّ المتعمّق بداخله، وإشراكه في أعماله المعمارية.

وتجلّى هذا في استخدامه المتكرِّر للقباب، وميلِه لوضع النقوش التزيينية على الأسقف والجدران ضمن أطر أساسيّة هي كلمات من القرآن الكريم تزيِّن بتشكيلاتها (من أوراق النباتات) لوحاته الفنيّة، وكان الهدف الرئيسيُّ من إدخال الزخارف والنقوش ولصقها على



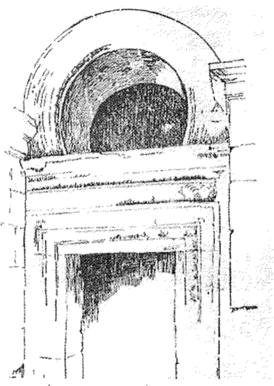
قصر الطوبة (بادية الشام) مسقط للطابق الأرضي

الواجهات الخارجية والجدران والأسقف الداخلية، هو إضفاء نوع جديد من الفنون يساهم في تمييز العمارة الأموية عن غيرها، لكي لا تكون العمارة مجردَ سطوح وفراغات وخطوط وانحناءات وأدراج وأعمدة صامتة لا حياة فيها، فتشكل المبنى وتكسبه الهوية الخاصة فيه. واهتمام المعماري السوري بالزخارف أوصله لاستخدام الفسيفساء الزجاجية القيشاني والأفاريز والصور الملونة التي تروي حكايا الصيد والمجالس الترفيهية، كما اهتم بالتركيز على سعة الأماكن وجودة تهويتها، لكي يضفي على المستخدم هدوء النفس والراحة الجسدية، وإفساح المجال للعقل بالسمو والسكينة، مع العلم أن معظم هذه العناصر كان متواجدا في الأبنية القديمة مثل الرسوم والفسيفساء الحجرية والصدفية، وهنا أضاف المعماري السوري الفسيفساء الزجاجية ولم تكن معروفة قبل العصر الأموي، مما جعلها خاصة معمارية أموية، وجعل من الخط العربي بأنواعه المختلفة مادة أساسية للتزيين والزخرفة، وأخرج من حروفه وأطرافه أشكالا وعناصر تجتمع في كلمات وعبارات تتزين بها الجدران والأسقف.

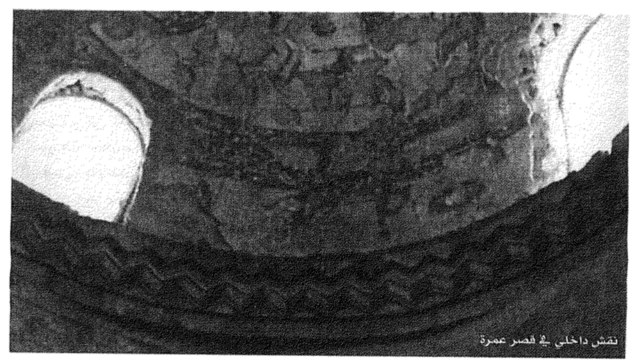
لم تكن مهنة البناء وهندستها تدرس أكاديميا أيام الحكم الأموي، بل كانت مهنة يتعلمها الأبناء من آبائهم، أو يتعلمها الصبية من أساتذتهم الذين كانوا يمارسون تلك المهنة، ولكل حرفة معلم يتولى أمرها ويستخدم المواد الطبيعية الموجودة محليا كالحجر والخشب والرخام والطين، ومع نحته للحجر يعطيها بعضا من روحه (مثل أي فنان آخر)، مما يجعل تلك الحجر نوعا غريبا من الحياة يتأثر ويحس فيها كل من يراها، وهذه الحياة تعطي الحجر خاصية تعرف بها وبالمنطقة المتواجدة فيها والتي تختلف عن غيرها من المناطق الأخرى، وهذه الخاصية تضم بين أشكالها تاريخ المنطقة وخطوط ثقافتها المكتسبة، ومتطلبات البيئة والمناخ.

بعض العناصر المميزة في العمارة الأموية:

١- **العقود الحجرية السميكة:** توسع استخدامها ابتداء من الأساسات الحاملة للجدران، إلى حمل الأسقف (جملونات) وإلى حملها للبوابات الكبيرة التي تستند على أعمدة دائرية أو مربعة. وكانت على أشكال أهمها:



قصر نصيبين (عقد حدوة الفرس)



نقش داخلي في قصر عمرة

أ- عقد نصف بيضوي حامل للأسقف متواجد في القصور الصحراوية.

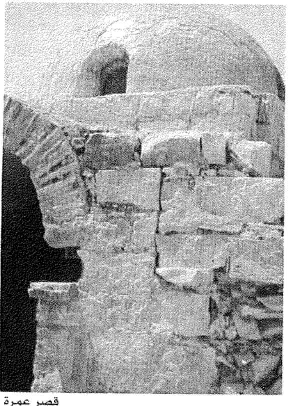
ب- العقد المستقيم (من الحجر) متواجد في قصر الحير الشرقي.

ج- عقد نصف دائري، منتشر في معظم المباني الأموية.

د- العقد المدبب، مؤلف من قوسين، استخدم بكثرة في قصور دمشق.

٢- **الشرفات المسننة**، استخدمت في الواجهات ودرابزونات السطوح والشرفات، وكان أول استخداماتها في قصر الحير الشرقي.

٣- **الشمسيات**، وهي ألواح من الحجر أو الرخام أو الجص، توضع في الشبابيك وتزخرف بالتفريغ بأشكال هندسية راقية، ويضاف إليها بعض أشكال النباتات والكتابات، ثم تطورت واستخدم الزجاج الملون ليملأ الفراغات المشغولة، وبهذا أعطت شكلاً جميلاً وخاصة عندما يُسلط عليها نور خفيف، استخدمت للمرة الأولى في العمارة الأموية /في المسجد الأموي/ دمشق.

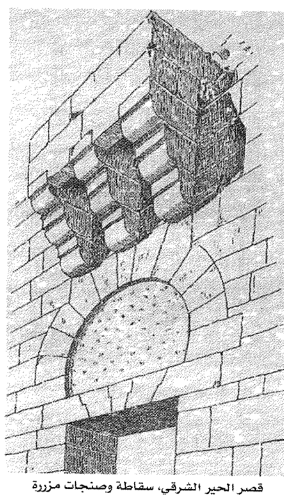


قصر عمرة

٤- **السقاطة (المشربية)** عنصر هام من عناصر العمارة الإسلامية، ظهرت في قصر الحير الشرقي، وهي تقوم بوظيفة إدخال نسمات الهواء الباردة في الصيف إلى الغرف وتسمح بدخول النور مع حجب الضوء القوي ووهج الشمس، بالإضافة إلى دورها الجمالي والفني، مما يجعلها حلاً معمارياً ذكياً تمتزج فيه أناقة التصميم بالذوق الفني الدقيق، ومراعاة البيئة والمناخ.

٥- **القباب**، توسع استخدامها بشكل شمل أغلب القصور والمباني الدينية والعسكرية في شمال سورية.. بنيت من الطين، وبنيت في الجنوب والمدن من الحجر، وبينما بنيت من الخشب في القصور الصحراوية.

٦- **الصنجات المزررة**، والتي تصنع من الحجر والرخام، ظهرت أول مرة في قصر الحير الشرقي بشكل بسيط متطور عن الصنجات الرومانية، كانت الغاية من استخدامها إنشائية أكثر منها معمارية؛ فهي تزيد من تماسك العقد وقدرة تحمله، وهي توضع بشكل وَتَدِيّ، يصنع طرفها العلوي عريضاً وطرفها السفلي ضيقاً، وشكلها المزرر يزيد من ترابطها، وتركيز الجزء البارز من كل صنجة على الجزء الداخل من التالية وهكذا، وقد انتقلت إلى العمارة الأموية بشكلها البسيط، وأجرى المعماري التعديلات والتطويرات، مما حسَّن أداءها وكثَّر استعمالها وبذلك أصبحت ابتكارًا معماريًا أمويًا..■



قصر الحير الشرقي، سقاطة وصنجات مزررة

المراجع:

١- الفن الإسلامي، دافيد تالبوت رايس
٢- جولة أثرية، وصفي زكريا
٣- العمارة العربية، فريد الشافعي
٤- موسوعة تاريخ الفن والعمارة، عفيف بهنسي
٥- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر
٦- رسالة في وصف دمشق، إبراهيم الكاتب
٧- عيون الأخبار، ابن أبي صبيعة
٨- خريدة القصر وجريدة العصر، الأصفهاني
٩- الأخبار الطوال، الدينوري
١٠- تاريخ مدينة دمشق، محمد حسين محاسنه
١١- المسالك والممالك، ابن خرداذبة
١٢- الكامل في التاريخ، ابن الأثير

مقابلة مع باولو ماتييه

"في إيبلا ولدت أول حضارة أصيلة قديمة"

ترجمة وتعليق: عبد الله حجّار*

قامت فيفيان دوتو بإجراء مقابلة مع الأستاذ باولو ماتييه نشرتها في مجلة "عالم الكتاب المقدس" عدد تشرين الثاني ٢٠٠٤. ولما كانت تعطي فكرة عن آخر موسم تنقيب عام ٢٠٠٤ في إيبلا، ننشر ترجمة لها لأهميتها:



باولو ماتييه في جولة لجمعية العاديات عام ١٩٧٨، ويظهر في الصورة الدكتور عمر الدقّاق مصغيًا بانتباه، (أرشيف جمعية العاديات)

* مهندس مهتم بالآثار والتراث.

كانت إبلا عاصمة إحدى الممالك الأولى في غرب آسيا. وقد سيطرت في ازدهارها عام ٢٥٠٠ ق.م على المنطقة الممتدة من وسط الأناضول إلى سيناء وكان مركزها في تل مرديخ جنوب حلب. وقد كشفت إيبلا عن حضارة غنية جداً، حيث اكتشف ١٧٠٠٠ لوحة مسمارية تقدم بعضها تشابهاً مذهلاً مع العهد القديم الذي جاء بعدها. ويشرح باولو ماتييه الذي كشفها منذ عام ١٩٦٤ تاريخها وآخر المكتشفات فيها.



مدخل فخم يقع قرب القصر الملكي غربي الموقع ٢٤٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م هذا النوع من البناء معروف غالبا في مدن بلاد الرافدين.

س١: عندما بدأت عام ١٩٦٤ الحفريات في تل مرديخ كانت إبلا اسماً بدون تعيين مكان محدد لها، ذُكرت في كتابات سرغون مؤسس الدولة الأكادية في بلاد الرافدين ولدى حفيده نرام سين في القرن ٢٤ ق.م. ولدى الفرعون تحوتمس الثالث بعد ألف سنة من ذلك. لماذا اخترتَ تل مرديخ؟

- لقد انطلقت من النظرية القائلة بوجود حضارة أصلية في سورية بين البحر المتوسط والفرات مستقلة عن حضارة بلاد الرافدين. وقد أظهرت حفريات ليونارد وولي في ألالاخ (تل العطشانة) قرب انطاكية عام ١٩٥٥ دلائل حضارة سورية أصلية قديمة من أيام حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م). وكان السؤال في معرفة إذا كانت ألالاخ حالة منعزلة أو أنها كانت قد تطورت في ذلك الزمن عن حضارة أصلية في سورية. ولم نعرف إلا في عام ١٩٦٨ أن موقعنا يضمّ إبلا التي يُبحث عنها منذ بداية القرن العشرين لكن، باتجاه أكثر إلى الشمال: وجدنا في اكروبول التل جذع تمثال يحمل اسم إبيّت-ليم ملك إبلا. وقد تطابق الموقع من جهة أخرى مع اسم المدينة (ويعني الجذر السامي: الأبيض) وصخورها الكلسية المنتشرة في البادية. كان لديّ منذ بداية الحفريات بعض أمل من هذه الجهة! وقد أكدّتها الحفريات الأولية حسب التوقّعات: أولاً ضمَّت إبلا في النصف الأول من الألف الثاني حضارة عظمى أصيلة: حيث

كشفنا ثلاثة قصور ومعابد، أكبرها معبد عشتار الكبير في أعلى الاكروبول - ومقبرة وتماثيل ومجوهرات. وقد بحثنا عن تأكيد لألالاخ: لكن وجدنا أكثر من ذلك بكثير. إبلا اليوم هي المدينة المعروفة أكثر من غيرها من فترة حمورابي ليس فقط في سورية بل في الشرق الأوسط. ولم يُتحدث سابقاً في النصف الأول من الألف الثاني ق.م. سوى عن حضارة بابلية قديمة. ومن الآن فصاعداً أصبح بالإمكان التكلم عن حضارة سورية قديمة.

بالإضافة إلى ذلك وتحت الموقع المؤرخ من الألف الثاني قبل الميلاد وجدنا إبلا الألف الثالث المعاصرة لأكاد وسومر. حيث كُشف عام ١٩٧٥ عن وثائق رائعة معظمها في قاعة قريبة من مكان



رقم فخارية مكتشفة في صالة المحفوظات للقصر الملكي غرب الموقع ٢٣٥٠ - ٢٣٠٠ ق.م، ١٧٠٠٠ لوحة اكتشفت عام ١٩٧٥ معظمها يتضمن نصوصاً اقتصادية ومالية اكتشفت في محفوظات القصر الملكي. وفي اللوحة وصف اتفاق معقود بين إبلا وآشور عاصمة الآشوريين واللغة المستعملة هي الإبلائية.

جلوس الملك في المنحدرات الجنوبية الغربية للأكروبول محفوظات القصر الملكي وتعود إلى الفترة بين عامي ٢٣٥٠ - ٢٢٥٠ ق.م. وهي ١٧٠٠٠ رقيماً مسمارياً ٨٠٪ منها عبارة عن نصوص اقتصادية مصحوبة مع نصوص دينية وإدارية ودبلوماسية. وكذلك وجدت أول معاهدة دولية في تاريخ الإنسانية عقدت بين إبلا ومدينة أبارسال على الفرات وهي مدينة لم يحدد موقعها بعد.

س٢: هل قُرأت ونشرت جميع النصوص؟

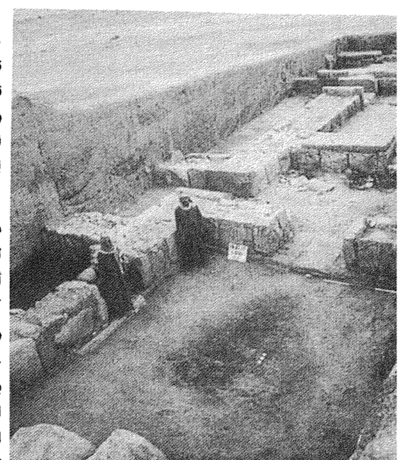
- لقد نشر حوالي ٤٠٪ من النصوص الكاملة ويستمر العمل في طباعة الباقي. الكُسيرات عديدة جداً لكن محتواها معروف لدينا. ويشمل عملنا في الواقع تجميع جميع العناصر لإعطائها معنى: وهناك العديد من المدن المذكورة نجهل مواقعها. كما أن هدية سيف من الذهب إلى موظف بمناسبة زواج أميرة يأخذ قيمة أخرى عندما يتكرر ذلك في عدة رُقُم. وهذا ضروري لتكوين مختلف المفاهيم عن المجتمع الإبلائي، ولإقامة الترتيب الزمني للنصوص الممتدة على ٤٠ سنة. في البدء، على سبيل المثال، كانت إبلا تدفع ضريبة إلى مدينة ماري[1] لكن موازين القوى اختلفت وأصبحت إبلا أقوى وأرسلت بعثة إلى ماري. وتبين النصوص المالية في الوقت نفسه هذا التطور: تزداد الفوائد تدريجياً. وفي أيام الوزير إبريوم مثلاً تزداد النفقات من ٥٠ كغ من الفضة إلى ١٣٧ كغ والإيرادات

س٣: هـذه المحفوظـات الأقـدم مـن محفوظات ماري التي عددها ٢٠ ألف لوحة تعود إلى فترة حمورابي أي بعد ستة قرون، تصف العمل المركزي والحكومي للمدينة ومنطقتها مع اقتصاد مراقب جداً، ما هي الخصائص والمظاهر الأخرى لمحفوظات إبلا؟

- المظهر الأول في البدء وعلى مستوى فقه اللغة بشكل خاص، اكتشفنا لغة هي اللغة الإبلائية. وهي مع الأكادية أقدم لغة سامية معروفة. وهي كاشتقاق(فرع) بسيط من الأكادية، وبشكل متبادل معها كذلك. أعتقد، من جهتي، أن الأمر تعلق في الألف الثالث بلغتين متجاورتين تُتكلَّم إحداهما في الغرب في سوريا الداخلية والأخرى في الشرق في وادي الفرات، لغتان متجاورتان لكن مستقلتان. والأكثر قيمة وأهمية كان اكتشاف أول قاموس ثنائي اللغة في العالم، ألف وخمسمائة كلمة سومرية مع مقابلها بالإبلائية.

إنه كنز سمح لنا بمعرفة أفضل للغات السامية وكذلك للغة سومر. كما تمّ في ألواح إبلا، ولأول مرة، استعمال كتابة مسمارية مرتبطة أصلاً بالسومرية من أجل تسجيل (تدوين) لغة أخرى، هي سامية. تتجرّد الإشارة عن دلالتها الأصلية لتدل على لغة أخرى.

المظهر الثاني هو كشف عالَم ديني متميّز بتعدد الآلهة. ويقدم أربعون نصاً قائمة التقدمات للآلهة من قبل الملك والملكة والموظفين. وأهم الآلهة هو كورا



حوض نذري (طقسي) من الحجر البازلتي يعود إلى حوالي ١٩٠٠ ق.م

كانت ٢١٠ كغ وأيام حكم إبنه إبي-زيكير تبلغ النفقات ٢٧٠ كغ والإيرادات ٦٠٠ كغ فضة.

وتصبح المدينة ثرية بحيث أنها تنافس وتقلق المدن الكبرى في جنوب بلاد الرافدين. وهذه القوة ستقرع الجرس في إبلا الأولى: لإزالة الخطر الذي تمثله.

يرسل سرغون ملك أكاد حملة عسكرية ضدها. كما أن حفيده نرام سين يحفر على نصب تدميره المدينة: "منذ تكوين البشرية لم يتمكن ملك من الاستيلاء على أرمانوم وإبلا... وقد مهَّد نركال إله الحرب الطريق لنرام سين القوي وأعطاه أرمانوم وإبلا".

Kura نوع من الإله - الأب أو ربما مساوٍ للإله حدد إله العاصفة. وقد اختفى فيما بعد. وترافقه إلهة لها مستقبل زاهر: عشتار، تمثّلت لاحقاً بإشخارا Ishkhara إلهة حورية[٢] في بلاد الرافدين العليا، إلهة الخصب للأرض وكذلك إلهة الحرب (وحيوانها هو العقرب). وسوف تصبح عشتار إلهة السماء والأرض والحب، ثم تصبح أفروديت وعشترة وفينوس. لقد كانت منذئذ، سيدة نجمة المساء ونجمة الصبح - كوكبنا فينوس.

ويُدرج المظهر الثالث في مجموعة تاريخ الحضارة. حيث تظهر إبلا ولأول مرة حضارة مدينيّة قديمة أصلية مستقلة ومرتبطة بالشروط الجغرافية التقليدية. لقد نشأت في الوديان النهرية الكبيرة لبلاد الرافدين أوائل المدن المسكونة وقامت في مصر الدولة المنظّمة: العنصر الأساسي في كل حالة هو الزراعة الكثيفة التي جعلها النهر وأقنية الري ممكنة، من حيث تراكم غنى وإعادة توزيع وتنظيم إداري. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: في فترة البرونز القديم هل يمكن وجود مدن - دول خارج الوديان النهرية أي خارج الشروط الجغرافية والزراعية الملزمة. وتؤكد إبلا بوثائقها إنه حوالي ٢٦٠٠ ق.م أمكن لمدينة أن تنشأ وتتوسع في شروطها "غير العادية" بالنسبة للحضارات المدينية لبلاد الرافدين ومصر.

إذا لم يوجد فيها أقنية ري فالأمطار كانت غزيرة تسمح، على التلال، بنمو زراعات متوسطية واسعة: العنب والزيتون بشكل خاص، وهي منتجات ذات نوعية



تميمة جنائزية تمثل مشهداً لوليمة طقسية من قبر سيد ال من المقبرة الملكية، من عاج فرس الماء. هذا القبر أحد ثلاثة قبور مكتشفة في المقبرة الملكية تعود إلى منتصف القرن ١٨ ق.م، نهب جزء منها، وقد احتوت كذلك آنية من الألباستر من أصلٍ مصري وحلي.

غير معروفة في وادي الفرات والنيل. وهذه الزراعة واسعة الانتشار تتطلب كذلك منطقة أكثر اتساعاً وسيطرة على هذه المنطقة. وإبلا، في فترة توسعها الكبير، تسيطر على منطقة تمتد من منحدرات سلسلة جبال طوروس في الغرب وحتى الفرات في الشرق وحمص في الجنوب. وتشغل علاوة على ذلك موقعاً استراتيجياً

على الطريق المارة بين الفرات والبحر المتوسط: تؤدي هذه الطرق إلى الأراضي الغنية بالخشب والمعادن - الفضة في جبل الأمانوس والنحاس الذي لا بد منه للبرونز، في جبل طوروس، والعديد من المواد "الثمينة" في عصر البروز القديم آنذاك. وبالمقابل فإن بلاد الرافدين لا تملك الخشب أوالمعادن. لذلك فهي تنظم حملات، وتنشئ أنواعاً من الوكالات comptoirs في منطقة حتى ذلك التاريخ مسكونة بقرى. وينتشر النموذج الرافدي مع عنصرين جديدين: وضع أفضل لتأمين المواد الغذائية والوجود القريب للمواد الأولية.

وهكذا وُجدت إبلا - وبدون أي شك مثل كثير من المدن في شمال بلاد الرافدين مثل نَجَر Nagar (تل براك). وأنا واثق بأن التنقيبات ستكشف عن العديد من المدن المماثلة لإبلا. والتغيّر على كل حال مدهش. فإذا بدأت الحضارة مع المدن ونشأت المدن في الوديان النهرية للأسباب المذكورة، فإن إبلا تدل على نوع من التطور خارج هذه الحدود. ومن أجل التطور بشكل كامل كان على الحضارة أن تتحرّر، إذا جاز لنا التعبير، من الجغرافية؛ والمدينة ما كانت لتكون رمزاً للحضارة لو بقيت مرتبطة بالنهر. ومع الفترة المسماة فترة سورية الأولى لإبلا، نعتمد على المحاولة الناجحة لتنظيم مدينة خارج العالم التقليدي للوديان النهرية. والناجحة جداً بحيث أن "المتدربين" راحوا يهدّدون "أسيادهم".

س٤: إثر حملة سرغون "والعالم القديم" ضد إبلا الأولى ماذا جرى بعد ذلك؟

- عرفت نهاية الألف الثالث أزمة عامة في جميع مدن العالم القديم، ويبدو أن الإنسانية عادت إلى نوع من نصف البداوة. وقد أصيبت بهذه الظاهرة سورية، وبلاد الرافدين بشكل أقل، وفلسطين. وحتى مصر حيث نشأت الفوضى. وأصولها كانت غامضة وربما بيئية - دفء في المناخ - أو زيادة في السكان. لكن التطور العمراني يتوزع في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، في كل مكان. وتولد إبلا من آثارها. وهناك إشارات عديدة تؤكد قوتها المستعادة: أهمية المعابد، على الاكروبول وفي المدينة المنخفضة وعلى امتداد السور - بطول ٣ كم من الردم وبارتفاع ٢٠م فيه أربع بوابات على مسار السور القديم السابق لحماية مدينة بمساحة ٥٦ هكتار- وكذلك العمران السائد. إن معبد عشتار على الاكروبول بتكوينه الثلاثي والقصر الملكي المجاور يذكّر بالوصف الذي ذكره الكتاب المقدس لمعبد وقصر سليمان حوالي القرن العاشر ق.م. في القدس أي بعد ألف عام. معبد إبلا هذا كان مشهوراً جداً بحيث أن عشتار إلهة معبد آشور سمّته بكل بساطة المعبد الإبلائي.

س٥: ما هي آخر مكتشفاتك؟

- عندما امتدت الحفريات إلى المنطقة الجنوبية من التل شاهدنا مبنى جديداً: القصر الجنوبي، أحد أربعة قصور ذات استعمال ملكي في إبلا

المرحلة الثانية. كشفنا فيه حوالي ٣٠٠ م٢ ويبدو أن القصر هو أكبر بعشرة أضعاف مما كشفناه، لكنه دمّر عندما احتلّ الحثيون(٣) المدينة حوالي العام ١٦٠٠ ق.م. واكتشفت في هذه المنطقة ١٥ لوحة فخارية معظمها اتفاقيات خاصة بين أفراد رغم أن إحداها وجدت في القصر الملكي وتتضمن أمراً حكومياً وهي عبارة عن قائمة موظفين. ونأمل بالطبع أن نجد محفوظات كما جرى في المرحلة الأولى في إبلا.

س٦: ماذا يُعرَف عن التدمير الثاني لإبلا؟

- كان حظنا هناك أيضاً رائعاً. علمنا أن الملك الحثي مورسيلي الأول كان قد نظم حملة ضد حلب، القريبة جداً من إبلا وبلغ بغزواته حتى بابل. يجب أن تكون إبلا قد دمّرت آنئذ. وقد اكتشف علماء آثار ألمان عام ١٩٨٦ في حاتوشا عاصمة الدولة الحثيّة (اليوم بوغاز كاله في وسط الأناضول) شعرًا بلغتين، حثية وحوريّة، يعود إلى حوالي عام ١٤٥٠ ق.م. "شعر التحرير" أو "التحرّر" هذا تُرجم ثلثاه وهو الرواية الأسطورية لحصار وغزو إبلا من قبل تيشوب إله العاصفة وإله كومه Kumme وهي مدينة غير معروفة، ربما تقع في وادي الخابور الأعلى. ويطلب تيشوب من ملك إبلا إطلاق سراح أمير وحاشيته سُجنوا ظلماً: وإذا لم يفعل ذلك "ستنهار" أسوار المدينة و"ستتهشم مثل إناء". ويجتمع الملك مع الأمراء المتحالفين معه ويقترح إطاعة الإله، لكنهم يرفضون. عندها يرتمي الملك عند قدمي تيشوب ويعلن له أن الأمير لن يُطلق سراحه. ويُحكم على المدينة بالدمار. ونهاية الشعر غير كاملة. وهذا دليل رائع على الصدى الذي كان لسقوط إبلا في مخيّلة العالم القديم. وما يبدو لي رائعاً هو التماثلات الواضحة مع الإلياذة التي كانت بعد قرنين أو ثلاثة، وإلى الغرب من بحر إيجه، والتي تروي الاستيلاء على مدينة قوية، طروادة، لتحرير ملكة سجينة هي هيلين من اسبارطة. في صورة هذا الشعر كان الأبطال هم آلهة وملوك، أي آلهة مختلطة بالبشر. ويجمع الملك حلفاءه الذين يتخاصمون معه - مثل اغامنون أمام آخيل أو اوليسّ أو نستور اللذين ينتقدونه. البيت الأول من الشعر هو نفسه (سأغني لإلهة وملكة) يبدو أنها سبقت هوميروس (غنّي أيتها الآلهة غضب أخيل ابن بيليه Pelee). بينما في تكوين هذه الملحمة ثنائية اللغة يمكن للأشياء أن تجري هكذا: كان على مورسيلي أن يتحالف مع أمراء حوريين من المنطقة لإرسال حملته. وربما كان الحوريّون هم الذين استولوا على إبلا. وكان على مورسيلي أن يطلب الكتابة باللغتين الحثية - الحورية ليكرّم حلفاءه. لذلك في كتابته الحثية كان النص يتنقل في آسيا الصغرى، ليصبح نموذجاً استطاع هوميروس أن يستوحيه في شعره. ■

جزء من تمثال من القصر الملك ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق.

الهوامش:

❖ باولو ماتييه: أستاذ الآثار والتاريخ والفن في الشرق الأدنى القديم في جامعة "سابينزا" la Sapienza في روما، ويدير تنقيبات موقع إبلا منذ عام ١٩٦٤. وهو مؤلف كتاب "البدايات في سورية" و"إبلا يعاد اكتشافها".

١- ماري، هذه المدينة الواقعة في تل الحريري على الفرات الأوسط في سورية قرب الحدود العراقية. كانت ماري خلال الألف الثالث ق.م. مركز مملكة قوية، اعتمد ازدهارها على موقعها الجغرافي على طريق التبادلات بين بلاد الرافدين المنخفضة والممر السوري. وقد أصبحت تابعة لإبلا التي انتصرت عليها. ثم أصبحت فيما بعد تحت السيطرة الأكادية ثم تحت سيطرة سلالة أور الثالثة. وباستردادها جميع قوّتها في الألف الثاني ق.م سيطرت على بلاد الرافدين العليا ثم خضعت لحمورابي حوالي عام ١٧٦٠ ق.م الذي دمّر مملكة ماري.

٢- الحوريون شعب قديم من وسط آسيا وانتشر في الهلال الخصيب بكامله في الألف الثاني ق.م وأنشأ في بلاد الرافدين مملكة ميتاني القديمة. والتي عرفت أوج ازدهارها في القرن الخامس عشر ق.م. قبل أن تخضع للحثيين في القرن التالي.

٣- الحثيون: عرف تحت هذا الاسم اتحاد شعوب ذات لغة هندو- أوروبية أسسوا مملكة في وسط الأناضول في القرن ١٨ ق.م امتدت حتى الفرات شرقاً وحتى شواطىء البحر المتوسط غرباً قبل أن تدمّرها "شعوب البحر" حوالي العام ١١٩٠ق.م.

من الذكريات:

بعد أربعين عاماً على بدء الحفريات في تل مرديخ حيث وجدت مملكة إبلا تتبلور الأفكار وتتحدد في المنحى الصحيح، لذلك تختلف نظرة المنقب اليوم نتيجة الحفريات في إبلا وما جاورها في الأناضول والرافدين وبخاصة على الفرات عن النظرة التي كانت لديه عندما جاء عام ١٩٦٤ يبحث عن تل يعود إلى عصر البرونز الأوسط لينقّب فيه.

وهنا أذكر ما كان قد ذكره مستشار جمعية العاديات المرحوم صبحي الصواف الذي قابل العالم الشاب باولو ماتييه ابن الخمسة وعشرين عاماً عام ١٩٦٣، وأراه في متحف حلب الجرن النذري من البازلت المكتشف في تل مرديخ عام ١٩٥٥، كما أراه تل مرديخ (٦٧كم جنوب غربي حلب) المكوّن من اكروبول يحيط به سور، وهو النموذج المعروف في تلال فترة البرونز الأوسط (قرن ١٨ق.م.). فقرّر الأستاذ ماتييه البدء في التنقيب فيه اعتباراً من عام ١٩٦٤.

وعندما اكتشف جذع التمثال الحاوي على الكتابة الأكادية في المعبد D أعلى الأكروبول عام ١٩٦٨، ولم يكن مدير البعثة قد اصطحب معه قارئ للغات مثل جيوفاني بتيناتو أوألفونسو آركي كما فعل لاحقاً، هرع ماتييه الى البروفسور أندره فينه، أستاذ اللغة الأكادية في جامعة بروكسل الحرّة والذي كان ينقب في "تل قنّاص" على الفرات ضمن حملة إنقاذ التلال الأثرية في حوض الفرات قبل تشكل بحيرة السد. فقام فينه بقراءة النص الذي ذكر فيه: "إبيت ليم ابن يجرش حب" ملك إبلا. وهنا عرف باولو ماتييه أن الموقع الذي ينقب فيه، إذا لم يكن جذع التمثال مجلوباً من مكان آخر، هو موقع مملكة إبلا الشهيرة التي ذكرها سرغون الأكادي وحفيده

نـرام سـن وغوديـا ملـك لاغـاش وتحوتمـس الثالث وسواهم.

ثمّ انضـم إلى البعثـة الإيطاليـة قـارئ اللغـات جيوفـاني بتّينـاتو ثم ألفونسـو أركـي واكتشفت محفوظات مملكة إبـلا عـام ١٩٧٥ في مكتبة القصر الملكي الذي يعود إلى الألف الثالث ق.م، في المنحـدر الغـربي للأكروبـول. كما اكتشفت المقبرة الملكية بعد ذلك ومنها قبر لأميرة مع جميع حليها ومجوهراتهـا بما فيها خزام الأنف، مما يعجز عن عمل مثلها صاغة هذه الأيـام، وتعـود إلى القـرن الثـامن عشر ق.م.

وأُثـيرت ضجّـة عالميـة حـاولت أن تستغلّها الصهيونية العالمية حول محفوظات إبـلا. وقـد تصـدّى لهـا المديـر العـام للآثـار والمتاحف وشكّل لجنة دولية لقـراءة نصوص إبلا التي وزّعت صورا عن رقمها على جميع البـاحثين الإختصـاصيين المـهتمّين. وهكـذا تلاشت الضجة وأخمدت.

إن أعمـال التنقيـب الـتي جـاوزت الأربعين عاماً حتى الآن كشف خلالها عن ٨٪ من مساحة إبلا فقط وتمّ نشر أكثر من ٤٠٪ من محفوظات المملكة من الألف الثالث ق.م وعددهـا ١٧٠٠٠ لـوح وكسـيرة. وسّـع ماتييـه حفرياتـه في سـور المدينـة بعـد أن كـان قـد اقتصر على البوابة الجنوبية الغربية أو بوابة دمشق فوجد بوابـات أخـرى ومعـابد مجـاورة لها وكأنها لحمايتها. (كما هـو الحـال اليـوم، حيث تجد قـرب بعـض أبـواب حلـب قـبر وليّ وكأنه يقوم بحماية ذلك الباب مثل الطيّار عن بـاب قنسـرين والخضـر- مـار جرجـس - عنـد بـاب النصـر..). كمـا امتد بحفرياتـه إلى شمـال وجنوب الأكروبـول وكشـف عـدداً مـن القصـور والتماثيل والمعابد. ويأمل، ونرجو أن يحالفه الحظ، أن يجد في امتـداد المنحـدر الجنـوبي للأكروبول محفوظات إبلا في مرحلة الازدهـار الثانية وهـي المرحلـة العمورية الممتـدة بـين القرنين ١٨-١٦ ق.م والتي دمّرت فيها المدينة أيام الملك مورسيلي الحثي.

جهد كبير، يضاف اليه أعمال الصيانة كل عـام الـتي تحـافظ علـى رونـق الحفريـات وتبقيها شـهيّة للعـرض علـى السيـاح والـزوار. نتمـنى للبروفسـور ماتييـه وأفـراد بعثتـه كـل نجاح، حيث رفـع اسم سورية عاليـاً بأصالـة حضـارتهـا في إبــلا بــين حضــارات الشــرق القديم والرافدين والـتي أعطـت جذوراً تعـود إلى الألـف الثـالث ق.م. وثبّتـت أقدامـهـا مـع اللغـة العربيـة المحكيـة اليـوم في سـورية بالشـبه الكبـير بينـهـا وبـين اللغـة السـامية الأم الـتي تكلمـهـا سـكان إبـلا. وجعلتنـا نعـتز بمسـاهمة بلادنا في مسيرة الحضارة الإنسانية■

طريق الحج الحلبي

في قصيدة ابن جابر الأندلسي الرائيّة

أحمد فوزي الهيب *

بيت الله العتيق، أول بيت لله وُضع للناس في هذه الأرض، باركه الله تعالى، وجعله هدى وأمناً للعالمين، بنته الملائكة، ثم جدد بناءه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وأمر الله أبا الأنبياء إبراهيم أن يؤذّن فيه بالحج، ثم أمر تعالى الرسول محمداً ﷺ بتجديد تلك الدعوة الطيبة، فاستجاب الناس لدعوته كما استجابوا من قبل، وأتوا مسرعين راجلين راكبين ملبّين مكبرين شُعثاً غُبراً من كل فج عميق، تدفع نسائمُ أشواقهم أشرعةَ قلوبهم، لا تُثْنيهم مشاقّ السفر ومخاطر الطريق وطولها، ليحجوا، ويُغفر لهم، ويذكروا الله في أيام معدودة، ولمّا يزل ذلك الأذان يتجدد كل عام، وسيبقى إلى ما شاء الله تعالى.

وقد كان أهل حلب، ولمّا يزالوا، موجة مباركة كبرى من أمواج الحجيج التي لا تنتهي، يحبون الحج والعمرة وزيارة الرسول ﷺ، ويفخر الكثيرون منهم بأنهم قد حجوا مرات ومرات، تصل إلى العشر أو تزيد. وربما كان من أسباب ذلك أن مدينتهم محطة رئيسة يمر بها الحجاج القادمون من تركيا وما يتلوها من بلاد إسلامية في جنوب شرق أوربا، وفي أواسط آسيا. ولمّا نزل إلى يومنا هذا نشاهد بعض قوافل الحجيج البرية الآتية من تلك الأمصار القصية، تمر بحلب وتستريح فيها أياماً، ثم تتابع طريقها.

وكان الأمر على أشد من ذلك في ما سبق من عصور، يتناسب مع ما كانت عليه حلب منزلة وأهمية واتساعاً ومكانة. ويعنينا في مقامنا هذا العصرُ المملوكي الذي كانت فيه حلب ولاية أو مملكة كبرى واسعة قوية غنية، الأمر الذي جعلها، فضلاً عن كونها محطة رئيسة لقوافل الحجيج، منطلقاً تنطلق منه وفود الحجاج مما يليها من بلاد، ليرافقوا

* دكتوراه في الأدب العربي.

حجاجها إلى الديار المقدسة. ومن حسن الحظ أن شاعراً مجيداً من أكبر شعراء العصر المملوكي قد وصف في قصيدة فريدة له رحلة الحج آنذاك أزمنةً وأمكنةً وأشواقاً، بدقة وعمق. إنه ابن جابر الأندلسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المريّي الضرير نزيل حلب (٦٩٨-٧٨٠هـ)، وهو غير سميّه وسابقه زمناً التونسي ابن جابر الوادي آشي.

كان ابن جابر إماماً عالماً فاضلاً بارعاً أديباً أُمة في النحو، له النظم والنثر البديعان، اخترع أول بديعية في الأدب العربي، سمّاها (الحلة السِّيَرا في مدح خير الورى)، والتي عُرفت ببديعية العميان[١]، و له كتب عدة في اللغة والنحو والبلاغة والعروض[٢]. وهو، فضلاً عن ذلك، شاعر مكثر له شعر كثير متفرق في كتب الأدب.

إن قصيدته هذه التي وصف فيها رحلته إلى الحج قلّ أن نجد لها نظيراً في الأدب العربي، نظمها على البحر الطويل، وبناها على روي الراء المفتوحة المطلقة، وذكر فيها منازل الحجيج ومواقيتها من بداية الرحلة إلى نهايتها في مكة المكرمة بدقة لافتة للنظر بدءاً من البيرة وانتهاء بمكة المكرمة. وهذا يعني أن رحلته هذه قد كانت بعدما غادر حلب، واستقر في البيرة. وكُتُبُ التاريخ تحدد عام دخوله حلب، وهو ٧٤٣هـ، ولكنها لا تدقق في عام مغادرته إلى البيرة، وإنما نجد في كتاب (إعلام النبلاء) أنه سكن مدة في البيرة قبل موته[٣]. فإذا وضعنا في حسباننا أنه قد نال في حلب شهرة واسعة، ونُسب إليه مسجد (طغرل)، وأن أكثر أولاد الحلبيين تتلمذوا على يديه، نستطيع أن نصل إلى أنه لا يمكنه تحقيق ذلك إلا بمقام طويل في حلب، قد يكون امتد قرابة عشرين عاماً. وبذلك نستطيع أن نحدد زمن رحلته هذه في ستينيات أو سبعينيات القرن الثامن الهجري، وكانت هذه الفترة من أكثر فترات السلطنة المملوكية قوة و حضارة وازدهاراً وثراء واتساعاً، الأمر الذي جعل طريق الحج آمناً، يجد الحاج فيه ما يحتاجه من خدمات[٤].

كانت رحلة ابن جابر في قسمين أو مرحلتين:

١- مرحلة أولى قصيرة تمهيدية، بدأت من البيرة، وانتهت بحلب.

٢- مرحلة ثانية طويلة رئيسة أساسية، بدأت من حلب، حيث اجتمعت فيها وفود الحجيج الذين أتوها مما حولها من مدن، لينضموا إلى الحجاج الحلبيين في قافلة كبيرة، استعد القائمون عليها استعداداً ضخماً يتناسب مع طول طريقها ومصاعبه. لذلك نجده يطيل المكوث في حلب سبعة عشر يوماً، حتى تتم الاستعدادات اللازمة، ويبدأ الانطلاق. وقد وصف ابن جابر المرحلتين كلتيهما في هذه القصيدة.

قدّم الشاعر لقصيدته هذه بالحث على ترك الدار والأهل والارتحال إلى

الرسول ﷺ قائلاً:

دع الدار وارحل للذي جاء بالبشرى
ويع دارك الدنيا من الله بالأخرى[٥]
دعتنا إلى دار النبوة عزمةٌ
فقمنا ولم نترك لأنفسنا عذرا

ثم انتقل إلى وصف الفرات[٦]، وكيف تجاوزه بُعيد إشراق الشمس التي ألقت على فضة ماء الفرات ذهبها:

ولمّا تجاوزْنا الفراتَ وقد غدا
سنا الشمس يلقي فوق فضتها تِبرا

وتحدث عن وداع الأحبة، وعن آلامه ودموعه:

وقفنا لتوديع الأحبة وقفة
طويتُ بها كشحاً على كبدٍ حرّى
فسرنا و ولّى القومُ عنّا و ودّعوا
وأيدي النوى ينثرْنَ أدمعنا نثرا

ولكن لابد من الصبر، لأنهم متجهون إلى الرسول ﷺ:

صبرنا وقلنا إنما الخير في الذي
قصَدْنا ولولا ذاك لم نستطع صبرا

ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يلتفت إلى الفرات وإلى الأحبة والأهلِ الواقفين على شاطئه، فلم تكفهِ التفاتةٌ واحدة، فثنّاها:

وحانت إلى نحو الفرات التفاتة
وما أقنعتْ عيني فزوّدتها أُخرى

وحتى يخفف آلام الوداع طلب من الركب الإسراع، لأنهم لن يغادروا نهر الفرات إلا بحر الرسول:

وقلتُ دعوا نهرالفرات وأسرِعوا
فسوف نرى من جود خير الورى بحرا

كان ذلك في آخر أيام شهر شعبان، ويدلنا على ذلك البيت التالي:

فبتنا بنهر الجوز والناس قد رأوا
هناك هلال الصوم واستقبلوا الشهرا

وبعد مبيتهم بمنطقة نهر الجوز الشهيرة بمائها وبساتينها، تابعوا المسير حتى وصلوا إلى نهر الساجور الذي يصب في نهر الفرات شمال منبج، فباتوا عنده:

وكان على الساجور بعدُ مبيتنا
فللهِ ما أبهى وأبهجهُ نهرا

استراح الركبِ ساعة بمدينة الباب، وتابع السفر ليلاً إلى حلب:

وبالباب بِتنا بعدُ والله فاتحٌ
بما قد قصدْنا بابَ نعمتهِ الكبرى
فنمنا بها كي نكسر النوم ساعةً
وسرْنا بعزمٍ لا نطيق له كسْرا

وصل قافلة الشاعر وصحبه حلب الشهباء بُعيد الفجر، فتذكّر أيامه السعيدة السابقة فيها، وطيب مائها وهوائها اللذين يشفيان العليل، وأثنى على كريم فعال أهلها الذي لا يستطيع أن ينساه، ولا أن ينساهم، ولا أن ينسى شكره:

على حلب الشهباء ولّى لنا الدجى
بأدهمه إذ أشهبُ الصبح قد كرّا
فلما نضا عنها الظلوم نقابه
كما نُضيَ الجلباب عن كاعب عذرا
رأينا التي أكمل الله حسنها وما
خالف الإخبارُ عن وصفها الخُبرا

كفى الماءَ منها والهواء ففيهما
من الطيب ما نفسُ العليل به تبرا
وما أنا أسلو عن كريم فعالها
أولئك قومٌ لست أنسى لهم شكرا

لابد من الوقوف عند اسم الإشارة (أولئك) الذي يدل على السمو والعلو والشرف وغيرها من صفات يحمدها الشاعر لأهل حلب، وعند عدد الأبيات التي خصّها بها، وهي سبعة، وذلك لأنها ليست كغيرها من المدن، وعند الزمن الذي قضاه فيها، لأنها البدء الحقيقي لرحلة قافلة الحجيج إلى الديار المقدسة. إنه قضى فيها قرابة سبعة عشر يوماً، حتى تجمعت وفود الحجاج مما حولها، لتنطلق مع قافلة الحج الحلبية إلى الحجاز. وقد كان الانطلاق في الحادي والعشرين من رمضان:

أقمنا بها مقدار ما هُيّئَ السُّرى
وقمنا لقصد عنده يُحمد المسرى
وقد مرّ شهرُ الصوم إلاّ بقيةً إذا
زدتها يوماً فقد كمُلَتْ عشرا

غادرت القافلة حلب إلى حماة، فوصلت إليها بعد ثلاثة أيام في الرابع والعشرين من رمضان، ووصف ابن جابر حدائقها الغناء، ونهرها العاصي، والأزهار التي حوله، ومبيته فيها، ثم مغادرته لها، ضحى الخامس والعشرين من رمضان، إلى الرستن:

وثالث يوم من حماة بدت لنا
حدائقُ أرخى الحسن من فوقها سترا
ترى النهر يجري كالمجرة وسْطها
فنحسب غضَّ الزهر من حوله زُهرا
فبات عليها الركب ثم مضَوا ضُحى
وبالرستن استوفى ومن حينه أَسرى

وصلت القافلة إلى حمص صباحاً، ورجالها متعبون، فاستراحوا يومهم فيها، وكانت السماء صافية دافئة رغم برودة الشتاء:

فصبّح حمصاً والمطيُّ على ونىً
فقلتُ أريحوا لا يكنْ أمركم عسرا
وثاني يومٍ قد حَثثنا ركابَنا
ونحن بجاهِ المصطفى لا نَرى ذُعرا
ومن بركات المصطفى كان يومنا
بقارةَ صحواً لا شتاءٌ ولا قَرّا

وبلغ الركب دمشق صبيحة الأول من شوال، أول أيام عيد الفطر بعدما سار أربعة أيام، ووصفها الشاعر بأنها جنة الدنيا، وأن الدهر كله أعياد لسكانها، ولكنها مع ذلك دار للغني فقط، ليس للفقراء فيها مقام، ثم غادرها مع صحبه في الحادي عشر من شوال جنوباً نحو الحجاز بعد مقام طال قرابة عشرة أيام:

إلى أن نظرنا من دمشقَ لبلدة
غدتْ جنة الدنيا فأكرمْ بها قطرا
ذلك يومُ العيدِ والدهرُ كلُّهُ
لساكنها عيدٌ فيا حسنَهُ دهرا
ولكنَّها أرضُ الغنيِّ ودارُهُ
ولا عيشَ فيها للذي يجدُ الفَقْرا
قضينا بها الآمالَ ثم استحثَّنا
إلى المصطفى شوقٌ حشا في الحشا جمرا
فسِرْنا وشهرُ الفطرِ قد مرَّ ثلثه
إلى مَن أرانا شرعُهُ الصومَ والفطرا
فودّعَت الركبانُ ثم تتابعوا
رحيلاً وقالوا إنَّ موعدَنا الزَّورا[7]

وبلغت القافلة حوران، فتكاثرت الغيوم، وتساقطت الأمطار غزيرة، حوّلت البراري بحاراً، فأسرع الحجاج إلى قرية محجّة، ولاذوا بها حتى انقطعت الأمطار صباح اليوم التالي:

ولمّا أتوا حوران عبّس جوُّها
وأصبح طلقَ الوجه قد أظهر البشرا
فما كان إلا أن ركبنا مطيّنا
إذا الجوّ يبكي فوقنا بعدما افترا
فأقبلت الأمطار من كل جانب
علينا وعاد البرُّ من حينه بحرا
إلى أن نزلنا من محجّة جانباً
ولم نستطع نخطو ذراعاً و لا شبرا
فقلتُ لأجل المصطفى كان كلُّ ذا
وما اللهُ أجرى سوف نُعطى به أجرا
نزلنا وقلنا سوف يرحم ربُّنا
ويجعل بعد العسر في أمرنا يُسرا
وثانيَ يومٍ بيّض الجوُّ وجهَه
وأبدى لنا البشرى وجاء بما سرا
فأصبح وجه الأرض قدجفّ ماؤه
فقمنا بأيدي العيس نلطمه جهرا

سار الحجيج طيلة يومهم حتى مدينة زُرَع، فاستراحوا قليلاً، ثم سروا إلى دير خُليف، وتابعوا مسيرهم حتى بلغوا بُصرى مساء، وكأنهم أرادوا أن يعوّضوا بإسراعهم هذا تأخرهم الذي سببته لهم الأمطار:

وفي زُرَعٍ باتوا وأسروا فصبّحوا
بدير خُليفٍ ثم أمسَوا على بُصرى

وبُصرى ليست مدينة كغيرها من المدن التي يمر بها الحجيج، ذلك لأن الرسول ﷺ قد وصل إليها نوره عندما ولدته أمه السيدة آمنة بنت وهب، كما انتهت إليها أيضاً رحلته مع عمه أبي طالب عندما كان صغيراً، إذ أرجعه عمه بعدما رأى الراهب بحيرا فيه صفات النبوة، وحذر عمه، وطلب منه أن يعود به خوفاً من أن يؤذيه يهود إذا عرفوه. لذلك جعلها الله موطن أُنْسٍ يطرد كلّ همّ. هذه الذكريات أثارت عاطفة الشاعر وصحبه المُحبَّة للرسول ﷺ فبكوا حتى ارتوت الأرض من دموعهم:

فأول بشرى أن رأينا بربعها
معاهدَ من سرْنا له نقطع القفرا
ومِن أجل هذا آنسَ اللهُ ربعها
فكلُّ أخي همٍّ رآها فقد سُرا
وبعد رحيل الركب منها بساعة
بَدير بَحيرا عند تيماءَ قد مرّا

وبعد ذلك رحلوا إلى الثنيّة فالزرقاء، ثم طلع الفجر عليهم، وأدوا صلاته في سمنان، وتابعوا مسيرهم إلى زَيزا، وهي قرية في البلقاء، فيها بركة عظيمة وسوق للحجيج، فانتظر السابق فيها المتأخر، واستراحوا ثلاثة أيام استرجعوا بها نشاطهم:

رحلنا وفي سفل الثنيّة خيّموا
وكنّا على الزرقاء واليوم قد حرّا
فساروا وفي أرجاء سمنان خيّموا
وقد شاب زنجيُّ الدجى وقضى العمرا
وبعد قضاء الفرض ساروا فأصبحوا
بزَيزا وما زالت ركائبهم تترى

ثم تابعوا ارتحالهم إلى الحساء قرب

مؤتة، وبعد يومين من المسير وصلوا إلى معان، فاستراحوا فيها ثلاثة أيام، انطلقوا بعدها في رحلتهم المباركة:

وفي ثالثٍ جئنا الحساءَ وخامسٍ
معاناً وأياماً ثلاثاً بها قرّا
وقمنا وقام الناس من كلّ حازمٍ
رمى نفسه في البيد واستسهل الأمرا

وفي اليوم التالي نزل الركب مهبط الصوان، واستقبلوا منبسطاً من الأرض، أمواجه السراب، وسفنه الخيل والإبل:

وثانيَ يومٍ أصبح الركب نازلاً
على مهبط الصوّان واستقبل القفرا

وبعد ثلاثة أيام من مغادرتهم معان، وصلوا ذات حج في الأول من ذي القعدة:

وثالثَ يوم من معانٍ ورودُنا
على ذات حج فارتَوَوا وسرَوا ظُهرا

وتابع الحجيج رحلتهم المباركة حتى رأوا مدينة تبوك، وقد زاد الضحى نخيلها الجميل اخضراراً، فشربوا من مائها الذي باركه الرسول ﷺ، وأقاموا فيها ليلتين، ثم انطلقوا منها سحراً إلى الأراضي الحجازية:

وفي ثالثٍ لاحت تبوك لنا ضحىً
وقد لبست من نخلها حُللاً خضرا

وفي السادس من ذي القعدة مرت القافلة بوادي الأُخيضر، ثم وردت في اليوم التالي ماء الصافي، واغتنمت صحو السماء فغذّت السير إلى أن باتت على ماء المعظم، وهو بركة ماء أقامها الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي، ولما تزل:

وجازوا على وادي الأُخيضر ثانياً
وقد قطّعوا من يده مسلكاً وعرا
وجاؤوا إلى الصافي عشيةَ ثالثٍ
فروّوا وسارعوا إذ رأَوا الأفق مفترا
وباتوا على ماء المعظّم بعد ذا
وما أحدٌ منهم إلى الماء مضطرا

بعد ذلك باتوا على ماء الجُنيب، وشربوا قبل الفجر إلى ثمد الروم، فوصلوا إليه ضحى التاسع من ذي القعدة:

وبعدُ على ماء الجُنيب مبيتُهم
فروّوا وساروا قبل أن يبصروا الفجرا
وفي ثَمَدِ الرومِ انجلى الصبحُ ضاحكاً
لنا فلقَطْنا مِن حَصى أرضِه دُرا

وانتحَوا صباح اليوم العاشر من ذي القعدة مبرك الناقة، وهو غير سميّيه في بُصرى والمدينة، وفي ظهيرته وصلوا إلى مدائن صالح أو الحِجْر، وغادروها مسرعين، لأنها ديار قوم ثمود الظالمين الذين حلّ عليهم عذاب رب العالمين، وتجاوزوا العلا بعد الغروب سعداء بخلاصهم من تلك الصحراء الخطرة.

وفي صبحِ ثانٍ مبرك الناقة انتحَوا
وفي ظهر ذاك اليوم قد وردوا الحِجْرا
وجازوا العلا بعد الغروب فأكثروا
لِربهم شكراً وللمصطفى ذكرا

واستراحوا ثلاثة أيام بعد إسراعهم هذا، ثم انطلقوا في اليوم الخامس عشر إلى ماء الشعب الطيب رغم قلته:

أقاموا ثلاثاً فاستراحوا وأودعوا

وصاروا على عزمٍ وقد خففوا الظهرا

وثانيَ يومٍ أوردوا الشِّعب عيسَهم

فيا طيب ذاك الماء لو لم يكن نذرا

وفي السادس عشر من ذي القعدة خيموا بوادي هُديَّة، وغادروه سريعاً، لأذاه، فجر اليوم التالي مجتازين أرضاً وعرة، اسمها السوداء، أضرت بالإبل، وأسالت الدماء من أخفافها.

ومن بعدُ في وادي هُديَّة خيّموا

على مورد لا بدَّ منه وإنْ ضرّا

وسرنا ووجه الصبح أبيضُ باسمٌ

فلاقت من السوداء أجمالنا شرّا

ثم مروا بوادي العظام فسهّل الله مصاعبه، ثم باتوا قرب الفحلتين، وغادروها سحر الثامن عشر:

وجازوا على وادي العظام فلم يروا

بجاه رسول الله ضيماً ولا ضُرا

وكان بقرب الفحلتين مبيتهم

وإذ رحلوا خلّوا وراءهما الفجرا

وأخيراً وصلوا إلى نهاية وادي القرى، فهبت عليهم نسائم الحجاز الطيبة، وملأت قلوبهم سعادة وشوقاً، وباتوا فيه العشرين من ذي القعدة، وشربوا من مياه السُّد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه صباحاً، واستمر سيرهم إلى أن وصلوا البتراء، وهي غير سميّتها في الأردن، في الحادي والعشرين:

وبتنا لدى وادي القرى نأنس القِرى

وننشق من أرض الحجاز به عطرا

وبالسُّد أوردنا صباحاً ولم نزل

نُديم السُّرى حتى أتينا على البترا

اقترب الركب من المدينة المنورة، فازدادت بهم الأشواق، فغذّوا السير إليها، مشرئبة أعناقهم، خافقة قلوبهم، يسبحون في بحور من دموع الفرح واللهفة والحب، حتى أشرقت أنوارها، وتلألأت أمام عيونهم في صبيحة الثاني والعشرين الغراء، فصعدوا ثنية الوداع ليتمتعوا برؤيتها، وقد تزينت بحلة خضراء من نخلها النضير، وملأت ما بين المشرق والمغرب أنوارها التي أخجلت الشمس، فغاب ضياؤها، ونادى المنادي هذا الرسول، فاندفع الشاعر ومن معه إلى مسجده، ورمَوا أنفسهم عن العيس احتراماً له وإكباراً، وتراكضوا يلهبهم الشوق والحنين، فكيف يقتربون إليه راكبين؟

وقمنا وصبّحنا المدينة بُكرةً

فلله من يوم صبيحته غرّا

صعِدنا على أعلى الثنيّة فانجلَتْ

لنا من نضيد النخل في حُلَّةٍ خضرا

وقد جال بين الشرق والغرب نورها

وغاب ضياء الشمس فيه فما يُدرى

وحنَّ جميع الناس حتّى مطيُّهُم

فكم أنفسٍ تفنى وكم أدمع تُجرى

ونادى منادي القوم هذا ضريحُه

هنيئاً لمن أسرى هنا تُنقذ الأسرى

فلما سمعناه رمينا نفوسنا

عن العيس برًّا للذي علّم البرا

إذا أبصر المشتاق بَرَّ ديارهم

وسار على ظهر المطيِّ فما برّا

وأخيراً حانت لحظة اللقاء الذي طال انتظاره، وفي سبيله أفنى الشاعر ومن معه أكباد الإبل:

وقد أفلح السارون واقترب الرضى
وقيل ادخلوا في كهف رحمته الكبرى
دخلنا فسلّمنا وقمنا اتجاهه
قيامَ كسيرِ القلبِ ينتظر الجَبْرا

وبعد ذلك يمموا وجوههم شطر البيت الحرام طالبين مكة المكرمة، ولم يطيلوا في المدينة مكوثهم، ولم ترتوِ منها أشواقهم، وقد تركوا ذلك لطريق العودة، حتى يصلوا إلى مكة المكرمة وعرفات والمناسك الشريفة في الوقت المناسب قبل الثامن من ذي الحجة يوم التروية:

ولما فرغنا من زيارة كل من
نؤمّل في نقل الخطى نحوه أجرا
رحلنا إلى أم القرى نُعمل السرى
عسى سورةُ الإخلاص في حجنا نقرا

غادر الحجيج مدينة الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة، فاغتسلوا وأحرموا، ولبّوا وصلوا متتبعين سنن الرسول ﷺ، وباتوا في تربان، ثم غادروها إلى الروحاء، وبعدها مروا على وادي الغزالة التي استجارت به ﷺ:

ولما وصلنا ذا الحليفة بعدما
مضت ساعةٌ والركب أجمعُ قد سُرّا
قضوا أرباً من غسلهم وركوعهم
ومن سنن المختار قد تبعوا الإثرا
وبعدُ نضَوا لُبس المخيط وأحرموا
وقد أعلنوا لبيك واجتنبوا الهجرا
فباتوا على تربان وارتحلوا ضحىً
فكنا على الروحاء واليوم قد مرا
وجزنا على وادي الغزالة والثرى
نشم لخير الخلق من طيبه نشرا

ثم باتوا في الصفراء، وساروا بين مياهها وظلالها طيلة يومهم إلى أن وصلوا بدراً، فتذكرالشاعر أحداث تلك المعركة الفاصلة التي غيّرت وجه التاريخ، وذكرها، وأشار إلى تأييد الله لرسوله ﷺ بالملائكة يقودهم جبريل الأمين، وإلى بعض ما كان فيه من معجزاته ﷺ:

وبالقرب للصفراء باتوا فأصبحوا
عليها فدرّتْ سحبُ خيراتها درا
ومدّت لهم جناتُها الخضر ظلّها
فما أنصفوها حين يدعونها الصفرا
وما زال بين الماء والظل سيرُهم
إلى أن تولى يومُهم فرأوا بدرا
وبالعُدْوةِ الدنيا نزلنا بحيث قد
أقام رسول الله ينتظر النصرا

وبعد مبيتهم المبارك في بدر تابعوا سيرهم إلى رملة عالج الخطرة، وتجاوزوها، فنزلوا بطن خبت، ثم غادروه إلى ودّان، ثم إلى رابغ التي هلّ عليهم فيها هلال ذي الحجة، ثم باتوا في البيادر، وفي الغداة مروا على ذات السويق أو قرقرة الكدر، ووصلوا إلى خُليص، وغادروه مسرعين ليبيتوا في ظهر المدرج أو الأبواء حيث توفيت السيدة آمنة بنت وهب والدة الرسول ﷺ، ثم مروا بعسفان صباحاً، وبلغوا المنحنى عصراً، وتابعوا حتى طلع الصبح عليهم في بساتين أبي عروة، فاستراحوا قليلاً، وبعد الظهيرة ساروا تدفعهم أشواقهم إلى أم القرى التي ملأت أطيابها وأطيافها

نفوسهم قبل أن يصلوا إليها:

فلما تعرَّى الصبحُ عن ثوب ليله
رحلْنا وعِقدُ الشهب يُبدي لنا نثرا
إلى أن قطعنا رمل عالج الذي
تظلُّ القطا في قَطْعِ كثبانه حَيْرى
وفي بطن خبت قد نزلنا وفي الدجى
سرَوا وحروف العيس قد كتبت سطرا
وبتنا على وَدّان ثم برابغ
فلاحَ هلالُ الشهرِ للناس وافترا
فسرْنا وبتْنا بالبيادر واغتدَوا
فجازوا على ذات السويق بنا ظهرا
وجاؤوا خُليصاً فارتقَوا وتعجَّلوا
إلى بلد ثقْلُ الخطايا به يُدرا
فباتوا على ظهر المدرَّج واغتدَوا
بعُسفانَ ثم المنحنى نزلوا عصرا
وما صبَّحوا إلا أبا عروة الذي
ترى العين من جناته كلَّ ما سرّا
وبعد زوال الشمس ساروا وشوقُهُم
يحثّهمُ قد شبَّ وَسْط الحشا جمرا
فباتوا على أدنى المساجد منهمُ
وقد نشقوا من طيب أم القرى عطرا

وبعد هذا السير الحثيث أشرقت الشمس عليهم وهم في الحرم المكي، فملأت قلوبهم سعادة وغبطة ونشاطاً، فاغتسلوا بذي طوى (الأبطح) اقتداء بالسنة النبوية الشريفة:

وفي حرم الله اغتدَوا وبذي طوى
قد اغتسلوا كي يتْبعوا السنة الغرا

وأخيرا اكتحلت عيونهم برؤية الكعبة المشرفة، وهم فوق الثنية، فدنوا منها، تدفعهم أشواقهم المضطرمة، وتجذبهم بدائع حسنها المتلألئة، وخاصة الحجر الأسعد، فلثموه، ثم طافوا بها سبعة أشواط، كان ختامها صلاتهم في مقام إبراهيم، ودخلوا خاشعين حِجْر إسماعيل عليهما السلام، والتزموا الملتزم ما بين باب الكعبة والحجر الأسعد حيث تُراق العبرات، وتُقبل الدعوات، وتعلّقوا بأستار الكعبة لائذين بها، ودعوا الله عند ميزابها واستمطروا الرحمات، ثم سعوا بين الصفا والمروة سبعة، وشربوا من زمزم المباركة، وتضلّعوا، لأنها ريٌّ وطعام وبرء:

وإذ صعدوا فوق الثنيّة أشرفوا
على صرة الدنيا لِمن فهم السرا
ولمّا دنَوا من كعبة الله أبصروا
بدائع حسن تُخجل الكاعب البِكرا
فمالوا إلى الركن الشريف وقبّلوا
كما قبّل مشتاق من كاعب ثغرا
فطافوا وختماً بالمقام تركّعوا
وفازوا بأمنٍ بعدما دخلوا الحِجرا
ومُلتَزَم البيت المكرَّم لازموا
وإنْ علِقوا بالستر كان لهم سترا
وقاموا لدى الميزاب يدعّون ربَّهم
وفوق الصفا والَوا لِربِّهمُ الذكْرا
إلى أن وفَوا بالسبع إذا انتهوا
لِمَرْوَتِهم كرّوا لنحْوِ الصفا كرّا
ومن زمزم العذب المذاق تضلّعوا
فما رجعوا إلا وقد شفَوا الصدرا

ثم وصف الشاعر مناسك الحج واحداً واحداً في منى وعرفات والمزدلفة والجمرات والكعبة وصفاً نرى فيه الصدق والإخلاص والدقة، وبعدما أنهى الشاعر

وصحبه مناسك الحج، أدوا سنة العمرة، ثم طافوا طواف الوداع، ورجع كل منهم إلى بلده الذي أتى منه رغم أن أشواقهم لم ترتوِ، ولكنها حكمة من الله بالغة، أشعلت في قلوبهم الحنين إلى أوطانهم وأهليهم، ودفعتهم إلى أن يتعجلوا رحلة الإياب:

فلمّا اعتمرنا ودّعَ الركبُ راحلا

فذا آيبٌ يبغي الشآم وذا مصرا

وما تقتضي أشواقُهم أن يغادروا

ولكنْ قضى ربُّ العرش ذلك الأمرا

وما هي إلا حكمة الله كلما

قضوا حجَّهم حثّوا لأوطانهم طرا

وبعد ذلك حث ابن جابر المؤمنين كافة لزيارتها وزيارة الرسول ﷺ ومدينته المنورة ليفوزا الفوز العظيم:

فمن لم يشدَّ الأُزْرَ في قصد بلدة

بَدا المصطفى منها فبالنفس قد أزرى

زيارة خير المرسلين براءةٌ

لدى الحشر من نارٍ قد التهبتْ حَرّا

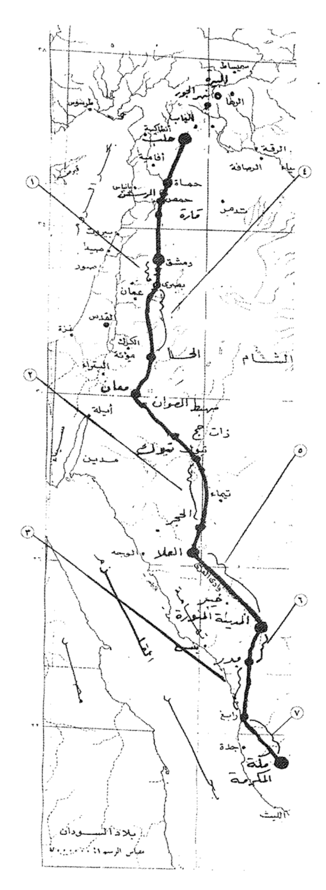
وبعدُ، فقد استغرقت الرحلة من منطلقها إلى مكة المكرمة غايتها الأخيرة ثلاثة أشهر وثمانية أيام، بدأت من اليوم الأخير من شعبان إلى السابع من ذي الحجة. فإذا أضفنا مثلها لطريق العودة مع مدة أداء مناسك الحج والعمرة والزيارة، وصلنا إلى أن رحلة الحج الحلبية آنذاك كانت تستغرق سبعة أشهر أو ثمانية.

وتتبع ابن جابر في قصيدته هذه رحلة قوافل الحج من حلب الشهباء، بل من البيرة، إلى مكة المكرمة تتبعاً دقيقاً، أمكنةً وأزمنةً، لذا نستطيع أن نعدها نوعاً من أدب الرحلات، أو الأدب الجغرافي يمكن أن تضاف إلى رحلات ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم.

وأتت قيمتها الجغرافية من أنها ذكرت عدداً كبيراً من الأماكن زادت عن السبعين، منها ما ذكرته كتب الجغرافية القديمة والحديثة، مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، والمغانم المطابة في معالم طابة للفيروزأبادي، والروض المعطار للحميري، وصفة جزيرة العرب للهمداني، ودررالفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة للجزيري، وأطلس تاريخ الإسلام لحسين مؤنس، ومعجم معالم الحجاز للبلادي، والمعجم الجغرافي للبلاد السعودية لحمد الجاسر، وأطلس التاريخ العربي الإسلامي لشوقي أبي خليل وغيرها.

ومنها ما لم تذكره، مثل دير خليف والبتراء (غير البتراء المعروفة الواقعة في الآن في الأردن) وغيرهما، وذلك لتغيّر أسمائها أو اندثارها. ولولا هذه القصيدة وأمثالها مما يمكن أن نسميه الأدب الجغرافي، نثراً وشعراً، لضاعت في غيابة النسيان. ورغم عدم وجودها في كتب الجغرافية التي تحدد موقعها، فإن معرفة موقعها ممكن، يسهّله سياق القصيدة وتسلسل الأماكن فيها، وما كان قبلها وبعدها من مواضع ذكرتها كتب الجغرافية. ولا يعني ما تقدم أننا نعدّ الشاعر معصوماً عن الخطأ والنسيان، لذلك فإن الأمر مفتوح لأي جديد يقدمه البحث العلمي في هذا المجال. وصف الشاعر المواقع التي ذكرها من مدن ومفازات وسهول وغيرها، وأبدى رأيه

فيها مثل حلب ودمشق. وهكذا نستطيع أن نعدّ هذه القصيدة فريدة في بابها■



الحواشي

(١) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء١٢٢، أحمد فوزي الهيب، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦

(٢) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٨٠.٧٨/٥، محمد راغب الطباخ، دار القلم العربي، حلب ١٩٨٨

(٣) المصدر نفسه ٧٩/٥

(٤) العصر المماليكي في مصروالشام ١٢٤ وما بعدها، عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٩م

(٥) وردت القصيدة كاملة في ديوان (نظم العقدين في مدح سيد الكونين) لابن جابر، ص ٢٤٨ . ٢٦٤، ت أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين، دمشق ٢٠٠٥

(٦) لم نعرِّف بالأماكن الواردة في القصيدة على كثرتها، لأننا اكتفينا بالخارطة المرفقة آخر البحث والتي تضمنتها جميعها مسلسلة تخفيفاً منا على القارئ، ومراعاة لضرورات النشر.

(٧) أي المدينة المنورة.

يمثل الشكل المجاور طريق الحج الحلبي زمن المماليك، كما وصفه ابن جابر الأندلسي نزيل حلب، أطلس تاريخ الإسلام ص٥٨، بتصرُّف - د. حسين مؤنس.

١- محجة زُرع - دير خُليف.

٢- وادي الأخيضر الصافي - ماء المعظم - ماء الجنيب - ثمد الروم - مبوك الناقة.

٣- رملة عالج - بطن خبت - ودّان.

٤- دير بحيرا - تيماء - الثنية - الزرقاء - سمتات - زيزا.

٥- ماء الشعب - وادي هدية - السوداء - وادي العظام - الفحلتين - وادي القرى - السد - البتراء - الثنية.

٦- ذو الحليفة - ثربان - الروحاء - وادي الغزالة - الصفراء.

٧- البيادر - ذات السويق - خليص - ظهر المدرّج - عسفان - المنحنى - أبو فروة.

الأديرة

في شعر ابن الخطيب الأندلسي

عبد السلام الراغب*

"أدب الأديرة" لونٌ جديدٌ من ألوان الشعر العربي، له أهميته في الدلالة على الجوّ الثقافي المتنوّع، والعلاقات الإنسانية الحميمة لأفراد المجتمع الواحد، في ظلّ حضارتنا الإنسانية السامية. وقد شاع هذا الأدب في العصر العباسي خاصّة، لأسباب سياسية واجتماعية وثقافية، فكان الشعراء كأبي نواس والثرواني والسريّ الرفّاء، والصنوبري، وجحظة البرمكي وغيرهم، يقصدون الأديرة طلباً للتنزه والشراب والمتعة، وقد أنشدوا فيها الأشعار الرقيقة العذبة التي صوروا فيها جمال عمارتها، وحسن موقعها، وطبيعتها النضرة، كما صوروا خمرتها المعتّقة، وأعيادها، ورهبانها، وراهباتها، وتصاويرها، وقرع نواقيسها، وأنغام تقديسها كما عبروا فيها عن شوقهم إليها كلّما ابتعدوا عنها.

وقد جمعت هذه الأشعار لغزارتها في كتب خاصة حملت اسم "الديارات" و"الدّيرة" و"الأديرة" وفي مقدّمة من جمعها "الأصفهانيّ" صاحب الأغاني، و"السريُّ الرفّاء" الشاعر المعروف، و"الخالديّان" شاعرا سيف الدولة، و"الشابشتي" صاحب خزانة كتب العزيز بمصر. ولكن للأسف كلها فقدت ولم يصل إلينا منها إلا كتاب الشابشتي في الديارات وهو غير كامل[1].

وابن الخطيب الأندلسي أحد هؤلاء الشعراء الذين تحدثوا عن الأديرة ولكن حديثه عنها يتجه اتجاهين مختلفين، اتجاه الصوفي، واتجاه النُّواسيّ وشتان بين الاتجاهين في الوسيلة والغاية والنموذج.

ونبدأ بالاتجاه الأول الصوفي، فقد استطاع هذا الشاعر الموهوب أن يستوحي أجواء الأديرة الدينية وطقوسها ورموزها، ويحملها تجربته "الصوفية" بما فيها أيضاً من رموز ومصطلحات مجسداً

---

* مدرّس في جامعة حلب - كلية الآداب (قسم اللغة العربية)

١- كتاب الديارات للشابشتي: ص ٣٦- ٤٨.

بذلك "المثاقفة" الحقيقية البناءة بين الحضارات والأديان. فكان شعره فيها من نتاج "تلك المثاقفة" الإيجابية في مذاقاتها ورموزها العميقة، وهي مثاقفة لم تلغ هويته وانتماءه وإنما غذّتهما، بهذه الروافد الجديدة التي عمّقت من شعوره الصوفي وفكره الأصيل، وتجربته الشعرية الفنية، فكان أن اجتمعت فيه هذه الثنائيات "العجيبة التي تبدو متباعدة متنافرة في ظاهرها، ولكنّها في حقيقتها متلاحمة متكاملة، كالتصوف والحياة والثقافة والسياسة، و"الأنا والآخر" وكانت "الصوفية" هي المميزة له والتي طبعت تراثه الفكري والشعري، وسواء أكانت هذه الصوفية صوفية فكرية نظرية جارى بها عصره الذي يموج بأفكار ابن عربي وغيره أم صوفية حقيقية طبعت فكره وشعره وحددت سلوكه وطريقه فصار واحداً من المتصوفة يسلك طريقهم ويستخدم رموزهم ولا سيما في شعر الأديرة الذي مزج فيه "رموز الصوفية" بـ"رمزية الأديرة" وطقوسها.

ولا غرابة في ذلك، لأن "النزعة العرفانية" قديمة في التاريخ الإنساني، تسبق التصوف الإسلامي بل تسبق الرهبنة المسيحية أيضاً.

ويذكر محمد عابد الجابري في كتابه "بنية العقل العربي" أن "العرفان" كان نظاماً معرفياً ساد في "العصر الهلنستي" امتد من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن السابع بعد الميلاد بعد ظهور الإسلام وانتشار الفتوحات، وقد شهد هذا العصر ردة فعل قوية ضد العقلانية اليونانية فصار العرفان نظاماً معرفياً في اكتساب المعرفة عن طريق الإلهام أو الكشف، وانتقل هذا النظام العرفاني إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام[٢].

ومذاهب العرفان وإن تعددت وتنوّعت وفقاً للخصوصية الثقافية لكل مذهب لكنها تلتقي في نظام معرفي واحد يعنى بالباطن على حساب الظاهر ويمثل "موقفاً" من العالم الحسي يستند إلى "رؤية" فلسفية.

فالعرفاني يشعر بالغربة عن العالم، لأن طبيعته تختلف عنه، فهو جوهر، والعالم "عرض" ولكنّ "الخطيئة" جعلته في قبضة العالم، وأنّ عليه أن يتحرّر من قيوده وأسره، ليرجع من حيث أتى من عالم "الجوهر" والخلود، فيبدأ بتجميع نفسه وفق مجاهدات روحية ورياضات ليخرجها من "سجنها" الجسدي لتعود إلى أصلها السماوي عندئذ تتم لحظة "الفناء" أو اتحاد العاشق بالمعشوق، ويعود "الجوهر" إلى أصله السماوي، و"العرض" إلى أصله الأرضي وفكرة "الأديرة" لا تخرج عن هذا الإطار العرفاني، فقد نشأت من أجل تخليص النفس من الخطيئة وفق نظام شديد قاسٍ لإطلاقها من قيود الجسد وأسره.

ويجمع المؤرخون المسيحيون أن مصر هي الموطن الأول للرهبنة ويعدون "القديس أنطونيوس" أب الرهبان، ويرجعون ذلك إلى مكانة الاسكندرية في العالم القديم إذْ كانت تعتبر المركز الثاني للفكر المسيحي بعد بيت المقدس[٣]. وإن كان كرد علي يرى أن بلاد الشام هي

٢- بنية العقل العربي للجابري: ص ٢٥٢- ٢٥٣,

٣- تاريخ العالم لهامرتن: ٢٩٥/٤.

الموطن الأول لها [٤].

وقد بدأ "أنطونيوس" نظام الرهبنة الفردية، ثم سمح لتلاميذه أن يقيموا لهم صوامع بالقرب منه، ثم عاد وتركهم، ليعيش متنسّكاً متوحّداً.

ثم جاء القديس "باخوميوس" فوضع أسس الرهبنة المشتركة ونظامها، وأنشأ الأديرة من أجل ذلك، ثم جاء القديس "باسيليوس" فطوّر هذه الأنظمة، وما زالت إلى الآن [٥].

وقد عنيت الأديرة بـ "صناعة الخمرة" وتعتيقها، لدخولها في فلسفة العرفان عندهم، والأسرار المقدسة للكنيسة إذ غدت الخمرة في العشاء الرباني رمزاً لدم السيد المسيح عليه السلام كما ورد ذلك في الإصحاح "السادس والعشرين من إنجيل متّى".

وبذلك لم تعد "خمرة الديارات" خمرة حسية فحسب بل غدت رمزاً من رموز المسيحية، وسراً من أسرار الكنيسة يحرصون على صناعتها وتعتيقها والعناية بها حتى تكون في المستوى اللائق للعشاء الرباني عندهم.

لذا أقبل الرهبان على زراعة الكرمة حول أديرتهم، واتخذوا المعاصر لها، ولعلّ عنايتهم بزراعة الكرمة يرجع إلى قول المسيح أيضاً "أنا الكرمة وأنتم الأغصان" [٦].

ويبدو أن ابن الخطيب كان يختزن في ذهنه هذه الرموز المسيحية وطقوسها، والرموز الصوفية ومصطلحاتها، فأراد أن يتّخذ من هذه "الرموز" وسيلة للتعبير عن تجربته الصوفية التي تجاوز فيها "الظاهر المدرك" إلى "الباطن غير المدرك" ولا يكون ذلك بوجود "العقل" لأنه حجاب برأيهم، يمنع من الاتصال بالله أو أنه يحجبه كما يقولون عن معرفته معرفة اليقين، لذا كانت "الخمرة" كرمز توحي بغيابه أو غياب "الحسي" والتحرر من قيوده، للوصول إلى "المعنوي" والسكر في حقيقته وبالتالي يقوم الصوفي: " بقطع كل علاقة مع العالم والاتجاه فقط نحو الإله الأحد، وهو في مجاهداته ورياضاته يريد أن يصل إلى حالة يصبح فيها هوية مطلقة أي ذاتاً بدون صفات، حالة تصبح معها بنية فكرته عن نفسه في صورة ١/صفر التي تساوي اللانهاية هنا في هذه اللحظة تتراءى له المشابهة في العلاقة بين بنية فكرته عن الله القائمة على الأحدية، وبنية فكرته القائمة على الأحدية فيطابق بين البنيتين و"يشطح" ويصيح "أنا الله" فيقول بالاتحاد إذا كانت فكرته عن أحدية الله أقوى عنده أو "بالحلول" حلول الله فيه إذا كانت بنية فكرته عن أحديته هي الأقوى عنده" انتهى كلام الجابري [٧].

ونحن نرى هذه الرمزية الصوفية بكل أبعادها ونماذجها في قصيدته الجيمية [٨] التي يبدؤها بقوله:

هبَّ النسيم معطر الأراج
فشفى لواعج قلبيَ المهتاج
واـ يحدّث عن أحبتي الألى
أصبحت أكني عنهم وأحاجي
فاشربْ على ذكر الحبيب وسقني
صهباء تُشرق في الظلام الداجي
من خمرة السرِّ المقدسة التي
كلفت بطاستها يدُ الحلاّج

٤- خطط الشام: ٦/٤-٥.
٥- تاريخ الكنيسة ألبير أبونا: ١/١٧٢- ١٧٣.
٦- الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنّا
٧- بنية العقل: ص ٣١٤.
٨- ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام: ص ٣٤٨- ٣٥١.

وأرتْ له الأشياء شيئاً واحداً
فغدا يخاطب نفسه ويناجي
تلتاح بين مخارم وفجاج
ورأى ابنُ أدهم لمحةً من نورها
فغدا ومن صوف الصفاء شعارُه
واعتاضه من لبسة الديباج

فهو يتحدث هنا عن "خمرة روحية" أو "خمرة الحقيقة" وهي مختلفة عن "الخمرة الحسية" في جوّ شربها وأثرها في شاربها، فهي تشرب على ذكر الحبيب، كما شربها "ابن الفارض" وسكر بها من قبل أن يخلق الكرم، وشربها "الحلاج" فجعلته يرى الأشياء شيئاً واحداً ويقول بوحدة الوجود "ونلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات يبرز نموذجين ومقامين لأثر الخمرة الإلهية على تعبير المتصوفة فهي أوصلت "الحلاج" إلى الفناء والاتصال بوحدة الوجود، كما جعلت ابن الأدهم يعتزل الملك ولذة الدنيا إلى خشن الثياب وارتياد الصحاري والقفار، ويتضح الفارق بين "مقامين" "مقام الذوق" و"مقام الرؤية" ذوق يحقّق الامتزاج والاتحاد، ورؤية تحقق الغيبوبة والهيام والغريب أن ابن الخطيب يقول في شعره حول "وحدة الوجود" مالا يقوله في نثره في كتابه "روضة التعريف" من نقد لها.

ويبدو -كما يقول الدكتور عصام قصبجي في كتابه القيّم عن ابن الخطيب - " أنه كان يلتمس العذر أحياناً للقائلين بوحدة الوجود على الرغم من إنكاره لمذهبهم، وذلك لشعوره الخفي أن الفرق بين جوهر مذهبهم وبين مقام الفناء إنما هو فرق دقيق يتعذر تحديده"[٩].

ويصور الشاعر ابن الخطيب هيامه بتلك الخمرة المقدسة، معتقداً نجاته وخلاصه فيها، فراح يطلبها بذلة وانكسار من راهب الدير، وحين رأى صدقه وحاله وافتقاره، كشف له الحجاب فأراه الراح وسقاه إياها بزجاجة من غير مدامة ومدامة من غير زجاجة من شدة صفائها وجلائها ثم أمره بشربها جهاراً مصرّحاً بما عرف من حقيقة الوجود.

وقد استعار لهذه المعاني رموز الخمرة والدير بأسلوب حواريّ شيق بينه وبين الراهب يقول:

وبحثتُ عنها خمرةً لمّا تزلْ
سبب النجاة لطالب أو راج
لما علمت مكانها وزمانها
أعملت في ليل السرى إدلاجي
وأتيت ربَّ الدير في محرابه
فبثثت إفلاسي إليه وحاجِ
ناديته مترحّماً والليل قد
رجعت كتائبه على الأدراج
مالي سواك فلا تخيّبْ مقصدي
ما خاب فيك رجاء عبدٍ راجِ
ومددت كفّ الفقر أسأله فيا
عزَّ الغنيّ وذلّةَ المحتاج
فرأى افتقاري في يديه فجاد لي
من جوده بالوابل الثجّاج
وأحلّني من ديره في هضبة
تنحط عنها الشهبُ في الأبراج
وجلا عليّ الراحَ في أكواسها
فشربتها صرفاً بغير مزاج
فترى زجاجتها بغير مدامة
وترى مدامتها بغير زجاج
والى عليَّ بها وقال هي التي
فيها سمحتُ بخيّرِ النسّاج
فاشربْ وبُحْ باسمي جهاراً لا تخفْ
في الدير من نصب ولا إحراج

٩- لسان الدين ابن الخطيب: ص ١٢٢.

وحـين يصـل الشـاعر إلى مقـام "الغيبوبة" في العالم العلوي، راح يطلب من صاحبيه أن يعوجا على طلل الوجود، وينقلا سلامه إلى إخوانه الصوفية الذين يقفون على أبواب اليقين والذين يعيشون في رحاب ملك تقي أحيا مذهب الصوفية وطريقتهم يقول:

يا صاحبيّ وما أرى لي صاحباً
غيري أعاطيه الهوى وأناجي
عوجا على طلل الوجود وبلغا
عني السلام فلات حين مَعاج
لله إخوان الصفاء فإنهم
سلكوا الطريق الواضح المنهاج
وقفوا بأبواب اليقين وفتّحوا
ماكان منها قبلُ ذا إرتاجِ
حتى إذا كادت سمات طريقهم
تخفى بكل مموّه ومُداجِ
نادتْ هلموا جددوا عهد الرضا
أيام مولانا أبي الحجاجِ
أحيا الإله به رسوم طريقهم
وحماهم من ملكه بسياجِ
فاستقبلوا داعي المقام كأنّما
أتت المقام ركائبُ الحجّاجِ

وهكـذا يختـم قصيدتـه الصوفيـة بمديح استغرق ثلاثة عشر بيتاً.

ويحار المرء في صدق هذه الرمزية الصوفيـة وإيحاءاتهـا، إذ ختمـت بهـذا المديـح المطـوَّل لأن موقـف الصـوفي يختلف عن موقف السياسي من المحيط حوله، لكن علينا أن نفرّق بين صوفي كابن الفارض وجد في الشعر تعبيراً عن تجربته وشعوره، وبين شاعر كابن الخطيب وجد في التصوف تعبيراً عن موقفه وحاجاته.

وفي قصيدة أخرى تغني ابن الخطيب بخمرة الدير محمـلا إياهـا مصطلحاته الصوفية فصوّر رحلته الشاقة التي قطع فيها ظلمة الطريق مع صحبه السكارى بحثاً عن الحقيقة يدفعهم الوجد والاشتياق إليها فهاموا في بوارق الجلال والجمال سكارى بين قبض وبسط وأفنوا ذواتهم وحواسهم في مدبرِ الوجود وموجبه فخطبوا الحقيقة عروساً وأماتوا النفوس الكبار مهوراً من أجلها، فظفروا بلذة شربها في نهاية المطاف، تلك الخمرة التي سكر بها قوم فاهتدى من اهتدى إليها وضل آخرون فوقع اليهود في التجسيم والنصارى في "التثليث" بينما الصوفية وابن الخطيب منهم فإنهم اهتدوا إلى الفناء في حقيقة الوجود ناسين أنفسهم وذواتهم يقول ابن الخطيب:

ودير قطعت إليه الفلا
وجبت الدجى وركبت البحارا
ونادمت من أهله فتية
تراهم سكارى وما هم بسكارى
وطرنا إلى الراح فيها ارتياحا
ومن هزه الوجد والشوق طارا
ولاحت لهم خطفات البرو
ق تلوح مراراً وتخفى مرارا
يعارض فيها الجلال الجما
ل فهم بين قبضٍ وبسطٍ حيارى
زعقنا براهبه زعقة وقلنا
مددنا الأكف افتقارا
ومن أجل خمرك جبنا الفلا
وخضنا الدجى وقطعنا القفارا
فقال وما مهرها عندكم
فقلت أمتنا النفوس الكبارا

إلى أن يقول:

وغبنا فلم ندر من أمرنا
سوى أننا قد غلبنا اضطرارا

فالشاعر يستفيد من رمزية خمرة الديارات ودلالتها الدينية على دم المسيح

ويتخذها هو أيضاً رمزاً لخمرته الروحية مورداً مصطلحات الصوفية الدالة عليها وقد كشفت هذه الرموز مدى التعطش الروحي له وسعيه لإرواء نفسه من شراب الحقيقة وفنائه فيها على طريقة الصوفية في سعيهم المستمر لتحقيق غاية وجودهم في (الفناء) في هذا الوجود.

ولكن الشاعر أحياناً كان يتجه في شعر الأديرة منحى أبي نواس في فحشه ومجونه فيقصد الدير من أجل خمرته المعتقة وينكر عليه الراهب رغبته في شرب الخمرة المحرمة ولكنه يصر عليه بتهتك ومجون قائلا:

فقلت دع الإنكار إنا عصابة
يطيعون فيما تشتهي النفس إبليسا

كما أنه في قصيدة أخرى لا تختلف عن هذه القصيدة السابقة في مضمونها الماجن يرد على إنكار الراهب معتداً بنفسه وصحبه مبادراً إلى السجود عند فض ختمها يقول:

بدرنا بها طين الختام بسجدة
أردنا بها تجديد حسرة إبليس

ثمة فارق كبير بين هذا الشعر وذاك بين شعر صوفي وشعر ماجن، بين شعر يروي ظمأه الروحي فيه، وآخر يطفئ شهوة الحس والرغبة.

ونتساءل أيهما أقرب إلى الحقيقة في تصوير شخصية ابن الخطيب؟ أهو شعره الصوفي الرمزي أم شعره الحسي المباشر وهل ثمة تعارض بين الروحي والحسي في شعره أم أنهما يمتحيان من قلق نفسي شديد اتخذ له شكلاً روحياً مرة وشكلاً حسياً مرة أخرى.

وهل يمكن أن نعدّ شعره الصوفي يمثل مرحلة متأخرة من حياته حين أفل مجده السياسي وفقد ماله ونفوذه وجاهه، ونعدّ شعره الآخر الماجن، يمثل مرحلة أخرى سابقة في ظل السياسة والمال والنفوذ.

أسئلة كثيرة يمكن أن تثار في الذهن لفهم هذه الشخصية المتنوعة في مواهبها وإنتاجها الثقافي والمحيرة في الوقت نفسه.

يغلب على الظن أن نزوعه الصوفي أصيل فيه منذ وقت مبكر حين كان يتمتع بالسلطة والنفوذ إذ أن السياسة لم تطمس هذا الشعور النقي في داخله وهذا ما تؤكده رسائله المتوالية لأصدقائه وخاصة ابن خلدون يصور فيها رغبته في الزهد والاعتزال وترك السياسة وضجره منها..

كذلك ما نلاحظ على شعره الصوفي من عفوية وصدق وحرارة تنمّ على صدق شعوره وقوة عاطفته الدينية بينما لا نرى ذلك في شعره الماجن الذي غلب عليه التكلف في التعبير والتصوير مما يشي برغبته في تقليد أبي نواس في هذا الاتجاه دون أن يكون له رصيد نفسي أو شعوري.

وهكذا تغدو (الصوفية) حقيقة ملموسة في أدبه وحياته فغدا أدبه مجلى لروحه وفكره كما غدا مرآة لعصره المتنوع بالثقافات والحضارات ولا سيما فكر ابن عربي وفلسفته الصوفية.

حقاً إن ابن الخطيب يعدّ أنموذجاً لعصره المضطرب في أزمته الروحية وقلقه النفسي، وموقفه المتصلّب عصر غروب مجد غرناطة وما أحاط بها من فتن وحروب كان موت الشاعر حرقاً بعيداً عن وطنه يمثل مأساة الأزمة وأزمة المأساة على مرّ العصور ويؤذن بدنوّ ساعة الغروب عن ذلك الفردوس المفقود.. الأندلس.■

البيت...؟!

سعد الدّين كُليب *

مـن ذا يُعيد الطفلَ للبيتِ القديمِ
يردّ أُلفتَه عليه
وغِبطةً
كانت تطارحه الغرامْ
مـن ذا يُعيد الطفل
يرتق حبله السـرّيَّ
يسـقي وجهه برذاذ دالية
وأضلعه بترتيل اليمـامْ
من ذا يعلّق خرزة زرقاء
في مريوله البنيِّ
يتلو آية الكرسيِّ
كي يُشفى من الحمَّى
يسرّح شَعره بدموع فرحتِه
ويدعو الربَّ:
يُعمي أعين الظُّلاَّم عنه
يُميط عن دمه الغشاوة
واللئـامْ
مـن ذا يعيد الطفل للبيت القديمْ
بيتٌ بحجم القلب
لا نافورةٌ تلهو

* رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب.

ولا أرجوحةٌ
لا زخرفٌ يحبو على الأبوابِ
عاريةٌ هي الجدرانٍ
إلا أحرفاً معقوفةً
تزهو بإسم الله
واسم نبيِّه الأمّيِّ
تحرس صورةً للوالد المطحون
بالعيش الزؤامْ
بيتٌ تخاصره البيوتُ
تُطلُّ من ولَه
ومن تعبٍ عليه
ترشّ في أنحائه فيئاً
... ويسكب قلبه
في حزنها العالي
تطلّ عليه مئذنةٌ
يرفُّ هلالها ويبوحُ
مئذنةٌ.. يسامرها
وتملؤه بأخلاق الحمامْ
بيتٌ بحجم القلب
ثديُ الأمّ قبّته
وزخرفه أغاني الروحِ
زقزقة الصغار..
ولمسة النعمى
... هو الولَه الظليلُ
بلاغة الشرف العصيّ
محارة الرؤيا
ومحراب الغمامْ
من ذا يُعيد الطفل..
للبيت الحرامْ.

الأنفاس الأخيرة

خطيب بدلة*

أنا لم تكن لي علاقة بما جرى. أقسم. وكذلك اخوتي سلطان وعثمان ورمضان، لم تكن لنا علاقة. أمي هي التي اقترحت، قل فرضت الأمر.

إنها أم، أم.. لو كانت زوجةَ أيّ منا لمسحنا بطلبها الأرض.

ومع ذلك عارضت الزوجات: أخي سلطان حكى لي -فيما بعد- أن زوجته جعلته يمضي ليلة مثل قفا الدست[1]، عثمان ورمضان حكيا لي أشياء من هذا القبيل، أما حاسوبة آه يا حاسوبة (لقبت زوجتي حاسوبة لبراعتها في الحساب) فقد عملت لي، بعد أن تخصَّرتْ وزمَّتْ حاجبيها وقلبتْ شفتها ونفخت، محاضرةً ما لها آخر (بلغة الأرقام طبعًا):

- نعم حبيبي؟ خمسمية ليرة؟ ومن أين نجيء بها؟ آ؟ وافرض أننا نملك هذا المبلغ، مَن الأحقُّ به؟ نحن أم بائعو الثيران؟ ماذا اشتريت للأولاد على العيد؟ كم بلغت ديوننا؟ ولماذا نضيف عليها خمسمية ليرة؟ وهل مَن يُضرَبُ بالعصي كمن يعد الضربات؟ وكم.. وهل.. وكيف.. وكيف لا..؟؟؟

لم أرد. وماذا أقول لها؟ أنا قلت الكلام نفسه لأمي. فاوضتُها إلى آخر نَفَس. قلت: طيب، نوزع كم ليرة عن روحه، نستقيل من هَمِّ الذبح والسلخ والفرم ورائحة الأحشاء والمناظر المقرفة.. نستريح من هذا أعطيناه فقال (مُدهنة) وذاك أعطيناه فقال (قليلة) وذياك لم نعطه فزعل، وتلك نسيناها فبكت.. قالت: لا. قلت: لا بأس، نشتري خروفًا، نحن أربعة، كل واحد يدفع مية ليرة ونشتري خروفًا. قالت: لا، الخروف يركبه الميت يوم القيامة وحده، أما الثور فتركبه الأسرة كلها!!

---

* قاصّ ساخر، صدر له العديد من المجموعات القصصية.

١- الدست قدر كبير يستخدم للطهي بالحطب، قفاه شديد السواد

في البداية كانت تحدثنا بلطف. استدعتنا إلى بيتها قبل العيد بثلاثة أيام.

قالت: سنذبح لأبيكم ثورًا. ما رأيكم؟ ليمد كل واحد منكم يده إلى جيبه ويناولني خمسمية ليرة.

ضحكنا. كان يجب ألا نضحك احترامًا لها، ولروح المرحوم على الأقل. لكننا ضحكنا، لم نتمالك أنفسنا.. اغتاظت فقلت لها إننا نضحك على عثمان الذي رجفتْ يدُه فكب الشاي على ثيابه. وشرح سلطان أن ذلك يجيء بفعل الصدمة، لأننا، وحلف بالطلاق نيابة عنا، لا نملك، مجتمعين، عشر ليرات!!

قالت: ليكن! دبروا، اقترضوا، اسرقوا، اشحدوا.. أبوكم صرف دم قلبه حتى أنشأكم ورباكم وعلمكم، فصرتم- بلا قافية- أساتذة.. وها أنتم تستكثرون عليه بعد تسع سنوات من موته، أضحية. لكن من أين يا حسرة؟ لقد جعلتكم زوجاتُكم تحلجون على ديك[2]، كل واحدة قفاها مثل دسكا الصرماياتي[3] وفمها مثل دلو الطاحون فمن أين ستتوفر لواحدكم خمسمية ليرة؟

أنزلنا رؤوسنا إلى الأرض. قلت لك إنها أمنا. قلنا لها: أمرك، ندبر. ودبرنا فعلاً، واشترينا ثورًا.

وهنا لب المشكلة: الثور.

وضعنا الثور في الحوش. كان ثورًا أشهب وسيمًا وسمينًا ووديعًا كنعجة. بقي في الحوش ثلاثة أيام، يأكل ويشرب وينام ويروِّث بالقناطير. وكان أخي رمضان يداعبه قائلاً:

- كُلْ حبيبي، كُل، فالصباح رباح!!

السيدة الوالدة انبسطت على الآخر، صارت تتفقد الثور كل ساعتين وتعود راضية.

- الله يرضى عليكم يا أولاد.

وعلى الجبَّانة[4]، أول يوم العيد، لفت شاهدة القبر وبكت. قالت لأبي: إرضَ عليهم يا أبو سلطان، ظروفهم صعبة.

فرضي أبي علينا. قالت أمي إنها متأكدة من ذلك. فتمتم أخي عثمان: هي أدرى بزوجها!

نزلنا من الجَبَّانة إلى بيت الوالدة. هكذا تعودنا كل عيد. تناولنا الإفطار، بُسنا يدها نحن والأولاد، وشربنا الشاي.

- والآن، شوفوا لنا قصابًا يذبح الثور. قالت.

نط أخي عثمان من مكانه:

- لحظات وآتيكم بأبي حمَّادة، فاشحذوا أسنانكم يا أيها الجائعون الأبديون!

٢- (كناية عن ضعف الحال، فالمفروض أن يحلج الإنسان قطنه على بغل مثلاً.)

٣- الدسكا قاعدة خشبية مدورة وعريضة يستخدمها مصلحو الأحذية.

٤- هي المقبرة، وفي حلب يسمونها البرية، وفي القرى يسمونها التربة، وأما المسيحيون فيسمونها "الجبانة"، والغريب في الأمر أن أهل معرتمصرين يسمونها الجبانة، مع أن نسبة المسيحيين فيها لا تذكر، وقد وجدوا فيها على نحو متأخر جداً.

خرج. وبقينا نحن عند الوالدة، وعندما عاد عثمان وأبلغنا أن أبا حمَّادة القصاب سيجيء بعد صلاة الظهر طفرت من عينها وأشاحت.

❖ ❖ ❖

في اللحظة التي ابتدأ المؤذن بالتكبير، بعد أذان الظهر، قامت قيامة الحيوان. كنا ننتظر مجيء القصاب حينما ارتفع الصياح من جهة الزقاق. لم نفهم شيئًا سوى كلمة كانت الأصواتُ تختلط بها: يا لطيف!

اندفعنا خارج البيت، ركضنا مع الراكضين.

بدأت ثورتُه بالباب. باب الحوش مصنوع من الزان القديم ومغلف بالتنك والمسامير الفولاذية. الضربة الأولى، الثانية، الثالثة.. الباب انقلع.

خرج الثور من الحوش، ضرب الأرض برأسه، وقف على قائمتيه الخلفيتين. هذه أول مرة في حياتي أرى فيها ثورًا يشب ويتعاطى هكذا. الناس ابتعدوا من طريقه.. التصقوا بالجدران، وهو يركض..

طلع من زقاق (أبو حنوف) إلى زقاق (البظ)، إلى زاروب الطاحون، إلى الشارع الرئيسي باتجاه الثانوية الصناعية وعمارة (أبو رستم)،.. ثم غل في زاروب (أوسو) باتجاه (زقاق القباني) الذي يؤدي إلى (مقهى القصر)[٥].. ثم انفلت في السوق.

دار في ساحة السوق دورات. ضرب الأرض والجدران والبسطات بذيله. بعدها وقف قبالة باب المسجد. ونحن وراءه، والأولاد، والقصابون.. كل قصابي السوق استلوا سكاكينهم ووقفوا حوله في استعداد.

ظننت في لحظة أنه سيدخل الجامع. لكنه لم يفعل. تقدم عدة مرات ثم تقهقر. حمى ظهره بالجدار وهو يتراجع حتى أتاح للمصلين الخروج. صار المصلون يخرجون على هيئة رتل متقطع وينزلون شرقًا.. وأخيرًا ظهر أبو حمَّادة، فنط الثور في الهواء حتى حسبناه قد طار.. وانهمر فوقه.

أول نطحة في صدره، وقع الرجل، تلوى، تدحرج، انقلب على قفاه.. والثور يضرب يضرب يضرب.. ظل يضرب حتى.. لا حول ولا قوة إلا بالله!!

عندها رفع الثور رأسه إلى الأعلى وراح ينخر ويلهث.. أستطيع أن أقول لك إنه عاد إلى حالته الأولى..

عندئذ، وبهدوء وثقة، وبثقة وهدوء، تقدم منه القصابون، و...■

---

٥ الأماكن في مدينة معرتمصرين بمحافظة إدلب.

جذور علم التنجيم

ندى الدانا*

يعدّ علم التنجيم أقدم العلوم الخفية، وهو أكثر العلوم القديمة غموضا وألغازا، وقد انبثق منه علم الفلك وحساب الزمن والرياضيات وعلوم الأدوية والطب والكيمياء، ومازال هذا العلم راسخا على المستوى الشعبي حتى الآن.

ويعد علم التنجيم السلف المباشر لعلم الفلك، وهناك أسطورة قديمة تنص على أن آدم تسلم أسرار علم النجوم والعلوم السياسية مباشرة من الخالق، وانتقل هذا العلم إلى أولاد آدم، وأخذ شيتا العلم من أبيه آدم، وكذلك هابيل وقابيل ونوح،



وأخذ إبراهيم علم النجوم عن الكلدان، وجلب هذا العلم إلى مصر ثم انتشر فيما بعد في بلاد الإغريق، ثم روما، والغرب، وقد كان قدماء كهنة مصر على علم واسع بالنجوم، وأول من أتى بعلم النجوم من بلاد

* مهندسة، تكتب القصة.

الرافدين هو الحكيم (أمحو تب) وزير فرعون مصر زوسر عام/٢٦٧٠/ ق.م، وهو الذي هندس وبنى هرم سقارة المدرج، وهو أول هرم بني في مصر، وأصبح أمحو تب أبو جميع العلوم السرية التنجيمية والطبية والهندسية، وقد ألهه قدماء المصريين ودعوه ابن العلي (حورموس)، وهو المسمى هرمس الحكيم، وهرمس مثلث العظمة (هرمس تريسماجستوس).

ولم يزل الأصل الحقيقي لعلم التنجيم حتى أيامنا الحاضرة غامضا يحوطه كثير من الأسرار.

وكلمة (استرولوجيا) اليونانية التي تعني علم التنجيم انحدرت إلينا من اليونانية القديمة، وتتألف من كلمة (استرو) وتعني نجم، و(لوغوس) وتعني حديث أو علم.

وفي العربية يعني علم التنجيم: التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها، ومعرفة مستقبل المواليد من معرفة مواقع النجوم، والكواكب ومطالعها.

وقد عرف ابن سينا التنجيم: (إنه علم تخميني الغرض منه الاستدلال من أشكال النجوم والكواكب بقياس بعضها إلى بعض وبقياسها إلى درج البروج، وبقياس جملة ذلك إلى الأرض، على ما يكون من أحوال وأدوار العالم، والملك، والممالك، والبلدان، والمواليد، والتحاويل، والتسايير، والاختيارات، والمسائل).

نظر الإنسان القديم إلى النجوم المتلألئة ليلا في السماء، ففكر بأنها قد تكون مساكن الآلهة، أو الآلهة نفسها، وهذا يعني أنها تمارس تأثيرا سحريا مباشرا على العالم وسكانه مما يستلزم تقديم فروض العبادة وواجبات الطاعة لها.

وأخذ علم التنجيم صفة العلم لاعتماده على رصد الأجرام السماوية وحساب أوقاتها، وربطه بين الظواهر الطبيعية وتفسيرها أكان هذا الربط والتفسير علميا واقعيا أم خياليا تكهنيا.

وكان سكان بلاد الرافدين القدماء(السومريون والأكاديون) يعتقدون بتأثير الأجرام السماوية على كوكب الأرض وسكانه من البشر والحيوان والنبات، وأسس التنجيم التي وضعها البابليون القدماء منذ أكثر من خمسة آلاف عام هي نفسها الأسس التي يعتمدها منجمو اليوم، فالمنجم ينظر إلى الكون على أنه كيان واحد يخضع كل ما فيه إلى تأثيره المباشر على جميع الموجودات من أحياء وجمادات، والإنسان جزء من هذا الكون الواسع لذلك فهو يخضع لهذا التأثير.

ويعتبر علم التنجيم أن مستقبل الإنسان ومسار حياته يعتمد على لحظة ميلاده، وعلى موقع وحركة النجوم والكواكب في السماء، وقد ربط الأقدمون علم التنجيم بمبدأ فلسفي قديم هو العناصر الأربعة: وهي النار، والهواء، والتراب، والماء معا بالخواص الملازمة

في كل واحد منها، والنوعيات التي تظهرها، وكانت النار تعتبر الأساس لجميع النسل، والمنبع الأول لكل الأشكال، لأنها العنصر الأعظم نشاطا، ولدونة، وهي سبب كل حركة، وكان مركزها الكوني في السموات، ومكانها المحلي في الأرض.

وكان الهواء يرفع في نفسه الأسس المادية لجميع الأشياء في الطبيعة، وكان معروفا كرابطة كونية للطبيعة.

أما الماء فكان رمزا للحياة، والمذيب لكل الأشياء (المواد)، بينما التراب عنصر خامل والرحم الذي به تعمل العناصر الأخرى، والمتسلم النهائي لجميع الأجرام السماوية، والأم الكبرى التي بزغت منها كل الأشياء.

والنجوم تختلف بتألقها ولمعان بريقها، فالعنقود الجميل لمجموعة نجوم الثريا أو الأخوات السبع يبعث تأثيرات السعادة إلى الأرض، وقد عرفت نجوم الثريا في أساطير قدماء الإغريق باسم (البنات السبع لأطلس) من أمهن بليونة، وهي ابنة أوقيانوس من تيتس التي تزوجت أطلس، وأصبحت أما لبناته السبع المعروفات باسم البليادات، وقد لاحقها إوريون الجبار خمس سنين فهربت منه وارتفعت إلى السماء، وأصبحت إحدى النجوم، وكان على البنات السبع أن يمتن من الحزن على أبيهن الذي عاقبه الإله زيوس عقابا يقضي بأن يحمل على رأسه ويديه القبة السماوية الزرقاء على الجبال الواقعة في الشمال الغربي من إفريقية التي خلدت اسمه(جبال الأطلس). وتروي أسطورة أخرى أنهن انتحرن حزنا على موت أخواتهن الهيادات.

وفي أسطورة ثالثة: إن الإله زيوس أراد أن يخلصهن من مطاردات أوريون الجبار، فحولهن إلى حمائم، ثم إلى نجوم، وأسماؤهن: الكيون، إليكترا، مايا، ميروب، ستيروب، تايجتيا، سيلانو.

وكان للثريا أهمية كبرى لدى البحارة لأن ظهورها في شهر أيار يبشرهم بالفصل الملائم للإبحار، وغيابها في فصل الخريف ينذرهم بفصل عاصف غير ملائم.

وهناك نجمة سيريوس (الشعرى)، وتشع أكثر من غيرها في قبة السماء، وقد عبد قدماء المصريين هذه النجمة، واعتقدوا أنها المسكن الروحي للربة إيزيس المصرية، وكان ظهورها إيذانا بفيضان نهر النيل، وكان الرومان القدماء يتشاءمون منها، وظهورها فوق الأفق بعد الانقلاب الصيفي يعني أنها تشارك في انتشار الوباء، والحميات، وتسبب الحرارة القاسية والعالية لفصل الصيف، وظل هذا الاعتقاد ساريا حتى نهاية القرن السابع عشر.

ونجمة الشعرى اليمانية تشع ضوءا أكثر بسبعين مرة من ضوء الشمس، وكتلتها أكبر من كتلة الشمس ثلاث مرات.

وهناك نجمة (ميرا) في كوكبة قيطوس (وحش الماء)، وهي تتألق لمدة

أسبوعين أو ثلاثة ببريق مميز، كنجم من القدر الثاني، ثم تبدأ بالخفوت تدريجيا، وفي نهاية الثلاثة أشهر تصبح غير مرئية (تختفي)، وتبقى هكذا غير مرئية لمدة خمسة أشهر، ثم تظهر خلال الأشهر الثلاثة التالية، وتعود إلى التألق تدريجيا كما في السابق.

وهناك نجوم أخرى منها نجم (رأس الغول)، وهو الشيطان في كوكبة (برساوس حامل رأس الغول) الذي يحمل رأس ميدوزا- أحد النجوم المتغيرة الذي اعتبر نحس- ونسب إليه المنجمون تأثيرات شريرة.

وتصدر النجوم ألوانا مختلفة مثل الأحجار الكريمة، فبعضها مثل نجمة سيريوس شبهت ببريق وتألق الماس الأصفر والأزرق والأحمر.

وبعضها مثل نجم قلب العقرب ذي اللون الوردي المحمر شبه بالياقوت الأحمر، وألوان الأحجار الكريمة، كالطوباز، والزبرجد، والزمرد، وحجر عين الهر، والصغير، والعقيق، والفيروز، واللازورد، ممثلة بنجوم المجرة المسماة درب التبان، بينما الشمس ممثلة ببريق معدن الذهب، والقمر بالفضة، وعطارد بالزئبق، والمريخ بالحديد، والزهرة بالنحاس، والمشتري بالقصدير، وزحل بالرصاص، والأرض تمثل بالتراب والماء والهواء والنار.

وهكذا نرى أن الإنسان كان يراقب القمر والنجوم والمذنبات، ويفكر بنشأتها وعلاقتها بأمور الطبيعة على سطح الأرض.

وقد مر إدراك الإنسان خلال مراحل حياته المديدة على سطح الأرض بقانون طبيعي خضع له العقل الإنساني إثر التجارب التاريخية والنظم الاجتماعية، وهذا القانون مر خلال مراحل أو حالات ثلاث وهي:

١- **المرحلة الأولى**: هي المرحلة التصويرية التخيلية، وهي مرحلة لاهوتية افترض فيها الإنسان بأن الظواهر الطبيعية ترجع جميعها إلى الفعل المباشر الصادر عن كائنات تختفي وراء الطبيعة المرئية (الأرواح)، وأسماء الآلهة: آن السومري يعني الروح، وآنو البابلي يعني القوة الكامنة وراء الحدث الطبيعي، وإيل الكنعاني يعني الخفي، وآمون المصري يعني القمر.

٢- **المرحلة الثانية**: وهي المرحلة الغيبية (الميتافيزيقية)، وفيها استبدل العقل الكائنات الخفية بشخصيات موجودة يمكنها إحداث مختلف الظواهر الطبيعية.

٣- **المرحلة الثالثة**: وهي المرحلة الوضعية اليقينية، ويطرح العقل فيها طريقة البحث العقيم وراء الأسباب المجردة، وأصل الوجود والكون، ومستقبله، والعلل الأخيرة التي تعود إليها الظواهر، ومعرفة السنن التي تحكم هذه الظواهر، فيتحد العقل والمشاهدة (البرهان مع العيان) ليكونا أساس المعرفة (النظرية والتجربة)، وتحاول إيجاد صلة بين ظاهرة من الظواهر، وبين

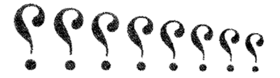
مجموعة من الحقائق العامة التي يقل عددها تدريجيا حسب تقدم العلم اليقيني، حتى تصل إلى قانون كوني واحد.

ومع تقدم الزمن ارتبطت القوى الخفية بظواهر الطبيعة وبأحاسيس الإنسان الداخلية، وظهر الكهنة والعرافون والمتنبئون والمنجمون والسحرة، فتكونت طبقة رجال الدين التي تميزت بالمعرفة والعلم، حيث كانت معظم المعارف غيبية تنسب إلى قوى غير مرئية انطلقت من عالم المشخص (روح الشمس، روح البرق، روح الرعد)، وكلها تنبعث من روح الوجود الكلية الخالدة، وقد كان الكهنة في العصر القديم مستشارين للحكام، وارتبط عملهم بالآلهة لتبليغ أوامرها، وتكريس الخضوع لها، وكان الكهنة محتكري العلم القديم، وعلامي المعرفة الدينية، لذا اعتقدوا أن نجوم السماء حكمت أقدار الملوك والشعوب، فكان الحكام يستشيرونهم لشدة حاجتهم لهم في إدارة مشاريعهم، وترويض الناس على الخضوع والطاعة.

وكان التنجيم سيد العلم القديم، مارسه بسرية في أعماق الهياكل والمعابد كهنة مختصون يتصورون رؤى وتنبؤات، رابطين خطوط الولادة بهذه التنبؤات، معتبرين النجوم العليا فوق رؤوسهم في السماء وكلاء ومستشارين للقوى العظمى الخفية، والذين شاهدوها تعبر السموات ليلا، فصاروا يحددون حظوظ الدول والناس وأقدار الشعوب بالقوة والرغبة للأرواح الجبارة التي تسكن تلك النجوم، وتحكم تلك الأقدار، وبرهنت الملاحظات المتعلقة بالنجوم نتيجة الأرصاد المستمرة على نجاحها في التنبؤ عن وقت بدء العمليات الزراعية ومراقبتها، وحاول السومريون أن ينبئوا بما لا يمكن التنبؤ به بالأسلوب نفسه مما جعل علم الفلك يؤدي إلى التنجيم.

وكان أول شعب رصد النجوم بشكل صحيح هم سكان بلاد ما بين النهرين القدماء (البابليون)، وكانوا سادة العالم في التنجيم، واعتقدوا أن التنجيم يعتمد على وجود علاقة بين الأجرام السماوية والبشرية على سطح الأرض، فأوضاع النجوم في السماء ساعة الميلاد تحدد شخصية المولود ومستقبله ومصيره، والنجوم تؤثر في وقع الحياة الإنسانية، وكان لديهم مراصد مقامة على رؤوس أبراج المعابد يرصدون منها الأبراج السماوية، وارتبط علم التنجيم لديهم بعلم الفلك، وتابع مسيرتهم الآشوريون والكلدان الذين أحرزوا تقدما هاما في ميدان الفلك والتنجيم.

واهتم العبرانيون والكنعانيون وقدماء المصريين بالفلك والتنجيم، ونجد نفس الاهتمام لدى الشعوب الأخرى مثل الهنود والصينيين والإغريق والرومان وغيرهم حتى وصل إلى العرب.■



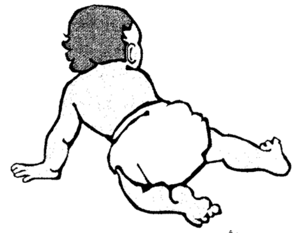
تقاليد تربية الأطفال

في التراث الشعبي

أحمد زياد محبك*

في التراث الشعبي عادات وتقاليد كثيرة في تربية الأطفال، كانت تمارسها الأجيال الماضية، وهي تنم عن سذاجة في التفكير وبساطة في مواجهة المشكلات التي يمر بها الأهل مع طفلهم، ولا سيما في سنواته الأولى، وهي مواجهة تقوم على كثير من البراءة والحماسة والتفاؤل والحرص والحذر والرغبة والخوف، مما ينم عن موقف انفعالي في تربية الطفل، لا يعتمد على شيء من التفكير العقلي السليم، ولكنه، في معظم الأحوال، موقف شاعري رقيق، تتألق فيه مشاعر الأهل وعواطفهم النبيلة تجاه طفلهم.

ومثل هذه العواطف لدى الأهل، هي التي تقودهم إلى اتخاذ مواقف في تربية الطفل لا تستند إلى شيء من العقل، أو المنطق، بل تدفعهم أحيانًا إلى مواقف تعتمد السحر والشعوذة، ولا سيما حين تواجههم مشكلات تتعلق بالصحة والمرض، ويزيد من تفاقم تلك المواقف



جهل الأهل، والتخلف، على جميع المستويات، في واقعهم، وهو ما كانت تعاني منه الأجيال الماضية، التي كانت تكثر فيها مثل تلك العادات والتقاليد.

وهي عادات وتقاليد كثيرة، مختلفة متنوعة، يمكن تصنيفها في أربعة أنواع، نوع تطيُّري، ونوع احتفالي، ونوع علاجي، ونوع تربوي، ويمكن أن تلاحظ أنواع أخرى أيضًا، وهي في كل الأحوال، تتداخل وتتقارب، ويتصل بعضها ببعض، والتصنيف مبدئي فقط.

* أستاذ الأدب الحديث بجامعة حلب.

والنوع الأول، وهو تطيري، دافعه تمني وقوع شيء، ورجاء حصوله، تفاؤلا، أو أمل اجتنابه، وعدم تحققه، تشاؤمًا، ومن أمثلة هذا النوع:

١) تُجمع سبع قطع صغيرة من القماش، مختلفة الألوان، من سبع نساء، تدعى كل واحدة منهن "فاطمة"، ويخاط من تلك القطع، ثوب يلبس به المولود، فور ولادته، ويسمى ذلك الثوب بـ "ثوب فاطمة".

ويتم اللجوء إلى مثل ذلك الثوب، حين تتكرر وفاة الولد، عقب الولادة، أملًا في أن يبقى المولود، ويعيش.

٢) تسمية المولود باسمه جده، إن كان ذكرًا، وباسم جدته، إن كان أنثى، ولا سيما إذا كان المولود الأول في الأسرة.

أو تسمية المولود باسم أحد مشاهير العصر، أو التاريخ، أملًا في أن يصبح مثله، وعدم تسمية أي مولود باسم مولود سابق كان قد توفي، تشاؤمًا من اسمه.

وبعض الأسماء يتطير الناس منها، مثل اسم "يوسف"، لما كان "يوسف" النبي قد عاناه من كيد إخوته له.

٣) حين تخرج الأم إلى المطبخ، وتترك المولود في الغرفة وحده، تضع معه كسرة خبز، إذ يظن أن في ذلك حفظًا له.

٤) إذا كان المولود ممددًا على الأرض، فإنه ينصح بعدم الخطو فوقه، لأن ذلك يسبب قصره.

٥) تُنصح الأم ألا تغسل حفاضات الطفل ليلاً، حتى لا يصاب بأذى، كما تنصح ألا تترك الحفاضات المغسولة منشورة على الحبال ليلاً، حتى لا تسقط عليها النجوم، ففي ذلك أذى للطفل.

ويمكن أن تفسر النصيحة الأولى بعدم وجود الإضاءة الكهربائية قديماً، والاعتماد على الشمعة والسراج، مما لا يوفر نورًا كافياً، يساعد الأم على تنظيف الحفاضات تنظيفاً جيداً.

ويمكن أن تفسر النصيحة الثانية بكون الليل رطباً، لا يساعد على تجفيف الحفاضات تجفيفاً جيداً، ما يجعل استعمالها في الصباح، وفيها قدر من الرطوبة، ضارًا بالطفل.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأمهات كنَّ فيما مضى يستعملن حفاضات من قماش قطني يخطنها بأنفسهن، ويلجأن إلى غسلها وتنظيفها وتظل تلك الحفاضات مستعملة إلى أن يستغني الطفل عنها.

٦) تُصبغ يدا الولد بالحناء ليلة عيد الأضحى، ابتهاجاً بالعيد، وأملاً في أن يساعده ذلك على العثور على اللقائط.

ويقال في المثل الشعبي: "حنّيه في عيد الضحايا، حتى يلاقي اللقايا".

٧) تعليق التمائم والتعويذات والخرزة الزرقاء على كتف الولد، أو في خصلة من خصل شعره أملاً في دفع الأذى عنه، ورد حسد الحاسدين.

٨) عدم إلباس الولد ثوباً وردي اللون، تشاؤماً من لونه الذي يشبه لون الدم، ولشبهه أيضاً بالثوب الذي يلبس به من يصاب بالجدري.

٩) عدم ترك الولد يبكي كثيرا، والتشاؤم من بكائه الكثير، الذي ينذر بالمصائب.

١٠) التفاؤل بالطفل الذي ينام على قفاه، ويرفع يديه إلى ما وراء رأسه، إذ يعتبر هذا دليلا على كثرة رزقه، والتشاؤم من الطفل الذي ينام على وجهه، ومحاولة تعويد الطفل على النوم على قفاه.

والنوع الثاني من العادات والتقاليد الشعبية في تربية الأطفال هو النوع الاحتفالي، والدافع إليه التعبير عن فرح الأهل بحدوث تطور جديد في حياة الطفل، أو بلوغه مرحلة معينة من عمره، ومن أمثلته:

١١) حين تظهر أسنان الطفل، ويتم عددها، يصنع الأهل ابتهاجًا بذلك "السليقة" وهي قمح مسلوق، حتى النضج، يضاف إليه السكر والقرفة، ويوضع في صحون، تزين بالحلويات، من "ملبّس" و"درويس" و"مدردر"، و" سكاكر" وببعض الفاكهة، وبالشموع، ويدعى إليه الأهل والأقارب والأصحاب، ويوزع منه على الجيران.

والعادة أن يقدم المدعوون هدايا للطفل في هذه المناسبة.

١٢) حين يتم مشي الولد، يصنع الأهل ابتهاجًا بذلك "الشواء"، وهو نوع من "المعلاق"، أي الكبد والقلب والكلى والطحال، تشوى، ويدعى إليها الأهل والأقارب والأصحاب، ويوزع منها على الجيران.

والعادة أيضاً أن يقدم المدعوون هدايا للطفل في هذه المناسبة.

١٣) حين يقص شعر الولد، أول مرة، أياً كان عمره، يوزن بشعره شيء من المال، ويوزع على الفقراء، ابتهاجاً بذلك.

١٤) حين يستطيع الولد أن يمد يده إلى جيب أبيه، ويقبض على شيء من النقود، يوزع المبلغ الذي قبضه على الفقراء.

١٥) في يوم ميلاد الطفل، من كل سنة، ابتهاجاً بإكماله الحول، تقدّم شمعة بطوله، إلى ضريح أحد الأولياء، حتى يبلغ الطفل من العمر سبع سنوات.

١٦) منح الولد زي البنت، بإرسال شعره، وإلباسه ثياب بنت، ولا سيما إذا كان الولد الأول، حتى يبلغ السابعة من عمره.

١٧) تلبيس أحد أسنان الولد بكساء من ذهب.

١٨) ترخيم الطفل، أي إسقاط حرف أو أكثر من اسمه في ندائه، أو استبدال اسمه باسم آخر، تدليلاً له.

١٩) ترقيص الطفل، والغناء له، بأغنيات بسيطة الكلمات، ذات نغم راقص، لينام، أو ليتسلى.

والنوع الثالث من العادات والتقاليد الشعبية في تربية الأطفال هو النوع العلاجي، والدافع إليه علاج مرض طارئ، أو الوقاية من مرض شائع، ومن أمثلته.

٢٠) تربط قدما الولد بخيط رفيع، من إبهام قدم إلى إبهام قدم أخرى،

وتوضع في حُجره قطع صغيرة من النقود والحلوى، ثم يوضع الولد في باب المسجد يوم الجمعة، وقت صلاة الجمعة، وأول من يخرج من المسجد، بعد الصلاة، يقوم بقطع الخيط، ويأخذ ما في حُجْر الولد من نقود وحلوى، ظناً بأن ذلك يعجل في مشي الولد.

٢١) توضع قطع صغيرة من الحلوى في منديل، ثم تعطى للخادم في الجامع، فيضعها قرب ضريح الولي، يوم الخميس مساءً، إلى مساء الجمعة، فيأخذها الأهل، ليطعموا الولد الحلوى، ظناً بأن ذلك يساعده على النطق.

وقد يضاف إلى ذلك أن يضع الخادم في الجامع مفتاح باب الجامع في فم الولد، ويحركه ثلاث مرات.

٢٢) تؤخذ في يوم الجمعة قطع نقدية صغيرة، من أربعين رجلاً يدعى كل منهم "محمداً" ثم تذوب النقود المجموعة، ويصنع منها شكلان صغيران مسطحان لرجل وامرأة عاريين، يربطان بخيط، ويعلقان في عنق الولد، علاجاً لالتهاب اللوزتين.

٢٣) يفسر الأهل ظهور الثآليل في يد الولد بالنجوم، ولذلك ينصح الولد ألا يعد النجوم، حتى لا تظهر الثآليل في يده.

٢٤) في مطلع الشتاء يعمد الأهل إلى رمي قليل من الملح في البئر، ظناً منهم أن ذلك يقي يد الولد من أن تحترق بالموقد.

والنوع الرابع من العادات والتقاليد الشعبية في تربية الأطفال، هو النوع التربوي، والدافع إليه هو تعويد الطفل على سلوك حسن، وتجنيبه الأفعال غير الحميدة، أو توعيته وإرشاده وتثقيفه، ومن أمثلته:

٢٥) تخويف الولد بالضبع والغول والسبدلا وكسيلون والشيخ وشيخ الجب وشيخ المغارة، كي يمتنع عن فعل ما، أو لكي يقوم بفعل ما، وغالباً ما يلجأ الأهل إلى ذلك لينام الولد، أو ليتناول طعامه.

والغول، أو الغولة، كائن خرافي، يتصوره الناس على هيئة البشر، ولكنه من الجن، كما يعتقدون، ويظنون أن له ذيلاً قصيراً، وأنه يأكل الأطفال.

أما السبدلا، بفتح السين والدال وتضعيف اللام، فهو كائن وهمي، لا شكل له، يوحي الأهل إلى الولد بأنه يبرز من خلل الجدار، أو السقف، فيقولون: "سبدلاّ، شق الحيط وتدلّى"، ولعل الكلمة منحوتة من كلمتي: "السقف" و"تدلى"، لأنهم يوهمون الطفل بأن ذلك الكائن يتدلى من السقف.

وأما الشيخ فهو، كما يتصوره الناس، وكما يصورونه لأولادهم، الحامي للشيء، وراعيه، والمدافع عنه، وهم يجعلون لكل شيء شيخاً، ولا سيما الأشياء المخوفة، مثل البئر والسطح والمغارة والنهر، ويخوفون الولد بشيخ تلك الأشياء، كي يبتعد عنها.

٢٦) تعويد الطفل على الإقلال من تناول الإدام، والإكثار من تناول الخبز، توفيراً للطعام، بسبب الفقر، وكثرة العيال، والغلاء، وهم يقولون في المثل: "الإدامة، هندامة"، أي إن الإقلال من الطعام كياسة ولياقة.

وعادة ما يحذر الطفل من الإكثار من تناول الجبن، بسبب غلائه، ويخوف

الطفل لذلك بالقرع، فيقال له: "إذا أكثرت من الجبن فسوف تصاب بالقرع".

٢٧) رواية الحكايات للأطفال، لتسليتهم، وتوعيتهم، وتعريفهم على عوالم غريبة، ولوعظهم وإرشادهم.

٢٨) تعليم الأطفال الأحاجي والألغاز، وتعويدهم على تطارحها، لتنمية قواهم الفكرية.

٢٩) تعليم البنات منذ الصغر صنع الدمى من قطع القماش، وتفصيل الثياب لها، وتعويدهن على العناية بالمنزل وتدبير شؤونه.

٣٠) تعليم البنين ألعاب القوة البدنية، من قفز ومصارعة، وتعويدهم على ممارستها.

٣١) تلقين الأطفال بعض الجمل والتعبيرات الجاهزة، التي تتكرر فيها بعض الحروف، لتعويدهم على النطق السليم لمثل تلك الحروف، وتمليكهم مهارات في الفصاحة، وقوة التعبير، ومن تلك الجمل: "خيط من حرير على حيط خليل"، و"بلح تعلق تحت قلعة حلب"، والجملة الأخيرة تقرأ حروفها من الشمال إلى اليمين، فتعطي الكلمات نفسها، كما لو قرئت من اليمين إلى الشمال.

تلك هي بعض العادات والتقاليد الشعبية التي كانت شائعة لدى أكثر الناس لتربية الأطفال في الأجيال الماضية، ولا شك في أن كثيراً منها اليوم قد نسي أو أهمل، ولم يبق إلا بعضها، أو أقلّه.

وهي عادات تكثر في التفاؤل أو التشاؤم، وفي التعبير عن الفرح والابتهاج، ولكنها تبدو قليلة في العلاج والتربية.

ويبدو أن أكثرها يتركز في السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل، ثم تقل بعد ذلك، وقليل منها ما يستمر حتى السنة السابعة من عمر الطفل.

وهي في كل الأحوال عادات وتقاليد غير منطقية، في معظمها، ولا تخضع لتفسير عقلي سليم، ولكنها لا تخلو من عاطفة صادقة، ولعل أجمل ما فيها هو عادات الفرح والابتهاج.

وإذا كان أكثرها قد نسي اليوم أو أهمل، فإن عادات أخرى جديدة قد حلت محلها، وأصبحت بديلاً منها، وقد لا تختلف كثيراً عنها، إلا في الأساليب التي أصبحت أكثر تطوراً، ومن ذلك الاحتفال سنوياً بعيد ميلاد الطفل وشراء أجهزة التسلية له ومنها الأتاري وألعاب الحاسوب.

وإذا دل هذا كله على شيء فإنه يدل على ما للطفل من مكانة في نفس الأبوين، وقديماً عبر الشاعر حطان بن المعلّى عن شغفه ببناته وتعلقه بهن وحرصه على البقاء إلى جانبهن مما حرمه من السفر والارتحال وجعله يعيش في فقر وضيق، ويؤكد حرص الآباء على الأبناء فيقول:

لولا بنيات كزغب القطا
رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولا دنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمض ■

حوار مع الفنان المعماري

مأمون صقال

خلدون فنصة*

مقدمة:

ولد مأمون صقال في دمشق في العام ١٩٥٠م ونشأ في حلب، تلقّى حب اللغة العربية من والديه، وكلاهما مدرّس للغة العربية وباحث محقق في دقائق تاريخها وجمالياتها.

وقد عرفت مأمون مذ كان فتىً صغيرًا، طالبًا في مركز الفنون التشكيلية بحلب، ثم التقيت به شابًا يافعًا يدرّس العمارة في جامعة حلب، التي تخرّج فيها بامتياز.

وقد كنت -ومازلت- أتابع أخباره بعد أن غادر إلى الولايات المتحدة، ليحصّل دراسته العليا في العمارة التي أحبّ، فحصل على الماجستير -بامتياز أيضًا- في هندسة المقرنصات في العمارة الإسلامية، ثم مارس التصميم الداخلي، ثم الخط العربي، الذي عرف إمكانياته التشكيلية في تصاميم "الغرافيك"، وصارت له سمعة دوليّة في ذلك، وحصد العديد من الجوائز في مسابقات عالمية للخط العربي؛ يستخدم الكمبيوتر -بتمكّن- في تصاميمه.

وأخيرًا، فقد أسس منهجًا علميًا لتدريس العمارة الإسلامية في جامعة واشنطن في الولايات المتحدة، ويقوم هو بتدريسها الآن.

زار مأمون حلب في أواخر العام ٢٠٠٣م، وألقى فيها ثلاث محاضرات عن الفن التشكيلي والعمارة والخط الكوفي.

مع مأمون صقّال، المعماري والأكاديمي والفنان التشكيلي والخطّاط، كان هذا اللقاء.

---

* مهندس معماري استشاري.

س: أنت مهندس معماري متميز، فكيف انتقل اهتمامك إلى الخط العربي و تطور؟

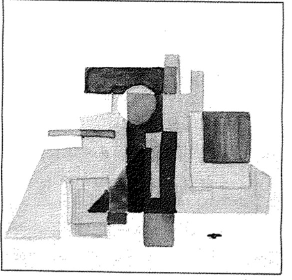
ج: كان أول من علمني الخط والدي لطفي الصقال حيث كان رحمه الله يكتب الثلث والرقعة بخط جميل، ودرّبني على بري قلم القصب. ثم درست فترة قصيرة على الخطاط المرحوم إبراهيم الرفاعي، الذي شجعني على متابعة تعلّم الخط العربي، وذلك خلال دراستي لفن الرسم والتصوير في مركز فتحي محمد للفنون التشكيلية في حلب. إلا أن هذا لم يستمر طويلاً مع الأسف لأن تدريس الخط في المركز كان مؤقتًا. وآمل أن تكون هناك فُرصٌ أكثر لتعليم الخط في حلب هذه الأيام.

كان اهتمامي بالخط العربي في منتصف الستينات ذا وجهين: من ناحية أولى عملت على تصميم خطوط طباعية حديثة ومبسطة عندما كنت أصمم إعلانات وأغلفة كتب تحتاج إلى عناوين خطية أو نصوص كتابية، ومن ناحية ثانية استخدمت الخط العربي في رسوم فنية ذات طابع تعبيري فردي كانت في أكثر الأحيان تأخذ أشكالاً تجريدية فيما يسمى الآن بالفن الحروفي (شكل ١). في كلتا الحالتين كان هدفي اكتشاف أشكال وأبعاد جديدة في الخط لتلائم الذوق المعاصر المتأثر بفنون الرسم والتصميم الأوروبية.

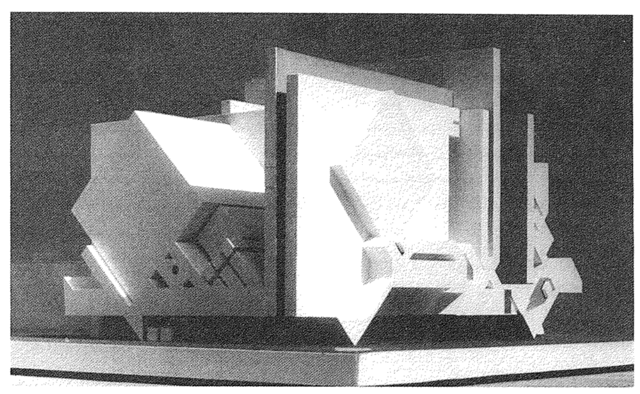
في فترة دراستي بكلية العمارة في جامعة حلب توقفتُ عن الأعمال الفنية والخطية إلى حد ما، إلا أنني عُدت لممارستها بعد تخرجي في أواسط السبعينات، وبدأت في ذلك الوقت بالبحث عن الإمكانات التعبيرية والتشكيلية للخط العربي، ولكن هذه المرة بالاعتماد على خصائصه المميزة كفن محلي. في تلك الفترة بدأ اهتمامي بالتراث العربي والإسلامي كمصدر للاستلهام والاستخدام في حياتنا المعاصرة، سواء في العمارة أو الفنون البصرية الأخرى.

أهم أعمالي في تلك الفترة كان تصميم مشروع لمسابقة نصب الجندي المجهول حيث جمعت العمارة والخط العربي بشكل جديد ومبتكر. في ذلك المشروع حوّلت الخط من شكل ذي بعدين إلى حجم ثلاثي الأبعاد، وجعلت الكتابة هي المبنى والمبنى هو الكتابة (شكل ٢).

ازداد اهتمامي بالعمارة والفن الإسلامي بعد مغادرتي سورية لمتابعة



(شكل ١)



(شكل ٢)

دراستي العليا في أمريكا، وتبيّن لي أن الخط العربي كان على مدى تاريخنا الفن البصري الأمثل والأكثر تعبيرًا عن الروح العربية والإسلامية. وهذا بالتالي دفعني لدراسة الخط بشكل أكثر جدية وتعمقًا، حيث بدأت بالخط الكوفي والكوفي التربيعي، وانتقلت إلى الخطوط اللينة كالنسخي والثلثي والديواني، وذلك من خلال قراءة الكتب وزيارة المتاحف والممارسة المستمرة. وشيئًا فشيئًا ازداد استخدامي للخط في أعمالي الفنية حتى اختفت أشكال الناس والأشياء الواقعية منها، وأصبح همي متابعة تطوير واستخدام الخط بشكل معاصر، ليكون محبوبًا ومقبولاً على نطاق واسع، بدلاً من تراجع الاهتمام بالخط الذي شهدته ثقافتنا منذ السيطرة الأوروبية في القرنين الماضيين. لا زال اهتمامي بالخط العربي ذا وجهين، وجه عملي أو تطبيقي، و ذلك بتصميم الخطوط الطباعية، ووجه فني وتعبيري وذلك باستخدام الخط في أعمالي الفنية.

س: ما هي في رأيك العلاقة التي تربط الخط العربي بالعمارة؟

ج: استُخدم الخط العربي في المباني منذ فجر الإسلام بشكل لوحات تأسيس بسيطة أو شرائط تزينية بالغة الأناقة والإبداع. ورغم أن أنواع الكتابات على المباني اتبعت بشكل عام نماذج الكتابة على الورق، إلا أن استخدام الكتابة في العمارة، أدى في القرن الثالث عشر إلى ابتكار نوع جديد من الخط هو الخط الكوفي التربيعي والذي يعد بحق خطاً

معماريًا، لا لأن أشكال حروفه وكلماته هي أشكال هندسية فحسب، ولكن لأن هذا الخط مكّن المصمم من تغطية سطوح متنوعة الأشكال كالمربع والمستطيل والمثلث، بدلاً من الأشرطة المعتادة التي تستخدم في أكثر الخطوط الأخرى. وهذا أدى إلى استخدام الخط العربي لتغطية مبان بكاملها كما نشاهد في العمارة التيمورية في القرن الخامس عشر الميلادي، وهذه الظاهرة نادرة في العمارة العالمية تميّزت بها العمارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى (شكل ٣).

موضوع العلاقة بين الخط العربي والعمارة موضوع شائق، لأنه يكشف عن جوانب سياسية واجتماعية وفنية لتاريخ المباني، يصعب أو يستحيل التعرف عليها إذا لم تكن الكتابات موجودة في العمارة. وقد درّستُ هذا الموضوع بالذات في كليتي العمارة ودراسات الشرق الأدنى في جامعة واشنطن في نهاية التسعينات، ووجدت أن الطلاب، وأكثرهم من الأمريكان، أصبحوا أكثر تفهماً وتذوقًا للعمارة والفن الإسلامي نتيجة اطلاعهم على استخدام الخط في العمارة.

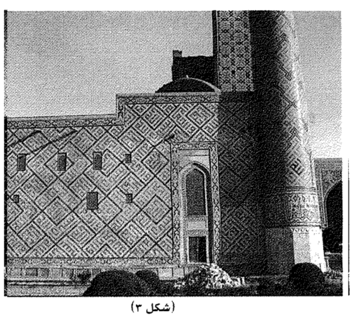
أما في تجربتي الشخصية، فيبدو لي أن دراستي للعمارة قد أثرّت على أعمالي الخطية وأثرتها، حيث حوّلتُ الخط من شكل مسطح إلى شكل ثلاثي الأبعاد، كما ذكرت في مشروع الجندي المجهول، وفي ابتكار الخط الكوفي التكعيبي الذي يعد خطوة جديدة في تطوير الكوفي التربيعي والذي يذكّر بعض الأحيان بأشكال الأبنية (شكل ٤). كذلك يظهر هذا التأثير في كثير من تكويناتي الخطية المتناظرة، التي تأخذ طابعًا هندسيًا، ويمكن للقراء رؤية هذه الأعمال في قسمي تصميم الأسماء والشعارات في موقعي عن الخط العربي على الإنترنت (www.sakkal.com).

س: أنت تستخدم الخط العربي في أعمال تشكيلية لها طابع جمالي أساسًا، فهل ذلك من قبيل الغرائبية؟ أم أن للخط والحروف دورًا تعبيريًا عن معان ورموز؟ أو إمكانيات تشكيلية تبرر هذا الاستخدام؟

ج: كان للكتابة منذ بدايتها تأثير وقيمة سحرية في حياة الإنسان إلى جانب قيمتها العملية في تسهيل الاتصال وتسجيل المعلومات، وازدادت أهميتها بعد الإسلام بسبب مركزية القرآن في حياة المجتمع المسلم. من ناحية أخرى فإن العرب كانوا دائمًا مغرمين باللغة كأداة للتعبير الفني حتى قيل إن الشعر ديوان العرب، والخط هو التجسيد البصري للكلمة المنطوقة، وبالتالي فهو امتداد لحب اللغة من المجال المسموع إلى المجال المرئي. لذلك فإن أعمالي التشكيلية الخطية هي استمرار طبيعي لهذا التراث الجماعي الغني.

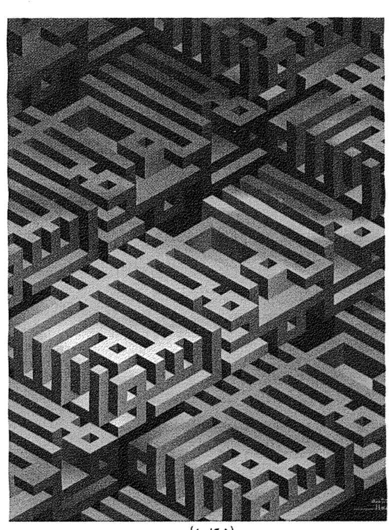
أهتم في أعمالي بالتعبير البصري عن مضمون النص المستخدم في العمل التشكيلي، وهذا التعبير نابع من الخصائص التشكيلية للخط العربي نفسه؛ هذه الخصائص تتغير حسب نوع الخط المستخدم، ولكني أحاول دومًا أن

يكون شكل اللوحة النهائي معبرًا وممتعًا حتى إذا لم يقرأ المشاهد النص العربي. لذلك فإن أعمالي تُظهر للمشاهد العربي جانبًا جديدًا من جمالية الخط العربي، وتوصل للمشاهد الأجنبي جمالية مرتكزة على الخط العربي، ولكنها لا تتطلب قراءته للاستمتاع أو التواصل (شكل ٥).



(شكل ٣)

س: كيف تنظر بعين الناقد إلى محاولات فنانين تشكيليين آخرين في نفس المجال مثل: وجيه نحلة، سامي برهان، سعيد الطه.. وغيرهم؟



(شكل ٤)

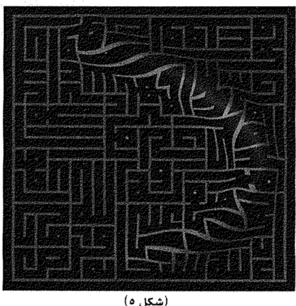
ج: لاشك أن هناك تجارب ممتازة في مجال استخدام الخط العربي في الأعمال التشكيلية، وعدد المساهمين في هذا المجال يزداد عامًا بعد عام، بحيث أصبحنا نرى تيّارًا فنيًا متميزًا قيد التشكل والنضج. وآسف لأن إقامتي في أمريكا تحد من إطلاعي على ما يجري في سورية وفي كثير من الأقطار العربية والإسلامية نتيجة محدودية الإعلام الذي يصل إلينا هنا، إلا أنني أرى مظاهر هذا التيار في كثير من المعارض والمنشورات. وأود هنا أن أسجل شكري لك على الأخبار والنشرات المتعلقة بمستجدات الفن والتي تزودني بها كلما سنحت الفرصة.

أعمال وجيه نحلة التي شاهدتها قبل سفري إلى أمريكا

في نهاية السبعينات كانت ممتعة ومعبرة ومليئة بالمفاجئات. لاشك أنه فتح بابًا متميزًا لمعالجة الخط العربي كفن تشكيلي، وآمل أن يكون قد تابع إنتاجه الفني لأني لم أسمع عنه و لم أر أعماله منذ ذلك الوقت.

سامي برهان كان أستاذي في مركز الفنون التشكيلية في حلب في أوائل الستينات لذلك أكن له خالص الود والاعتراف بالجميل، واسمه يُرجع إليّ دائمًا أحلى الذكريات. لاشك أنك تذكر من تلك الأيام، حيث كنت أنت أيضًا من الدارسين في المركز، إنه كان معلمًا قديرًا للرسم بقلم الفحم والتصوير الزيتي للمناظر والأشكال الواقعية اعتمادًا على مقومات الفنون الأوربية، إلا أنه لم يدرّسنا استخدام الخط العربي في الفن التشكيلي، وهذا يعكس وجهة النظر السائدة في ذلك الوقت التي تجاهلت الفنون المتوارثة المحلية مثل الخط العربي. رأيت بعض أعماله التي استخدم فيها الخط العربي في المعارض والمجلات، وأعجبت بمحاولاته الأولى ثم ازداد إعجابي بأعماله التالية، حيث عامل الحروف كأشكال تجريدية غنية الألوان والإيحاءات.

سعيد الطه كان زميلاً لي في مركز الفنون التشكيلية في حلب ولم يضمّن الخط في أعماله في ذلك الوقت. للأسف لم أتابع إنتاجه الفني بعد سفري لأمريكا في عام ١٩٧٨، وأنا مسرور لأنه وجد طريقًا لاستخدام الخط العربي في أعماله الفنية.



(شكل ٥)

ذكرتُ بعض الفنانين المعاصرين الذين أبدعوا في استخدام الخط الكوفي التربيعي في مقال نشر مؤخرًا في مجلة حروف عربية، التي تصدر من دبي فيمكن للمهتمين الرجوع إليه.

س: ما هي درجة نجاح الأعمال الفنية التي تقوم بها في الغرب (لا نقصد بذلك لدى الجاليات العربية والإسلامية)؟ وإن كانت أعمالك ناجحة فهل بسبب القيمة الفنية التشكيلية لتلك الأعمال أم أن هناك سببًا آخر؟

ج: درجة نجاح أعمالي الفنية لا يمكن أن أقيّمها بنفسي، هذا الأمر متروك للآخرين وللتاريخ. إلا أنه بالإمكان ذكر بعض الحقائق التي تعطي فكرة عن تقبل هذه الأعمال في الغرب، فمثلاً نرى أن عدد الذين يقتنون أعمالي الفنية من الأمريكان والأوروبيين أكثر من العرب والمسلمين. كذلك نرى تقبُّل أعمالي الفنية في المعارض الفردية التي أقيمها أو

المعارض الجماعية التي أشارك بها. ومن الدلائل المفيدة في هذا المجال الجوائز التي منحت لأعمالي في مسابقات عالمية، مثل جائزة أفضل لوحة خط لعام ٢٠٠٥، التي نلتها عن لوحة في الكوفي التربيعي في مسابقة سنوية تجريها أشهر مجلة تعنى بأمور الخط في الولايات المتحدة الأمريكية، هي مجلة فنون الكتابة (Letter Arts Review) التي تصدر في مدينة غرينز بورو في كارولينا الشمالية (شكل ٦)، وثلاث جوائز نلتها في السنتين الماضيتين في المسابقة السنوية التي يجريها نادي مديري فن خطوط الطباعة في نيويورك (Type Directors Club of New York) لتصميمات حروف طباعية عملتها للغة العربية. وهنا أود أن أقول إن هذه المسابقات التي يشترك بها مئات المصممين من مختلف دول العالم ليست مقتصرة على الخط العربي، بل هي مفتوحة لكل الخطاطين والمصممين في مختلف اللغات.

من ناحية أخرى فإن أعمالي الخطية نُشرت في عشرات المجلات والكتب، وكُتب عنها عدد من المقالات في المجلات وعلى الإنترنت. وتصميماتي الخطية باللغة العربية مطلوبة من شركات عالمية مثل مايكروسوفت و ناشيونال جيوغرافيك ونيوزويك الأمريكية والغارديان البريطانية وعدد من محطات التلفزيون الأمريكية وناشري الكتب في أمريكا والشرق الأوسط. وحاليًا فإن عدد الطلبات التي لا أتمكن من تلبيتها أكثر من الطلبات التي ألبيها نظرًا لضيق وقتي. في العام الماضي بلغ عدد زوار موقعي على الإنترنت أكثر من نصف مليون زائر استعرضوا حوالي مليوني صفحة في الموقع المخصص للخط العربي. عدد الزوار من العالم العربي والإسلامي لا يتجاوز عشرة بالمئة من هذا المجموع، والباقي من الدول الأجنبية. ومع الأسف فإن الموقع ينشر باللغة الإنكليزية حتى الآن، وآمل أن أتمكن من نشره باللغة العربية في المستقبل لخدمة محبي الخط العربي الذين لا يقرؤون الإنكليزية. لكن على كل حال تُظهر أرقام الزوار المذكورة اهتمام الناس من أنحاء العالم كافة بالخط العربي بشكل عام، و بأعمالي في هذا المجال بالتالي.

في تقديري إن هذا الاهتمام يعود إلى القيمة الفنية أولاً، كما يعود إلى رغبة الناس بالإطلاع على جوانب مضيئة من الثقافة والفن العربي والإسلامي لا تتوفر غالبًا في وسائل الإعلام العامة.

س: ما هو مستقبل الخط العربي - باعتباره عملاً يدويًا- بعد دخول الكومبيوتر في التخطيط؟ وهل يتوقف ذلك الإبداع الفردي في هذا المجال؟

ج: هنا يجب أن نميّز بين الخط كعمل فني والكتابة أو النسخ كعمل يدوي. الخط هو الكتابة الجميلة، وجمال الكتابة هنا يأخذ معنى تعبيريًا وتذوقيا هامًا قد يتجاوز في كثير من الأحيان المحتوى اللغوي وقد يتميز بالغرابة الفنية ضمن التراث المستمر. أما الكتابة فهدفها الأساسي هو نقل المعلومات بشكل واضح

وجمالها يكمن في تسهيل هذا النقل بتقليل الغرابة الفنية. وهكذا نرى أن في الخط والكتابة معنى ومبنى، أو لغة وشكلاً بصريًا؛ وتختلف أهمية كل من هذين العنصرين في الكتابة والخط، حيث يكون التركيز على المعنى في الكتابة وعلى الشكل في الخط. إلا أن هناك استمرارًا بين هذين القطبين والتوازن بينهما يختلف حسب محتوى النص وهدف العمل المنشور.

من الطبيعي أن يستخدم الناس الوسائط التي تسهّل حياتهم وأعمالهم، لذلك سيلعب الكومبيوتر دورًا هامًا في الأعمال الروتينية ذات الصبغة العملية، وسيستبدل الخطاط في مجال الكتابة كما عرّفتها الآن، وهذا ما حدث مسبقًا باستعمال الآلة الكاتبة والمطبعة، حيث سهلت الطباعة نشر الكتب وجعلتها متوفرة بأسعار زهيدة وكانت عاملاً هامًا في ديموقراطية المعرفة. أما الخط كإنتاج فني فسيبقى عملاً فرديًا يشبع ويلبي حاجات أخرى ذات صبغة غير عملية أساسًا، وإنما ذات صبغة جمالية وتعبيرية وتذوقية.

في الغرب حيث سبقونا باستعمال الطباعة والكومبيوتر لازال هناك خطاطون يمارسون فن الخط على أسس تقليدية أو معاصرة. وهذا مشابه لما حدث في مجال الرسم والتصوير، حيث توقع كثيرون أن التصوير الفوتوغرافي سيستبدل الفن اليدوي، إلا أننا نرى أن الرسم والتصوير استمرا ولكن بالتركيز على ما هو فني وترك النواحي العملية والروتينية للتصوير الفوتوغرافي. كذلك نرى أن بعض التصوير الفوتوغرافي يعتبر فنًا قائمًا بذاته الآن و يقدّر إلى جانب الرسم والتصوير التشكيلي.

ولكن هل الخط العربي ضروري في حياتنا المعاصرة؟ هذا السؤال ينطبق على كل الفنون وليس فقط على الخط العربي. برأيي، إن الفن بشكل عام والخط العربي بشكل خاص ضروري لأنه يلبي حاجة أساسية للتعبير الفردي للفنان، والتعبير الجماعي للمجتمع ككل. الأعمال الفنية تجسّد ما هو غامض وتجعله قابلاً للفهم والتحسس، وتكون في كثير من الأحيان مثالاً لأرقى مستويات إبداع الإنسان كفرد وكثقافة جماعية ووسيلة لنقل هذا الإبداع بين الأجيال. ولا شك أن الله سبحانه وتعالى غرس حب تذوّق الجمال في فطرة الإنسان. المجتمع بشكل عام يحدد قيمة العمل الفردي اليدوي و قيمة العمل الفني، ومن المسرّ أن نرى ظواهر لتشجيع الخط مثل مسابقة مركز إرسيكا في استانبول حيث نلت جائزة الخط الكوفي في المسابقة الثالثة، وفعاليات أخرى كثيرة في دول الخليج العربي.

س: بوجود عشرات الأنواع من الخطوط العربية على الكومبيوتر، هل يتحول الخطاط إلى إنسان ينتقي منتجًا جاهزًا بدلاً من أن ينتج بذاته ويبدع؟ وكيف يمكن الاستمرار بالإبداع في ظل سهولة استخدام الكومبيوتر ونجاح تطبيقاته؟

ج: هذا ولاشك سيختلف من خطاط إلى آخر. الكومبيوتر تقنية تضع تحت

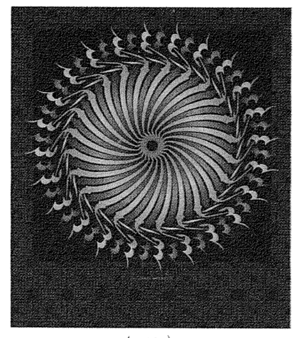
تصرف الخطاط إمكانيات تعبيرية كبيرة سيجدها بعض الخطاطين مفيدة في عملهم وبعضهم لن يهتم بها. مثلاً بالنسبة لي إمكانات التكوين والتكرار والتعديل والتجريب والتلوين والتظليل مهمة، لذلك أستخدم الكومبيوتر في أعمالي. كثيرٌ من هذه الأشياء يمكن أن أعملها يدويًا، لكني أود أن أختصر العمل اليدوي وأن أصرف أكثر وقتي في الإبداع والتجريب والاستكشاف.

من ناحية أخرى سيفتح الكومبيوتر إمكانات عمل جديدة في مجال تصميم الخطوط الطباعية الذي يجمع بين الفن والتقنية، وذلك لأن برامج تصميم الخطوط أصبحت متوفرة في كل أنحاء العالم، بعد أن كان تصميم الحروف الطباعية محصورًا بالشركات التي تنتج آلات صف الحروف. في السنوات الأخيرة تفرغتُ لهذا العمل حيث أقوم بتصميم حروف الطباعة العربية للكومبيوتر لشركات عالمية مثل ميكروسوفت وبت ستريم (شكل ٧).

كذلك سأشارك في مؤتمر "كتابات" الذي سيعقد في مدينة دبي في شهر نيسان عام ٢٠٠٦ لتشجيع التعاون بين الخطاطين التقليديين ومصممي الحروف الطباعية، وذلك لرفع مستوى الخطوط العربية المستخدمة في الكومبيوتر، ولمساعدة الخطاطين الذين يودون المساهمة في تصميم الحروف الطباعية. ومن ناحيتي أود أن أتمكن من التعاون مع بعض الخطاطين الممتازين في سورية لتصميم حروف طباعية ترتكز على الأسس التقليدية للخط العربي.



(شكل ٧)



(شكل ٦)

كذلك سيشجع استخدام الكومبيوتر عمل بعض الخطاطين في مجال تصميم المطبوعات، عندما يزداد وعي الناس بشكل عام ومنتجي المطبوعات بشكل خاص، لأهمية دور التصميم في إظهار المادة المطبوعة أو المنشورة على الإنترنت بأفضل قالب ممكن خدمة للقراء والمتلقين من ناحية، ولنجاح عملهم في النشر من ناحية أخرى. ■

الهوامش:

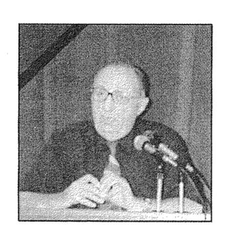
١. انظر مقال "مبادئ الخط الكوفي التربيعي" مجلة حروف عربية، عدد ١٣، السنة الرابعة، تشرين الأول ٢٠٠٤ م، ص ٤-١٢.

الدكتور زكي حنوش

في ذمّة الله

١٩٣٩ - ٢٠٠٥م

عضو مجلس إدارة جمعية العاديات
أستاذ إدارة الأعمال في جامعة حلب



لم يتجاوز السادسة والستين، وبينما كان في طريقه إلى دائرة المطبوعات في الجامعة لمراجعة النسخة النهائية من كتابه الجامعي، وقع على الأرض وفارقت روحه حياتنا الأرضية.

إنه عميد كلية الاقتصاد السابق الدكتور زكي حنوش عضو مجلس إدارة جمعية العاديات

المؤهلات العلمية:

١- دكتوراه الفلسفة في إدارة الأعمال: ١٩٧٧ - جمهورية مصر العربية- عنوان الأطروحة: إدارة التنمية.

٢- ماجستير إدارة الأعمال عنوان الأطروحة: الكفاءة الإنتاجية في قطاع الصناعات الغذائية.

٣- بكالوريوس إدارة الأعمال: ١٩٦٥ - جامعة دمشق. دبلوم في الاقتصاد والتخطيط: معهد البحوث والدراسات العربية العليا: ١٩٧٢ - جمهورية مصر العربية

تقلب في وظائف علمية وإدارية متعددة في جامعة حلب منها وكيل كلية الاقتصاد ثم أصبح عميدًا لكلية الاقتصاد حتى تقاعده عام ٢٠٠٤ وكان عضواً في روابط وجمعيات كثيرة منها:

- عضو اللجنة العلمية لتاريخ العلوم عند العرب - جامعة حلب.
- عضو مجلس الشؤون العلمية في جامعة حلب.
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة بحوث جامعة حلب
- عضو مجلس إدارة في جمعية العاديات- رئيس تحرير مجلة العاديات.

المؤتمرات والندوات والأنشطة العلمية التي شارك فيها كثيرة وله الكثير من البحوث والدراسات المنشورة في المجلات والدوريات العلمية. نشر حتى تاريخه سبعة عشر بحثاً محكماً في الدوريات العلمية العربية والأجنبية.

المؤلفات والكتب الأكاديمية:

١. وظائف الإدارة - منشورات جامعة حلب.
٢. تنظيم المشروعات واقتصادياتها - منشورات جامعة حلب.
٣. تنظيم المشروعات الصناعية - منشورات جامعة حلب.
٤. التخطيط والرقابة في المشروع - منشورات جامعة حلب.
٥- العلوم السلوكية في التطبيق الإداري - منشورات جامعة حلب.
٦- إنتاجية العمل: منظمة العمل الدولية وجامعة حلب تأليف مشترك ١٩٩٣.
٧- الاقتصاد الأردني في إطاره الإقليمي والدولي، عمان مركز الأردن الجديد للدراسات (١٩٩٧ مشترك)

وفقدت بذلك حلب وجمعية العاديّات علماً من أعلامها الذين قدّموا الكثير■

علّمتني الحياة..*

زكي حنوش*

أثبتت الدراسات واتجهت كثير من النظريات إلى التأكيد على أهمية وأساسية تأثير الأسرة وتميزها في تكوين شخصية الفرد بل ذهب بعضها إلى التأكيد على أن السنوات الست الأولى هي أهم من السنوات اللاحقة في تاريخ الطفل ونمو شخصيته، وحتى بعد زوال الفاعل الاجتماعي الأصلي (الأم والأب) فإن قوّة دفع هذه المشاعر والمكونات تظل قائمة في مراحل لاحقة وعلى امتداد حياة الفرد.

الآن وأنا في الخامسة والستين أدين بما أنا عليه فكراً وأخلاقاً وشخصيةً وسلوكاً لسنوات تربيتي الأولى في مدرسة العائلة حيث تعلمت وتكوّنت على يدي أستاذين رائعين: أمي وأبي، منهما ومن خلالهما تأسست مكوّناتي الأولى الثلاثة:

- المكون الجيني الوراثي.
- المكون الحسي والأخلاقي وآلية المشاعر والإدراك والتفاعل والعمل مع الآخرين أفراداً وجماعات.
- المكون اللاشعوري عبر جملة القيم الممتصة التي غرسها في اللاشعور مرحلة التربية الأولى، والتي تأخذ عادة شكل ردود الأفعال والتصرفات التلقائية في كثير من المواقف والحالات حيث لا تعتمد على ما يسمى بسبق الإصرار والترصد والتعمد المخطط ومن ذلك:

توخي الصدق - والنزوع إلى الصراحة - والشفافية - ورفض التسلط - وتلقائية الوقوف إلى جانب الحق والصح - ورفض الخطأ..

فهل ثمة من أشياء لم آخذها من مدرسة الأسرة؟

في المرحلة التالية تشكل المكون الرابع في المدرسة ومراحل التعليم المتتالية التي تقاطعت مع مكونات العمل الوطني والسياسي والإيديولوجي والفكري.

إن ما أشعر به الآن وأنا أكتب عمّا علمتني الحياة، ولعل هذه الكتابة هي التي قادتني إلى استدعاء الصور.

---

* من أوراقه الخاصة، تُنشَر بالإذن من عائلته.

* عضو مجلس إدارة جمعية العاديات (١٩٣٩ - ٢٠٠٥م).

وخلاصة ذلك: إن المكونات الثلاثة الأولى كانت وما تزال بوعي مباشر، أو بتلقائية غير محسوسة أو مباشرة هي التي انسحبت وأثرت وما تزال على سلوكي وتصرفاتي وقيمي ومعاملاتي اليومية مع محيطي الإنساني.

هذه الصورة.. أو هذا المضمون لصورة النشأة والتربية والتكوين تضعني دائماً وخاصة الآن وأنا على مشارف سنوات العمر الأخيرة أمام سؤال يخطر في ذهني في كل موقف.. ترى؟ هل إن ما تكونت عليه كان مخرجاً ودليلاً ومعياراً؟ أم كان مأزقاً؟ خلال حياتي ومراحلها المتتابعة؟

وأجدني دائماً فوري الإجابة على السؤال: نعم ربما كان مأزقاً، ولكن مؤقتاً عبر المواجهات المستمرة أو الصدامات مع وقائع ومواقف الاعوجاج، في الحياة العامة، في الإدارة، في السياسة، في العمل، في العلاقات الاجتماعية بدوائرها الصغيرة، في الحكم على الأشياء والقضايا ذات الصلة بما هو كائن وبما يجب أن يكون.. حيث كنت أسقط ما تكونت ورُبّيت عليه وتعلمته على المواقف رغم كل احتمالات المعاناة والألم.

لكنّه كان مخرجاً سيكولوجياً منسجماً مع قيم وأخلاق نشأت عليها ولم أغيرها أو أتخلى عنها تخلصني دائماً، وتحصنني من ضغوط المواجهات وآلامها، ولسلام داخلي عبر الشعور براحة الضمير لدرجة اليقين.

في مثل هذه المواقف كنت أتذكر ما قاله مكيافيلي عن البشر: " البشر خبثاء، يتمسّكون بالمصالح الماديّة، وهم على استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم ويقال عنهم بصورة عامة إنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراءون، شديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم..."

كانت هذه المقولة تغريني أثناء المواجهات أحياناً، إلا أن جذور التربية والتكوين الأولى كانت أقوى وأبعد أثراً من إغراءات مكيافيلي، وكان مبرري في ضبط النفس، وإعمال الإرادة، واحتمال الأذى، هو أن تعميم ميكافيلي لا ينسحب على كل الناس وإلا لكنت أنا منهم، وبالتالي يصبح من الخطأ أن نسقط عليهم جميعاً وبدون استثناء هذه الطبائع والصفات، فهناك شريحة منهم في منأى عن هذه الصفات، ومنهم بكل أسف مَن يتمثلها هدفاً وقاعدة في سلوكه يومياً وعلى مدار الساعة.

وبذلك كنت أجنب نفسي مغبة الانزلاق إلى خطأ التعميم، رغم أن ذلك كان يحدث لجهة المعاناة، ومشاعر الألم التي تحاصرني، وتطبق علّي لدرجة الاختناق عندما أجد منافقاً، أو كاذباً، أو مداهناً، أو رذيلاً.. يبتعد عني بعد أن أنجزت له طلباً، أو قضيت له حاجة كلفتني -على ضآلتي- الكثير من الجهد والمتابعة وربما التضحية..

إن النهاية والمحصلة كانت دائماً ذلك الشعور الرائع فيما كنت أسميه وأشعر به ولا أزال: بالسلام الداخلي، والرضا عن النفس، والالتزام بالتكوين الأول.

ولابد لي في هذا السياق من الاعتراف بأن هذا التكوين أضاع علّي الكثير من الفرص أو المكاسب التي تتاح لي... غير أنها في الواقع لم تكن في ناتجها نظيفة... لأن ثمنها سيكون باهظاً، إذْ كان محتّماً علّي أن أقبلها مضحياً ومتجاوزاً،

لقناعاتي، وقيمي.. وأخلاق أسرتي التي نشأت عليها، وكنت أتحصن بها دائماً أولاً، وأتحصن أيضاً بما تعلمته ثانياً، واقتنعت به من أصحاب الفضل والفضيلة،ومن تلك المقولات والحكم ما يمكن إيجازه فيما يلي:

- الأخلاق أولاً ثم العلم والدهاء.
- لا يغرنك امتداد سلطان المفسدين، فإن من حكمة الله أن لا يأخذهم إلا بعد أن لا يوجد من يقول عنهم: يرحمهم الله.
- ما رأيت سياسياً لا يكذب، ولا عسكرياً لا يتغطرس، ولا غنياً لا يبطر، ولا حديث نعمة لا يسخف.
- إن للشيطان دواباً يمتطيها ليصل بها إلى ما يريد من فتنة الناس وإيذائهم: علماء السوء، ومحترفو السياسة، وطالبو الزعامة، والمدّعون للفلسفة والحكمة، والآكلون باللحى والعمائم، والمنافقون الكاذبون، والمصفقون عن غير قناعة.
- لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنها لا تسمع، فما من بذرة طيبة إلا ولها أرض خصبة.
- ليس عليك أن تقنع الناس برأيك الحق، ولكن عليك أن تقول للناس ما تعتقد أنه حق.
- ثلاثة يضيعون الحق في ثلاثة مواطن: مخلص يسكن عند قوم مبطلين، وعالم يسكن بين قوم جاهلين، ومنافق يتقرب إلى قوم ظالمين.
- لا تجامل الناس على حساب ما يؤذيك في عقيدتك أو شعورك أو جسمك، وتلطف في ذلك بما لا تذم به.
- لو أنك تهيبت العمل خوفاً من الناقدين لما عملت أبداً، ولكن اعمل ما تعتقد صحته، وتكسب به ثناء العقلاء والمخلصين.

وعلى ذلك أجد من المناسب بعد الذي ذكرته كجزء مما تعلمته في مجال كشف الذات أن أسجل ما تعلمته أيضاً في مدرسة الحياة بحلوها، ومرّها مع ملاحظة: أن مرّها هنا مزدوج الطعم كما أراه:

١- في جانب منه مرارة حلوة وهي تلك المقترنة بالألم الناجم عن التمسك بالقناعة والقيم الذاتية والسلام الداخلي والالتزام بالحق.

٢- وفي جانبه الآخر مرارة كطعم العلقم عندما تجد من اعتقدتهم أحبة ومخلصين وصادقين يديرون لك ظهورهم وقفاهم بكل دناءة، وحقارة، وخسة... من طبقة النهّازين، والكاذبين، والمتسلقين للعام والخاص، وما أكثرهم بكل أسف.

وبعد فإن ما تعلمته في مسيرة الحياة أو لنقل جزء مما تعلمته ملّخص في التالي:

أولاً: توازن الحقائق:

يمكن تعريف الرجل المعقول في الحياة بأنه الرجل الذي يقرر كيف يوازن بين رغباته وبين ما يمكن عمله، ولا يوجد مكان يفعل به الشخص كل ما يريد إلا في الخيال.

أما في الحياة الواقعية فلا بد من إيجاد توازن بين الممكن والمراد، وفي حدود معينة يستطيع الشخص أن يقرر بإرادته الحرة أين يكون مركز التوازن بين الأمرين.

إن الحقيقــة تجابهنــا في الشــؤون العلمية في صورة معادلة أو سلسلة معقدة المعــادلات، والــذي نميــل إلى تســميته (حقائق الحياة)، وفي بعض الأحيان يمكن التعبير عن حدّي المعادلة تعبيراً كمياً بلغة المـال كمـا في العـرض والطلب، والدخـل والإنفــاق، والموجــودات والالتزامــات، والتصدير والاستيراد.

ويتوقف الاختيار السليم على مسألة: (أين يمكن؟ لا يمكن: هل يمكن؟):

تعديل حـدّي المعادلـة بحيث تحـدث الموازنة، وتكون الإجابة بنعم فهناك دائماً ما نسميه بـالتوفيق والتدبير إلا في حـالات التعارض مع الأخلاق والقيم والكرامة.

وفي حالات أخرى لا يستجيب الناس فيخطئون، لماذا؟

لأن جزءاً كبيراً من سلوك البشر هو اسـتجابة للصـورة الـتي في رؤوسـهم، فالسـلوك البشـري يحـدث متعلقـاً ببيئـة وهمية، وهـو تصـور لا يتفق تمـام الاتفـاق عنـد أي فرديـن، لأنـه لا يمثـل حقيقـة الأشياء، بل يمثل ما يظن كل من الفردين أنه حقيقة الأشياء.

ويعني ذلك أن النـاس في تصرفـاتهم يستجيبون لأفكـارهم وتصوراتهـم كمـا لـو كــانت هــذه التصــورات هــي الحقيقــة وبالتالي ينعدم التوازن بين حدّي المعادلة.

ولمـا كـانت الطبيعـة البشـرية هـي أشد أجزاء العالم الحي مرونة، وأقدرهـا علـى التشـكل والتعلـم، فإنهـا كذلـك أكـثر هذه الأجزاء تعرضاً لسوء التكييف وفساد التعلّم.

والـتراث الثقـافي الـذي يشـمل بنـاء الحيــاة الطيبــة كلــها ونســيجها كلــه، مكتسـب، وقـد يكتسـب علـى نحـو سـيء، وقـد لا يكتسـب علـى الإطـلاق لأنـه ليـس فطرياً...

وهكـذا فالثقافـة المكتسـبة لا تنتقـل عـبر الجينـات، لذلـك كـان أمرهـا دائمـاً محل شك، وإذا كان الحصول على الحياة الطيبة في المجتمع أمراً لا يمكن تحقيقه، فإنـه لا يمكـن الاحتفـاظ بـه والاسـتحواذ عليه إلى ما لا نهاية.

وهكـذا قـد يضيـع مـا تمّ الحصـول عليـه إذ لم تتنـاقل الأجيـال حكمـة الحيـاة الطيبـة في المجتمـع الطيـب.. واعتقـد أن هـذه واحـدة مـن معضـلات حياتنـا نحـن العرب.

ثانيًا: حرية الكلام والفكر:

أعـرف أن الكـلام عـن فلسـفة الحيـاة يثـير الكثـير مـن المشـكلات والكثـير مـن الخـلاف، وخاصـة مـا يخـص العقـائد، فقد لا يكون من الحكمة أن تثار المناقشة حول قضاياهـا، وأسـهل من هـذا أن نتبـع القاعدة القائلة بأن كل إنسان حر بعقائده الخاصـة وفي تفكـيره، وأن السـلوك العـام وحده ما يهم المجتمع.

هذا ما نحتاج إلى ترسيخه في أذهان أجيالنا تربوياً في البيت وفي المدرسة وفي سلوكنا السياسي والإداري.

هــذا مــع الانتبــاه إلى أن أحــداً لا يستطيع أن يسـوغ نظريـاً أو عمليـاً دعـوى وجـود حـق غـير محـدود لأي إنسـان في أن يقول أي شيء يريد في أي وقت شاء.

لقـد أشـار أرسـطو: إلى أن القـدرة على إثارة صعوبات للبحث عن جانبي أي

موضوع يسهل علينا معرفة مواطن الخطأ والصواب في شأن النقط العديدة التي تثار، فحق الحرية في الكلام من الوسائل الضرورية للوصول إلى الحقيقة، ولكن في حدود ما ذكرناه، شريطة أن لا تنفصل عن هدفها ومسوّغها الأصليين بوصفها عملية بناء هادف أو نقد هادف ضمن مناخ نزيه للحوار وذلك يقتضي النظر إلى حرية الكلام بمعنى المساجلة باعتبارها وسيلة لمواجهة الآراء بعضها ببعض كما يحدث في محاورات سقراط.

لكن إذا لم توجد المساجلة الحقّة، فإن حرية الكلام لا تحرز النجاح المطلوب لأنها تفقد المبدأ الذي ينظمها ويسوّغ وجودها، بمعنى الجدل الذي يدار على أساس المنطق وقواعد الاستدلال.

وبغير الحوار والمتوازن المساجلة الصادقة فإن الحق المطلق في الكلام خاصة عندما يغضب أحد الطرفين هذا الحق سيؤدي إلى إغراق المجتمع بأقوال الدعاة، والمنافقين، والمتسلقين، والكذابين، وربما البوّاقين واللصوص، مما سيكون نتيجته الحتمية تدهور الرأي، لأنه بمقتضى قانون (غريشام) ينتصر الرأي الأقل منطقية حيث يسيطر منطق القوة... ويصح القول هنا ((إن القوّة بلا أخلاق كارثة)) وينتهي الأمر بالناس إلى أن تصبح أقوى نوازعهم أن يقضوا على من لا يتفق معهم في الرأي خاصة إذا كان أحد طرفي الحوار هو الحاكم أو السلطة التي تمثله، وبالمقابل فإن الطرف الأضعف في هكذا حوار سيكون من أمنياته أيضاً أن يقضي على الآخر إلا أنه لا يستطيع الإفصاح عن ذلك.

وعندها لن نستطيع أن نطلب من كل الناس أن يكونوا مثل سقراط الذي رفض الهروب قبل إعدامه رغم إلحاح أصدقائه وتلامذته عندما ترك السجّانون باب السجن مفتوحاً...

ولكن المؤكد أن كثيراً من الناس سيهربون ليس بالمعنى والهدف الذي بنى عليه سقراط رفضه للهروب... بل سيهربون إلى الانتهازية والنفاق، واللامبالاة، والفرص السهلة، والمذلة.

وهنا سيلحق الإخفاق برأس المال الاجتماعي ويمرض المجتمع وسيعيش في حالة أشبه برقاد الموت وهو يقظ.

ثالثاً: الحدود وروح الحياة:

لا توجد نقطة نهائية يمكن أن يستريح عندها الإنسان، ففي تدفق الأشياء الذي هو سمة الحياة تضطرب الأمور وتختل موازينها ومهما يكن ما تصل إليه تجاربنا المحدودة من توازن، فهو توازن نسبي لأن كل شيء هو محاط بالضرورة بجملة من الأشياء..

ولأن روح الحياة وطابعها قائم أساساً على التغيير الدائم فإن مفاهيمنا بالضرورة غير قابلة كذلك للاستمرار والثبات، والقضيّة هنا مثل المعطف المصنوع من الصوف لا يمكن أن نلبسه في الصيف، ولكن الصيف سينتهي أيضاً لأنه عرضة للتغيير، لذلك كان من الخطأ أن نعتقد بأننا نستطيع لبس المعطف طول الوقت، كما أنه من الخطأ أن نلقي في الصيف بالمعطف بعيداً ونفترض أن الشتاء لن يعود مطلقاً.■

من محمد قجة

إلى روح الصديق المرحوم الدكتور زكي حنوش

حلب ٤/١٠/٢٠٠٥ م

يا زكيّ الرجال والفلك تجري
ويزفّ المساءُ لحناً كئيباً
سرتَ في زورق الغروب وحيداً
سنة الكونِ أن نزورَ الغروبا
غبتَ عن صبحنا وراءَ ليالٍ
تركتْ بيننا الأسى والشحوبا
أنا لا أعشق الظلام ولكنْ
أو تقوى الشموس ألا تغيبا
ودموع الفراق تحرقُ أجفاناً
وتفري لواعجاً وقلوباً
لحظات الرحيل ذوبٌ من النار
يشفُّ الشقاءَ والتعذيبا
تبرحُ الدارَ والأحبة باقون
وخطوا الزمان يمضي رتيبا
وخطا الراحلين آهاتُ غصنٍ
ظلَّ يبكي مغادراً لن يؤوبا
هكذا العيشُ، لستَ تبصرُ فيه
الغيثَ إلا بغيمة مصحوبا
يا صديقي أبا جهادٍ، ويا قلباً
نقياً، ويا رفيقاً حبيبا

كنت ما بيننا أخاً، صادقَ الودّ
أثيراً، ومجلساً محبوبا
وببحر العلوم قد كنتَ غواصاً
وفي غمرةِ الحياة نجيبا
وهوىً في الأوطان والأرض
والتاريخِ،قد عشتَه علاً ووثوبا
قد عرفناكَ في الصحابِ رضيّا
ونجّياً إلى القلوب قريباً
إنها رحلةُ الحياةِ، وإن غابَ
سراجٌ ،فوهُجه لن يغيبا
سوف تبقى أبا جهادٍ مناراً
عرفتْهُ البلادُ علماً وطيبا
ونضالاً ثرّاً نظيفاً تلاقى
كلّ حرّ في أفقه مشبوبا
عرفتكَ الأيام صَلْداً أبياً
عربياً، لم يهوَ عيشاً مَشوبا
امضِ في رحلةِ الخلود زكياً
باقي الذكر مَشرقاً ومَغيبا
سوف تبقى ذكراك فينا مناراً
وسراجاً وهادياً ومجيبا

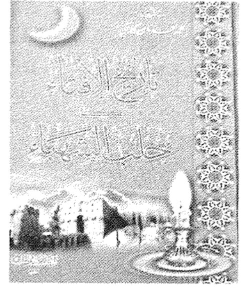
تاريخ الإفتاء في حلب الشهباء

أحمد حسن الخميسي*

حلب مدينة عريقة، اشتهرت بين المدن العربية والإسلامية برجالها الأعلام من القادة الأفذاذ الذين ضربوا أروع الأمثلة في الحكم ومقاومة الأعداء، وبعلمائها الأفاضل الذين عُرفوا بالعلم والفهم والتقوى.

وقد تميز من علمائها القضاة والمفتون الذين يرجع إليهم السائلون ليجدوا الجواب الشافي لما يقع لهم من مسائل وقضايا وأحكام.

وقد عُرف في عهد الصحابة والتابعين أناس لهم السبق في استخراج الأحكام والقدرة على الفتوى، وفي العصور التي تلت عهد الصحابة والتابعين آلت الفتوى إلى العلماء المتبحرين بعلوم الشريعة يفتون ويتحرون الصواب في فتاويهم، وكانت الفتوى عامة يتصدى لها كل عالم قادر على الفتوى متمكن من علوم القرآن والحديث ومطلع على أصول



الفقه وفروعه وكان العالم يفتي حسبة دون أن يأخذ أجرا.

وهذا الحال ظل سائداً في حلب إلى أن جاء منتصف القرن السادس الهجري، حيث تم في عهد الملك نور الدين محمود الزنكي تعيين قاضٍ للمدينة ومفتيين حنفياً وشافعياً، ثم أُنشئ للمفتي (دار العدل) ليفتي منها.

* إجازة في الأدب العربي.

واستمر هذا الحال إلى بداية العهد العثماني حيث أعاد السلطان سليم الأول ترتيب أمور الدولة سنة ٩٢٢هـ وفصل القضاء عن الإفتاء وجعل منصب الإفتاء مستقلاً، وصار المفتي في حلب تابعاً للمفتي الأكبر (شيخ الإسلام) في الأستانة وغدا منصب الإفتاء أعلى من منصب القضاء، وهذا الأمر يخول المفتي الأكبر (شيخ الإسلام) في الأستانة تعيين قاضي القضاة.

والتزم المفتي -في أيام الدولة العثمانية- المذهب الحنفي الذي هو مذهب السلطان والدولة وإلى جانبه مفتٍ على المذهب الشافعي.

وفي زمن الاحتلال الفرنسي الذي قطّع أوصال الوطن أصبح العلماء في كل مدينة ينتخبون لها مفتياً من بينهم يرتضيه الجميع لكي يقوم بالإفتاء.

وبعد استقلال سورية من الاستعمار أعيد تنظيم منصب الإفتاء وأصبح المفتي في كل مدينة مرتبطاً بالمفتي العام بدمشق

هؤلاء العلماء المفتون ذكرت سيرتهم في كتب التاريخ والتراجم وفي كتب ألفت عن علماء حلب، ولكن لم يفرد لهم مؤلّف خاص، إلى أن قام الأستاذ محمد عدنان كاتبي بتأليف كتاب عن تاريخ الإفتاء في حلب الشهباء.

كتاب تاريخ الإفتاء في حلب الشهباء

الدافع لتأليف هذا الكتاب هو الحب، فقد أحب المؤلف العلماء والمشايخ منذ صغره، ودرس وتربى على أيديهم إلى أن تخرج في جامعة حلب مجازاً باللغة العربية وآدابها من جامعة حلب، ولا يزال يجالسهم ويسمع منهم وينتفع بإرشاداتهم.

لقد أحسن في ترتيب الكتاب وموضوعاته، فقسمه بابين:

الباب الأول: تحدث فيه عن الفتوى في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعن الفتوى في الاصطلاح الشرعي، ثم تحدث عن المفتي وشروطه وآدابه، وعن المستفتي وآدابه، وعن مكانة الفتوى في الإسلام، وتهيب العلماء منها، وعن كتب الفتوى وتاريخ الفتوى في حلب ودور الإفتاء فيها، وعن الفتوى في القوانين السورية الحديثة.

وفي الباب الثاني: الذي شمل أكثر من ثلثي الكتاب، ترجم للمفتين في مدينة حلب الشهباء منذ منتصف القرن السادس الهجري، وصدر الكتاب بطبعته الأولى بسنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م عن مكتبة دار التراث - حلب- وبلغت صفحاته ٣٦٨ صفحة.

قدم للكتاب سماحة مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو -رحمه الله- والشيخ المربي محمد أديب حسون، والشيخ الدكتور أحمد بدر الدين حسون وكلهم أثنوا على المؤلف محمد عدنان كاتبي، وقرظوا الكتاب وما فيه.

وتحدث المؤلّف محمد عدنان كاتبي في مقدمة الكتاب عن أهمية علم التراجم عند العرب والمسلمين.

و ذكر أن مدينة حلب "مَنَّ الله عليها بمجموعة من العلماء والمؤرخين الذين أرخوا لهذه المدينة وترجموا لرجالها من العلماء والمحدثين والأدباء والشعراء والأمراء والولاة وغيرهم عبر العصور، غير أن أحداً لم يفرد الفقهاء وعلماء الشريعة والمفتين فيها بالترجمة والتأريخ وخاصة في القرون الأخيرة.

وتحدث عن خطوات تأليف الكتاب وأبوابه وموضوعاته ومصادره ومراجعه.

وذكر الأمور التي يتم على أساسها اختيار المترجم لهم، فقال: "عدت إلى كتب التاريخ والتراجم وطبقات الفقهاء وبحثت في طياتها عن الفقهاء الحلبيين الذين ولدوا ثم توفوا في مدينة حلب، ثم أولئك الذين نزلوا المدينة أو أقاموا فيها أو مروا بها، فرأيتهم أكثر من أن يحصيهم العد، فاستبعدت كل من لم يكن حلبي الأصل، ولم تكن وفاته في حلب بل نزلها لفترة من الزمن أو مر بها، أو أقام بها مدة، وبقي عددهم كبيراً جداً، عندها استبعدت كل من لم تنص كتب التاريخ والتراجم والطبقات على أنه أفتى، أو أُذن له بالإفتاء، أو تولى إفتاء دار العدل أو أسند إليه هذا المنصب بشكل رسمي أو تولى أمانة الفتوى أو كتابتها".

وختم مقدمته بقوله: "هذا جهد المقلّ أضعه بين يدي أهلي وأخواني في مدينة حلب فإن أصبت في شيء منه فذلك من الله وفضله وكرمه، وإن قصرت عن بلوغ الغاية والهدف، فذلك لضعفي وعجزي، وعذري في ذلك أني اجتهدت وأخلصت النية، ورحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي".

أما التراجم فقد ترجم المؤلف في الباب الثاني لمئة وخمسة عشر فقيهاً أولهم الشيخ حسين بن محمد "النجم" ت ٥٦٠هـ -١١٦٥م وآخرهم الشيخ الدكتور أحمد بدر الدين حسون وزعهم على عشرة فصول بدأها بتراجم المفتين في القرن السادس الهجري وأنهاها بالمفتين في القرن الخامس عشر الهجري وأثبت صوراً للمفتين المتأخرين.

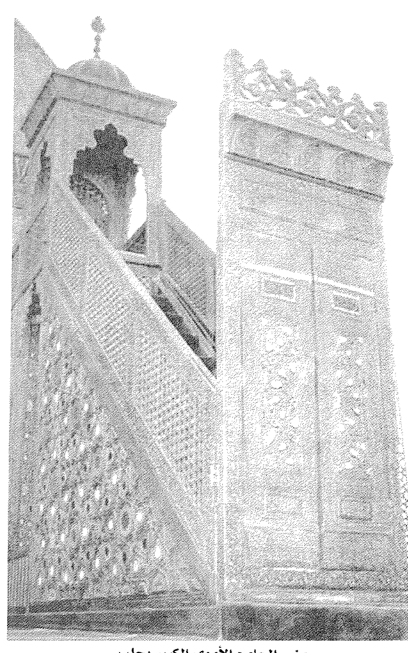
لقد جاءت التراجم الأولية مختصرة تتضمن الولادة والوفاة وبعض مؤهلات المفتي وشيوخه وذكر مؤلفاته إن وجدت، أما الذين جاؤوا في القرن الرابع عشر والخامس عشر فقد توسع في ترجمتهم.

نظرات في كتاب تاريخ الإفتاء:

إن هذا الكتاب سد ثغرة لما حواه من معلومات عن علماء شغلوا منصب الإفتاء في عدة قرون وقد ألف الكتاب بشكل يفي بالغرض، فقد قدم المؤلف في الباب الأول فكرة واضحة وكافية عن الإفتاء وتاريخه في حلب بعد أن عرّف الفتوى لغة واصطلاحاً وعرّف بالمفتي والمستفتي وزين الباب الأول بصور

لأبواب المدارس والدوائر التي كان يجلس فيها المفتي للإفتاء، وفي الباب الثاني أورد - كما ذكرنا - ترجمة للمفتين بكل أمانة ودقة.

ومما يميز الكتاب التوثيق الدقيق فذكر المؤلف المصادر والمراجع التي استقى منها معلوماته في آخر الكتاب، وذيّل كل صفحة بهوامش توضيحية، وقسم من معلوماته أخذها شفهياً من العلماء أنفسهم أو من أهليهم أو معارفهم أو ممن عاصروهم لذلك جاءت تراجم المتأخرين موسعة وشاملة، وأثبت صوراً لبعض الإجازات بالإفتاء وبعض القرارات لمجلس الإفتاء الأعلى في سورية، كما أن الكتاب يكاد يخلو من الأخطاء، وهو مبوب تبويبًا حسنًا، مما يدل على نشاط المؤلف وخبرته في التأليف، ولديه الآن كتابان قيد الطبع الأول (علماء حلب في القرن الرابع عشر الهجري) والثاني (التعليم الشرعي بحلب في القرن الرابع عشر الهجري) ندعو له بالتوفيق والسداد ■



منبر الجامع الأموي الكبير بحلب

الشيخ محمد راغب الطباخ

وكتابه "الثقافة الإسلاميّة"

عبد الرحمن حللي*

العودة إلى التاريخ القريب مهمة للحاضر أكثر من العودة إلى التاريخ القديم أحياناً، إذ تسمح برؤية نقدية للذات من خلال المقارنة مع تحولات وأحداث ما تزال حية في الذاكرة، وعودتنا إلى الشيخ محمد راغب الطباخ (١٨٧٧ - ١٩٥١م)[1] يمكنها أن تسهم في تقييم واقعنا وتحليل توجهاته ومساراته، فهو شخصية تميزت بالفاعلية الفكرية والثقافية والاجتماعية في مدينة حلب، فكان المؤرخ والمحدث وصاحب المطبعة ورئيس جمعية العاديات (١٩٣٤-١٩٣٩م)، فضلاً عن دوره الأهم وهو التعليم الديني فيما كان يعرف بالكلية الشرعية/ الخسروية (الثانوية الشرعية حالياً)، وسنحاول في هذه المقاربة التعرف على بعض آرائه وحال الحركة الفكرية في عصره من خلال مطالعة مقرر كان



يُدَرِّسه في تلك المدرسة عنوانه "الثقافة الإسلامية" كان ألفه عام ١٩٤٤ وطبعه ١٩٥٠ مع زيادات عليه (طبعه في مطبعته).

تعريف بالكتاب ومضمونه:

الثقافة الإسلامية مقرر عهد إلى الشيخ تدريسه في الكلية الشرعية ولم يكن له كتاب محدد، فقام بجمع شتات هذه المادة من مختلف المصادر لتكون بمثابة كتاب مدرسي بين الإيجاز والإطالة فكان

* مدرس في كلّية الشريعة - جامعة دمشق.

١- هو الشيخ محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي، مؤرخ حلب، ولد فيها سنة (١٢٩٣هـ=١٨٧٧م)، أنشأ المطبعة العلمية سنة (١٣٤١هـ) وهو أحد أعضاء المجمع العلمي العربي -بدمشق-، درَّس في الكلية الشرعية بحلب، ثم اختير مديراً لها، توفي في حلب سنة (١٣٧٠هـ=١٩٥١م)، من أشهر كتبه ((إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء- ط)) سبعة مجلات.

في حدود ٤٢١ صفحة، جمع فيه معلومات متفرقة بدءاً من حال العرب قبل الإسلام إلى عصر البعثة ونزول القرآن وتدوين الحديث وتعريف موجز بالعلوم الإسلامية وأطوارها وأشهر من ألف فيها وصولاً إلى الثقافة في عصره حيث قدم صورة شاملة لحالها في مختلف البلدان العربية.

يرى الشيخ راغب الطباخ أن الثقافة الإسلامية "هي تلك العلوم والمعارف التي تحلت بها الأمة الإسلامية بعد تلك الحالة التي كانت عليها الأمة العربية في عهد الجاهلية، بسبب بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتلك التي قام بها هو والصحابة الكرام والتابعون بإحسان ومن أتى بعدهم واقتفى أثرهم على ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم". فهو يربط هذا التعريف للثقافة بالمعنى اللغوي الذي عرضه والذي يدل على التقويم، وعليه كان مضمون كتابه العلوم والمعارف الإسلامية التي قومت حالة العرب قبل الإسلام وكيف استمرت هذه المعارف في التاريخ الإسلامي.

إذاً يمثل الكتاب تعريفاً عاماً وشاملاً بهذه المعارف، لكن اللافت للنظر أنه كتاب مدرسي في العلوم الشرعية ويحتوي على هذا القدر من المعلومات الثرية التي توجز تاريخ المعارف الشرعية مما لا يتوفر عليه الآن حتى خريجو الجامعات الإسلامية، فالكتاب كما أشرت ألّف للتدريس في الكلية الشرعية وهي أرفع المدارس الدينية آنذاك، إذ كانت منظمة ومنهجية بخلاف المدارس الأخرى التي انتقدها الشيخ راغب بقوله "أما المدارس الدينية فإنها منذ مدة طويلة ليس فيها شيء من التنظيم ومن دخل إليها لا يخرجه منها إلا الموت مهما طالت مدته فيها وليس فيها برامج للتعليم. والتعلم والتعليم فيها كيفي ومع ذلك فقد أخرجت علماء فضلاء فطاحل، إلا أن هؤلاء كانوا يعدون بالأصابع في كل بلدة" ص:٣٨٩، وأشار إلى نية إصلاح تلك المدارس وإدخال شيء من التنظيم فيها، وعزز نقده للمدارس الدينية بنقده المطول للتصوف وبيان العناصر الإيجابية والسلبية فيه.

وجه آخر في الكتاب يعكس رؤية رحبة وحيادية معرفية لا تجدها لدى معظم دارسي ومدرسي العلوم الشرعية اليوم إن لم نجد عكسها، فنجد أسماء أعلام مرجعية للكتاب متنوعة بدءاً من الجاحظ وابن خلدون والشاطبي وليس انتهاء بمحمد عبده وأحمد أمين.

الحركة الفكرية في عصره:

يفصل الحديث في آخر الكتاب عن حال الحركة الفكرية في القرون الأخيرة إلى عصره فيبدأ بتعليل ضعف العلوم وانحطاطها في القرون الأخيرة باستيلاء السلطان سليم العثماني على البلاد السورية والمصرية واستيلاء السلطان مراد على بلاد العراق، مستثنياً الأستانة لقوة السلطان وافتتاح المدارس فيها لكن ذلك لم يستمر، فعم الضعف علماً وسياسة واقتصاداً، وقلت العناية في سائر

العلوم إلا الشيء النزر من العلوم الدينية والعربية التي كانت منحصرة في مدارسها الموقوفة عليها، وغلبت الأمية في بقية البلاد الإسلامية.

استمر ذلك إلى الحملة الفرنسية على مصر فصَحَت الدولة العثمانية إلى أهمية التعليم دون جدوى، إلى أن بدأت النهضة لاسيما في مصر التي يلخص أسباب النهضة الأدبية والفكرية(٢) فيها بما يلي:

- اتصال المدنية الغربية بالمدنية الشرقية من أوائل القرن الماضي.
- ازدياد عدد المستعربين بأورية والشرق وسعيهم المتواصل في إيجاد المطابع وطبعهم فيها نفائس كتب العرب.
- إيجاد المدارس النظامية المتعددة.
- البعوث العلمية الذين أرسلهم محمد علي باشا ثم إسماعيل باشا لممالك أوربة لتلقي العلوم المختلفة.
- شيوع تعلم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها إجبارياً في مصر والشام، ما أدى إلى نقل كثير من الأساليب والمعاني الإفرنجية التي يقبلها الذوق العربي، وترجم منها ألوف الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية إلى العربية.
- إيجاد المطابع العربية في مصر والشام والقسطنطينية وطبعها كثيراً من الصحف السيارة وكتب العلم والأدب
- تنظيم التعليم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية ودور الشيخ محمد عبده في ذلك.

أما سوريا فقد ظلت الأمية متفشية فيها والجهل عام والتقدم بطيء إلى أن حصلت الحرب العامة وتقلص ظل الدولة العثمانية على هذه البلاد التي كانت غالّة الأفكار والأقلام وجاعلة تعليم العلوم في مدارسها الابتدائية والتجهيزية باللغة التركية حتى العلوم الدينية والعربية. إلا أنه بعد إعلان الدستور فتح في سورية بعض المدارس الأهلية وصارت العلوم تدرس باللغة العربية.. وتعززت بعد الحرب العالمية إثر دخول الملك فيصل ابن الشريف حسين وافتتاح كليتي الحقوق والطب في دمشق، وخطت البلاد خطوات حسنة لكنها كانت على برامج الاستعمار وهي بحاجة على تعديل كبير بعد الجلاء من أجل نهضة في الزراعة والصناعة والتجارة. ص ٣٨٥، ثم ينقل إحصاءات متنوعة حول التعليم في سورية من عام ١٩٤٨م حيث بلغ عدد الطلاب في مختلف المدارس إضافة إلى الجامعة السورية (٢١٠٦١٠) طالباً ٣٠٠٠ منهم في الجامعة، فيما بلغ عدد سكان سورية لعام ١٩٤٧م ٣٠٤٣٣١٠ نسمة .

ويرى أن بيروت كانت أسبق البلاد السورية في النهضة الفكرية والأدبية بما أسس فيها من المدارس الأجنبية

٢- يعتمد في ذلك على كتاب "الوسيط في الأدب العربي" للأديبين الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني، وعادته في كتابه أنه يكثر النقول عن غيره لاسيما عن معاصريه فيما لا صلة له مباشرة به من موضوعات.

والحكومية، كما أسست فيها جمعية المقاصد الخيرية التي كان لها الفضل في تلك النهضة.

أما تونس فقد تنشطت بعد الحرب العظمى والفضل فيها يرجع إلى جامعتها الدينية التي تعرف بجامع الزيتونة الذي لم يكن أقل أثراً في تونس من الأزهر في مصر، ويشيد بما أدخل على الزيتونة من إصلاحات كان لها نفع مبين رغم ضجة من يرغب بقاء القديم على قدمه، ويشير إلى ما فيها من جمعيات ومكتبات ومدارس، ومجلات وجرائد راقية، ويذكر تأسيس حزب العمال التونسي وزيارة زعيمه الشاب الحبيب بورقيبة الذي يصفه بالمجاهد إلى مدينة حلب وإلقائه محاضرة في جمعية البر والأخلاق الإسلامية وفي مقر الحزب العربي القومي، يوم ١٩٤٦/٩/١، مستصرخاً مساعدة الحكومات العربية لمساعدة البلاد التونسية والمغرب الأقصى تجاه الاستعمار الفرنسي، ويذكر من أثر النهضة الفكرية في تونس أن انبثقت منها فكرة الدعوة إلى مؤتمر الأدب العربي وقد وجهت الدعوة لذلك وأسست لجان للمؤتمر لكن حالت الحرب من اشتراك رجال الأدب في الأقطار العربية، ويختم الحديث عن نهضة تونس بأنها كانت مندغمة بالدعوة المحمدية فلا فرق فيها بين الحركات الإسلامية والعربية.

أما نهضة الجزائر فقامت على أيدي جمعية العلماء المسلمين التي قاومت الطرقية الذين كانوا دعامة الاستعمار ويده التي يبطش بها، فقامت الجمعية بتعليم الأميين ونشر العلم ومكافحة التفرنس، ثم تم تأسيس حزب المؤتمر، وإصدار جريدة الشهاب، هذا إضافة إلى مجلات وجمعيات أخرى، أما بلاد المغرب الأقصى فقد تأخرت الحالة العلمية والفكرية فيها نظراً لتسلط عدة دول أجنبية عليها، مشيراً إلى دور جامعة القرويين وعلاقة بعض الشبيبة المغربية بجمعية العلماء المسلمين بالجزائر.

ويشيد بنهضة العراق العلمية والصناعية بعد أن ترك الأتراك العراق خراباً يباباً لا أثر فيها لحضارة أو عمران، فبدأ العراقيون بالبناء من الصفر وأسسوا مدناً جديدة بجانب القديمة، كما أنشئت المعامل والصناعات الحديثة، وشهد التعليم تطوراً مهماً في مختلف مجالاته، وتعتبر المدرسة الأعظمية هي الأهم وتختص بتدريس العلوم الدينية والعربية.

وباستثناء بيوت بعض علماء نجد والأحساء فإن بلاد العرب كانت خلواً من المدارس بمعناها المعروف، وكل ما كان في الحجاز هو حلقات الدروس في المسجد الحرام على نظام التدريس في الأزهر قديماً، وفي أيام الملك ابن سعود قامت حركة لا بأس بها في التعليم لكنها أقل بكثير مما كان ينتظره الناس من رجل عظيم مثله، على أن هذه المدارس التي أسست بالحجاز لا يشمل برنامجها أكثر من برنامج المدارس الابتدائية الأخرى والتعليم فيها سائر على الطرق القديمة

البالية من الاعتماد على الحفظ دون التفكير. ثم يلخص نظام الدراسة والتعليم فيها وأهم المدارس والمكتبات التي كانت في الحجاز في عصره . ولم يكن حال اليمن بأفضل من غيرها بعد خروج العثمانيين فكان للإمام يحيى بعدهم دوره في فتح المدارس الحربية والعلمية، كما بنى مكتبة الجامع الكبير في صنعاء.

ويختم الحديث عن الحالة الفكرية في عصره بقوله: "والخلاصة أن البلاد العربية وبقية البلاد الإسلامية قد ظهرت فيها بوادر النهضة العلمية والأدبية والفكرية، ابتدأت في بعضها منذ مئة وثلاثين سنة، وبعضها أسبق من بعض كما قدمنا. بيد أن هذه النهضة يجب أن يصحبها التربية الحقة والتمسك بالأخلاق القويمة على مقتضى ما جاء به الكتاب ونطقت به السنة . وأن ينبذ ذلك التقليد الأعمى للأمم الغربية وأن يطرح ما هي عليه من قبيح العادات التي يشكو عقلاؤهم منها ولا ترضى بها العقول السليمة والمدنية الفاضلة.".

الخاتمة:

هذه المطالعة في كتاب الثقافة الإسلامية للشيخ محمد راغب الطباخ تدعونا لأن نسجل بعض الملاحظات ذات الصلة بواقعنا المعاصر بعد أن نستحضر دور الشيخ راغب التعليمي، ولاسيما الكلية الشرعية، فالتعليم الديني اليوم يفتقر افتقاراً كبيراً إلى شخصية مثله سواء من حيث العلم أم من حيث الوعي بالعصر الذي كان يعيش فيه وسعة أفقه واستيعابه للمتغيرات، بل لم يقتصر بذلك الوعي على شخصه إنما عممه على الطلاب الذين يدرسهم، فاسم الكتاب نفسه يعكس تطوراً في التعليم الديني في تلك الفترة، ومضمونه يعبر عن عمق التعليم وسعته، فمن مفردات المقرر ذاك إطلاع طلاب العلم الشرعي على مستجدات الحالة الفكرية وأنظمة التعليم وأحدث الإحصائيات حوله في ذلك العصر، بينما يفتقر طلاب الجامعات الإسلامية إلى هذه المعلومات اليوم، فمضمون كتابه هو أعمق وأوسع من الكتب الجامعية المقررة على طلاب الجامعات وهو يصفه بأنه بين الإيجاز والإطالة يناسب طلاب عصره.

من ناحية أخرى يصرح الشيخ في غير مكان بنقده للمدارس الدينية وطرق التعليم فيها وينتقد من يعارض تطويرها وتنظيم التعليم فيها، ولعل كتابه يأتي في سياق ذاك التطوير للتعليم، بل إنه يعمم دعوته تلك لكل مجالات التعليم ويعتبرها لا تقل أهمية عن التعليم الديني.

إن الدرس الذي نستفيده من الشيخ راغب الطباخ وكتابه الثقافة الإسلامية في التاريخ القريب هو تقييم حال التعليم عموماً والشرعي منه بالخصوص، حيث هو بحاجة اليوم إلى رؤى تحمل رؤية الشيخ راغب منتصف القرن العشرين، ليتم تطويره من حيث العمق والموسوعية العلمية من جهة ومن حيث سعة الأفق والوعي بالعصر من جهة ثانية.■

ملف الأطفال

أعدته: زكيـه حرخ

أحبائي..
سعيدة الأيام التي ستكون بيننا
صلة وصل، لعلنا من خلال هذه الواحة
الظليلة المليئة بالورود والكلمات الحلوة أن نعبر
عمّا نريده نحن وبكم نستطيع أن نعرف ما تريدون أنتم..
أصدقائي هذه نافذة لكم تستطيعون من خلالها أن تعبروا عن رأيكم
وأن تشاركوا في ملء هذه الواحة بغراسكم الجميلة التي تعبر عما تريدون
منا، إذ ستكون معكم دائماً نستمع لآرائكم ونقتطف بعضا من زهوركم
علنا نبقى على تواصل دائم...
وهذه دعوة مليئة بكل الحب والودّ لكل من يريد أن يكون صديقاً
لهذه الواحة التي نتمنى أن تستظلوا بفيئها
وتنعموا بظلها لعلكم تجدون
الفائدة والمتعة
والترفيه..

نحن سنطلّ عليكم من آونة لأخرى من خلال ما نقدمه لكم من معلومة وقصة وطرفة. ونتمنى عليكم أحبائي أن تشاركونا برسائلكم التي تتضمن اقتراحاتكم وآراءكم والتي ستكون بكل تأكيد غالية وستلقى كل اهتمام منا في مجلتكم مجلة (العاديات) التي تعنى بشؤون الآثار والفكر والتراث والطفولة..

راسلونا على العنوان التالي: مجلة العاديات: ص.ب ٦٤٧٤
هاتف وفاكس: ٢٢٦٧٦٧٤ - ٢٢٨٥٧٣٠
البريد الإلكتروني adyat@scs-net.org

* صحفية.

زيارة إلى جمعية العاديات

عــــاد التلاميـــــذ إلى صفوفـــــهم ومقـاعدهم الـتي اشـتاقوا إليـها بعـد أن أمضــوا عطلــة الصيــف في المطالعـــة والسفر والمتعة وممارسـة هواياتهم الـتي يحبونها خارج أوقات الدراسة كالسباحة وكرة القدم وزيارة الأماكن السياحية مع ذويهم في رحلات ترفيهية.

ســلم الجميــع علـــى أصدقائـــهم ورفاقهم وعلى معلميهم. وبعد مضي يوم كـامل تسـلموا فيـه الكتـب والبرنـامج الدراسـي سـألت معلمة الصف السـادس طلابها: سنذهب بعد عدة أيام لزيارة مكان تسمعون عنه ولكنكم قد لا تعرفونه فما رأيكم بزيارة مبنى جمعية العاديات؟

أجـاب الجميـع: العاديـات !! اسـم يعـني الكثـير ولـه تفاسـير كثـيرة فـهلا ساعدتنا في معرفة معناه الذي أراده له أصحابه؟

قالت المعلمة هذا ما سنعرفه حين نزور جمعية العاديات التي تعنى بشؤون التراث والفكر والبحث والطفولة أيضاً فقد سمعت أنهم يصدرون مجلة فصلية تدعى أيضا (العاديات) وقد طلبت من ابني أن يحضرها لي كي أطلع عليها...

في يوم السبت اجتمع جميع الطلاب في باحة المدرسة واتجهوا بسيارة نقل كبـيرة (البـــاص) إلى جمعيـــة العاديــات وعندما وصلوا إليها استقبلهم رئيسها الباحث الأستاذ محمد قجة فرحب بهم أجمل ترحيب ودعاهم للدخول إلى مبنى الجمعيـة إلا أن الأطفـال طلبـوا مـن معلمتهم أن تلتقط لهم صورة عند مبنى الجمعية الجميل، وبعدها دخل الجميع وتجولوا في قاعات هذه الجمعية ورأوا البناء التراثي القديم الذي تعتز به هذه الجمعية..

ثم دعاهم رئيس الجمعية إلى قاعة الإدارة ليحدثهم عن نشوء هذه الجمعية فقال:

تأسست الجمعية بتاريخ٢/٨/١٩٢٤. تحت تسمية "جمعية أصدقاء القلعة والمتحف". وكان أول رئيس لها المؤرخ كامل الغزي. وقد عملت الجمعية منذ تأسيسها على حماية آثار قلعة حلب، وساهمت في تأسيس متحف حلب الوطني.

وسأل أحد الأطفال: ولكن ما معنى اسم العاديات؟

❖ تم إطـلاق تسـمية "جمعيـة العاديات" باقتراح من رئيس الجمعية الشيخ كامل الغزي، وذلك عام ١٩٣٠ وتعني كلمة "العاديات" الأشياء الموغلة في القدم فكأنها من أيام "عاد".

وسألت تلميذة أخرى متى أصدرت الجمعية أول مجلة أو صحيفة؟

❖ أصدرت الجمعية عام ١٩٣١ مجلة "العاديّات السورية" وهي من أقدم المجلات الآثارية في الوطن العربي، واستمر صدورها حتى الحرب العالمية الثانية. ثم توقف هذا النشاط بسبب فترة الحرب واستعادت الجمعية نشاطها عام ١٩٥٠، أي بعد نهاية الحرب، حيث استعاضت الجمعية عن المجلات الشهرية بكتاب سنوي كبير تحت عنوان "عاديات حلب" يصدر بالتعاون مع جامعة حلب بالعربية والإنكليزية والفرنسية.

وسألت المعلمة هل شاركت الجمعية في إحياء التراث؟

❖ شاركت الجمعية في لجنة "منبر المسجد الأقصى" وتشارك الجمعية في العديد من الندوات والمؤتمرات العربية والعالمية ومؤتمرات المدن العربية. كما ترأست الجمعية الاتحاد العربي للجمعيات الآثارية. وتشارك الجمعية في عدد من اللجان ذات الصلة بمدينة حلب القديمة والتراث والعمارة والتاريخ.

- توسع مجال عمل الجمعية من حيث الاهتمام بالتراث بمفهومه العام: عمارة وفكر وفن وحياة اجتماعية. كما ازداد عدد لجانها وتعمق عمل هذه اللجان. وتتعاون مع الجهات ذات الصلة المشتركة مثل جامعة حلب ومعهد التراث والنقابات العلمية وبخاصة نقابة المهندسين.

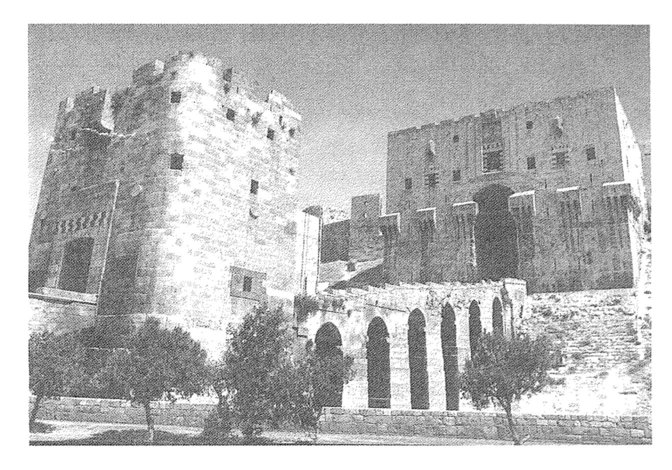
وهل للجمعية فروع تدعمها وتمدها بالمعلومات من بقية المناطق؟

❖ للجمعية عدد من الفروع في المحافظات السورية. ويغطي نشاطها أراضي الجمهورية العربية السورية. وقد حققت قفزة ثقافية وإعلامية، وأصبح لها حضور واسع على الساحة المحلية والعربية وهي تتعاون مع سائر الجمعيات العربية والعالمية المهتمة بالآثار والتراث.

وفي نهاية الزيارة شكرت المعلمة وطلابها للأستاذ محمد قجة هذه المعلومات والتوضيحات التي قدمها لهم وعرفهم بهذه الجمعية ذات القيمة الإنسانية والتراثية ووعدت أن تحدث عنها إدارة المدرسة وتدعوهم لزيارتها.

جولة في بلادي

حلب ومعالمها الأثرية



أعزائي في هذا العدد سأعرّفكم على مدينة حلب، أعرق مدينة من مدن العالم المأهولة حتى الآن والتي يزيد عمرها على عشرة آلاف سنة. ثم سنزور أماكنها الأثرية ولكن ليس دفعة واحدة ففي هذا العدد سنفصل الحديث عن الخانات.. وسنعرض بعض المعلومات ومنها:

الموقع:

حلب.. تقع شمال سورية وتعد ثاني مدينة فيها وكانت عاصمة العموريين، قبل الميلاد غزاها الحثيون ثم الميتانيون ثم الآشوريون ثم البابليون ثم الفرس ثم اليونانيون ثم الرومان.

ضرب الفرس مدينة حلب مرتين في القرن السادس الميلادي. فتحها المسلمون بقيادة (أبي عبيدة بن الجراح) عام /٦٣٦/ ميلادي. ونظراً لأهميتها التاريخية اعتبرتها منظمة اليونسكو مدينة تاريخية مهمة لاحتوائها على تراث إنساني عظيم يجب حمايته.

اسم حلب في التاريخ:

ليس هناك تحديد مؤكد عن أصل كلمة حلب وفي تفسير الأسدي لمعنى كلمة حلب ذكر أنها مؤلفة من كلمتين (حل - لب) أي مكان الشجاعة. وقد ورد في الأساطير أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد خيم في مرتفع أصبح فيما بعد قلعة حلب وراح يحلب بقرته الشهباء اللون فأُطلق على المدينة الاسم (حلب الشهباء) وقد ورد ذكر حلب في رُقم مملكة إيبلا باسم /أرمان/ كما ورد اسمها /حلب/ في رُقم ماري وقيل إن كلمة حلب تعني في اللغة العمورية /معادن الحديد والنحاس/ أما في اللغة السريانية تعني /البياض/ نسبة إلى بياض تربتها وحجارتها.

وتتمتع حلب بالمناخ المتوسط المعتدل ذي الشتاء القصير البارد والرطب، والصيف الطويل الحار والجاف، ويتميز هذا الموقع -نظراً لبعده عن الساحل- باتساع الفروق الحرارية بين الليل والنهار وبين الصيف والشتاء.

السكان: ويبلغ عدد سكان محافظة حلب حوالي خمسة ملايين نسمة ومساحتها /١٨٥٠٠/ كيلو متر مربع وتشكل هذه المساحة حوالي ١٠٪ من مساحة سورية.

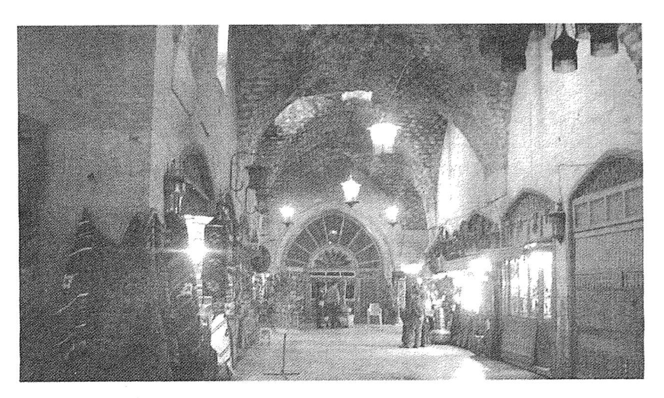
المعالم الأثرية:

الخانات حكاية يرويها التاريخ

الخانات أبنية سلطانية مهيبة كانت تحمل أسماء مؤسسيها وتقوم بالنيابة عنهم في استقبال الزوار. وهي مؤسسات حكومية، أو بمثابة فنادق ومعارض تجارية غير ريعية، أي لا ينظر منها أن تغطي نفقاتها، ولها أوقاف تنفق عليها مع دعم حكومي "الضيافة يتحملها السلطان"، إذ فاتورة الحساب يسددها النزيل كما يريد، حسب إمكاناته، فإذا كان معسراً، فإنه يعفى من الدفع، وإذا كان ميسورًا، فإنه يتفق مع إدارة الخان، على مبلغ اسمي، له صفة تشجيعية. وهذا ما تؤكده لوحة محفورة على الحجر، على باب أحد الخانات في حلب، من الفترة العثمانية الباكرة، تقول اللوحة: "قد بنى هذه الواحة لوجه الله تعالى مراد جلبي، فمن منع فقيراً أو دوابه، فعليه لعنة الله، وملائكته، والناس، بطرق شتى".

الخانات: إن أول من أنشأ الخانات في التاريخ هو قورش الأخميني الفارسي "٥٦٠ - ٥٢٩ ق.م"، وسماها "اوخانة" وجعلها على الطرقات لاستقبال القوافل والجيوش.

وكلمة خان، فارسية، استعملها الأتراك، وهي تعني المكان الرفيع، أو القصر أو البيت، ونجد في البادية منشآت حصينة، من العهد الروماني، سماها العرب خانات "خان التراب، وخان الحلابات". وكان التجار محليين أو أجانب هم أهم نزلاء الخانات، والصنف الآخر كان من عابري السبيل، وهم من العلماء، والفقهاء، والشعراء، وطالبي المجد والشهرة الذين كانوا يتجولون بكل حرية في أرجاء الوطن العربي والإسلامي



وعرفت حلب، بدءا من العصر المملوكي، ازدهارا تجاريا تجلى في ارتفاع دخلها وفي عدد خاناتها المملوكية الضخمة كخان القصابية - خان الصابون- خان خاير بك" أو في اتساع أسواقها، فضلا عن تكوين أراض واسعة مسكونة، تشكلت على طرق القوافل وبخاصة حي الجديدة.

وفي الفترة من أواسط القرن الخامس عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلاديين - ازدهرت مؤسسات سميت بالخانات، كثيرة ولافتة للنظر وبخاصة في العهد العثماني. وازدياد عدد الخانات عنوان ازدهار التجارة، وشاهد على الصلات الواسعة التي ربطت حلب بالغرب. ثم هي دليل تذوق فني. فلم تكن الخانات حوانيت ضخمة من الحجر فحسب، بل ظهر في بنائها فن يدل على ذوق أصيل. وأشهر خانات حلب هي:

القاضي - البنادقة - الصابون - القصابين - خاير بك وخان الوزير وهو أجمل خانات حلب، وخان الشونة وهو سوق للمهن اليدوية بني في عهد الوالي العثماني خسرو باشا منذ أكثر من /٤٥٠/ سنة.

مهام الخان:

وللخان مهام كثيرة فهو حصن تلجأ إليه القوافل للمبيت والتزود بالحاجات وتبادل البضائع، وفندق يتخذه القناصل ووكلاء الشركات لسكناهم ولعملهم السياسي والتجاري. لذلك فهي أبنية شيدت لأغراض التجارة والصناعة والإقامة والسياحة معاً.

وبلغ عدد خانات حلب في أوجها ثمانية وستين خاناً وبهذا تكون حلب المدينة الوحيدة في الشرق تقريبا تضم مثل هذا العدد الكبير من الخانات، وذلك آية ازدهار التجارة في هذه المدينة العظيمة. ويبلغ عددها حالياً /٢٣/ خانا.

وصف الخان:

ويبنى الخان بصورة عامة من الحجر الضخم المتين. وأكثر الخانات على شكل مربع يبلغ طول ضلعه من أربعين إلى ستين متراً، وسمك جداره متراً، إلى متر ونصف بداخله باحة تشرف عليها أجنحة الخان من الداخل، وفي منتصفها مسجد صغير بشكل مربع أو مثمن.

ويتألف الخان عادةً من طابقين يبلغ ارتفاعهما معاً (من ٧ ن إلى ٨ أمتار).

في الطابق الأرضي غرف متعددة تحيط بالباحة، وكل غرفة منها تتألف بدورها من غرفتين: إحداهما صغيرة تشرف على الباحة وهي للاستعمال العادي، وأخرى كبيرة تستعمل لخزن البضائع. وقد تتخذ بعض من تلك الغرف حوانيت تشرف على الشارع وتؤجر للتجار.

أما الطابق الثاني فهو مخصص لنزول المسافرين. فيه غرف نوم متجاورة، وأمامها رواق طويل من إحدى جهاته ويشرف على ساحة الخان. والغرف في هذا الطابق على نوعين: قسم فخم لمبيت التجار الأغنياء وفيها كان القناصل يسكنون ويتخذون مراكزهم، وقسم متواضع مخصص لنزول المسافرين العاديين.

والخان بعد هذا -منيع وملائم- بجدرانه العالية السميكة، وببابه الكبير من الحديد، الذي يفتح للقافلة عندما تدخل، ثم يغلق بعد دخولها. وفي منتصفه الأسفل (باب صغير يترك مفتوحاً لأنه لا يتسع إلا لمرور شخص واحد وفي الخان جنود مخصصون من قبل الوالي للحراسة والدفاع عنه عند الحاجة. وهو مريح حيث تجد فيه مكاناً للمبيت، وقرب الباب قسطل ماء ليشرب منه المسافرون وحيواناتهم. والخان مكان عبادة، ففي أكثر الخانات مساجد، وفي بعضها كنيسة وحوانيت فيها تسهيلات التجارة كاملة.■

قصّة

اقترحت المعلمة على طلاب صفها أن يذهبوا في رحلة إلى إحدى المناطق القريبة من مدينتهم ليشاهدوا المناظر الجميلة والآثار الفخمة التي تعبر عن عظمة الماضي وما بناه الآباء والأجداد تخليدا لهم ولذكراهم ..

قالت المعلمة: يا أبنائي الآن عليكم أن تخبروا والديكم بأمر هذه الرحلة لكي يسمحوا لكم بالذهاب أولا، ثم لتجهزوا أموركم وما تحتاجونه في هذه الرحلة من طعام وشراب وآلة تصوير وثياب مناسبة للذهاب إلى مثل هذه الأماكن..

سرّ الأطفال بهذه الفكرة وبدؤوا يتحدثون مع بعضهم بصوت منخفض كيلا يزعجوا معلمتهم ولا يؤذوا أحداً بضجيجهم، واتفق الجميع على إخبار أهلهم بموضوع الرحلة هذه..

انصرف الأطفال فرحين بما سمعوا من معلمتهم وقرر كل واحد منهم أن يقنع والديه للسماح له بالمشاركة في هذه

الرحلة.. راما وفادي أخوان توأمان يجلسان في مقعد واحد ويدرسان ويحفظان دروسهما معاً لذلك تحبهما والدتهما كثيرا ولا ترفض لهما طلبا أبداً، لما عادا إلى المنزل كانت أمهما بانتظارهما ولما رأتهما سرت بعودتهما سالمين ودعتهما إلى تناول طعام الغداء بعد أن يغسلا أيديهما.

بعد الغداء وعودة الوالد سارعا لسؤال والديهما عن موافقتهما على المشاركة بالرحلة مع رفاقهما في المدرسة وحددا المكان والزمان لهما، فوافقا وأعدت الأم ما يلزم من حوائج وأطعمة لولديها الغاليين، وفي اليوم الموعود أيقظتهما باكرا ليستعدا بشكل جيد وأعطتهما ما أعدته لهما وودعتهما داعية بسلامة الوصول والعودة..

صعد الأطفال السيارة الكبيرة (الباص) وهم فرحون مسرورون يغنون وينشدون، يرقصون ويصفقون، أما راما فقد كانت متيقظة جدا فها هي تحمل آلة التصوير بيدها كما طلبت منها والدتها لتلتقط صور المناظر الجميلة التي تراها في الطريق.

لما وصل الأطفال إلى الحديقة التي اختارتها المعلمة ليستريحوا فيها ويأكلوا طعام الفطور نزلوا بنظام وبدون إزعاج وتناولوا فطورهم المعد من الفطائر والشطائر المنزلية وأكواب الشاي المصنوعة من البلاستيك الأبيض، انتهى الجميع من تناول طعامه فنظرت المعلمة إليهم قائلة: ليرم كل واحد منكم فضلات طعامه وكأس الشاي في المكان المناسب، جمع الأطفال بقايا الطعام والأوراق والكؤوس البلاستيكية ووضعوها في كيس كبير وربطوه ثم وضعوه في حاوية قريبة، التفتت راما فرأت أخاها فادي لا يزال يشرب الشاي في كأس آخر اقتربت منه وسألته ألم تنته بعد من شرب الشاي..؟ ألم تر أننا وضعنا كل الفضلات والأوراق والكؤوس الفارغة في الحاوية.. ؟ رفع فادي عينيه دون أن يرفع رأسه نحوها، ولم يتكلم بل حرك حاجبيه قليلا بين نعم ولا، ولا ونعم!! .

نادت المعلمة : هيا يا أولادي نريد الانطلاق إلى الغابة القريبة من هنا فقد صار وقت رحيلنا إليها..

هب الجميع مسرعين وهم يحملون حاجياتهم وصعدوا الباص وهم يغنون ويرقصون، وجلس كل واحد مكانه. راما لم تكن سعيدة بل شعرت بشيء من الحزن ، قالت لأخيها: هل انتهيت من شرب الشاي ؟ قال فادي: نعم .



قالت: وأين سترمي الكأس الفارغة يا أخي العزيز..؟

قال: هنا . لا سأرميه من النافذة. ما رأيك..؟ إذا رميته هنا سيراه الجميع ويضحكون مني، أما من النافذة فلن يراني أحد.. سأرميه من النافذة إذاً..

قالت راما: إن رميته هنا أفضل من أن ترميه من النافذة فهنا ستتذكر أنه عليك رميه في الحاوية عندما نصل إلى الغابة .

قال فادي: لا . سأرميه من النافذة كي أتخلص منه تماماً فلا أحمله ولا أنزله ولا أي شيء..

قالت راما: أأنت مصمم..؟ . قال: نعم.

صمتت راما وجهزت نفسها لتعمل شيئاً يثبت لوالديها ما قام به فادي من عمل قبيح.

وبينما يستعد فادي لفتح النافذة ورمي الكأس منها، كانت راما قد جهزت آلة التصوير وفي اللحظة التي رمى فادي الكأس كانت راما قد التقطت الصورة التي لا يمكن أن يمحوها أي اعتذار مهما كان أمام والديه اللذين أصرا على توصيتهما أن (حافظا على نظافة البيئة..)■

طفل متفوق في أداء الحكاية الشعرية يزور الجمعية

الطفل عبد الرحمن سهيل الطويل نجح إلى الصف السادس بتفوق في كافة دروسه، يدرس في دولة الإمارات بسبب وجود والديه هناك وعمل والده في منطقة العين، وهو حاليا يقضي إجازته السنوية في مدينة حلب. زار جمعية العاديات مع خالته في إحدى الأمسيات لمعرفة أهداف الجمعية ونشاطاتها، فاغتنمنا فرصة زيارته وسألناه عن دروسه وأمنياته وعن فوزه بإحدى جوائز مدينة العين حيث قال:

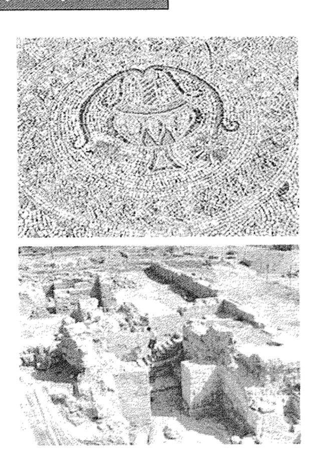
كانت والدتي تساعدني وتقرأ لي وتصحح معلوماتي ووالدي لعب دورا مهماً في تشجيعي كثيرا حيث زرع الثقة في نفسي لأكون دائماً متفوقاً في كل ما أقدم عليه من عمل. كما تعلمت قراءة القرآن بشكل جيد مع التجويد في المنزل بمساعدة والدتي ومراكز تحفيظ القرآن أيضاً فقد حفظت الجزء ٢٩/-٣٠/ من القرآن وسورة (الكهف) وسورة (يس) مع التجويد. وأما عن درع أمير دولة الإمارات الذي حصل عليه فقد حدثنا الطفل عبد الرحمن بقوله: لأنني متفوق في القراءة فقد لفتّ انتباه معلمة العربي (ناهدة من العراق) وصارت تتابعني وتؤكد على قراءتي الشعرية، وجعلتني أشارك في مسابقة الحكاية الشعرية فأرسلتني المدرسة بترشيح معلمتي إلى تربية منطقة العين وهناك كنت الأول على مدارس منطقة العين في مجال (الحكاية الشعرية) وبعد ذلك أرسلتنا تربية العين إلى العاصمة أبو ظبي وهناك كنت الثاني على دولة الإمارات... وحصلت على درع أمير دولة الإمارات العربية المتحدة وشهادة تقدير..

وعن أمنياته في المستقبل قال: أتمنى أن أبرّ أبي وأمي وأن أكون عند حسن ظنهما بي وأكون على قدر المسؤولية التي سوف تكون على عاتقي مستقبلا.. وأريد أن أكون مهندساً أساهم في بناء وطني بالشكل اللائق والممتاز، وأن أصبح عضواً في جمعية العاديات التي تحرص على حفظ تراثنا وآثارنا التي تدل على حضارتنا■

أخبار آثاريّة

- ❖ موشى ديّان، لص آثار، انتهت جهوده مكرمة في "متحف إسرائيل"
- ❖ عرض نتائج تنقيب البعثات الفرنسية في سورية.
- ❖ مقابر الفراعنة تتحول إلى أماكن سياحية.
- ❖ الأردن يسلم آثارا مهربة إلى مصر.
- ❖ مجموعة لوحات نادرة في مصر تُعرض في متحف "محمود خليل"
- ❖ مؤتمر "الآثار في سورية : الواقع والطموح"

موشى ديان لص آثار
انتهت جهوده مكرمة في "متحف إسرائيل"



كانت الجرافات الإسرائيلية تتقدم من مواقعها في المستوطنات في قطاع غزة، بمحاذاة شاطئ البحر، باتجاه أحد المواقع الأثرية الهامة بالقرب من مدينة دير البلح. وأخذت هذه الجرافات، دون سبب معلوم، بتدمير الموقع الأثري المهم الذي يضم بقايا كنيسة بيزنطية، كان الكشف عنها قد تمّ قبل سنوات، ويتميز الموقع الذي نقب فيه أثريون فرنسيون بأرضية من الفسيفساء الملونة تعود استنادا إلى النقش الكتابي عليها إلى عام ٥٨٦ ميلادية. لكن هذه الحادثة فتحت الباب على ما هو اكبر منها وأخطر، انها قصة لص الآثار المحترف موشى ديّان، الذي غطت شهرته السياسية على هواية جمع من خلالها كل ما لذّ له وطاب

في عام ٢٠٠٠ أرسل الجزء الخاص بالرواق الأوسط، من الموقع إلى مدينة ارلي الفرنسية، حيث جرى هناك ترميمه ومن ثم عرض في المعرض الذي نظمته وزارة السياحة الفلسطينية بالتعاون مع مدرسة الآثار الفرنسية بالقدس، وفي معهد العالم العربي بباريس.

في لقاء لجريدة الشرق الأوسط مع زياد البندك، وزير السياحة والآثار الفلسطيني، اعتبر أن هذا الاعتداء الجديد هو انتهاك صريح للمعاهدات الدولية ومنها معاهدة لاهاي للعام ١٩٥٤ والتي تمنع التنقيب أو التعرض للمواقع الأثرية في المناطق المحتلة وفي مناطق النزاع المسلح وأيضا تتعارض مع اتفاقية نقل الصلاحيات لعام ١٩٩٤ والتي تلزم الجانب الإسرائيلي حماية المواقع الأثرية في المناطق التي تقع تحت سيطرتها.

وحول ما ستفعل الوزارة قال البندك: إن وزارته ستعمل على فضح هذه الاعتداءات الإسرائيلية على الأصعدة والمحافل الدولية كافة، ولا يعرف إلى أي مدى يمكن أن تؤدي الاتصالات الفلسطينية، إذا حدثت، لوقف تدمير الآثار الفلسطينية. ولكن تجريف الموقع في دير البلح فتح ملفا لم يغلق في العلاقات الأثرية الفلسطينية-الإسرائيلية حين اشتهر السياسي الإسرائيلي موشي ديان المتيم بالآثار، باستغلال موقعه العسكري لسرقة قطع أثرية في مختلف أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان، وخصوصا دير البلح التي جرى فيها تدمير الموقع الأثري أخيرا.

وبالإضافة إلى سرقة ديان للآثار في الأراضي التي احتلها في يونيو (حزيران) ١٩٦٧، تمكن من شراء قطع أثرية من دول عربية أخرى كسوريا ولبنان، ووظف ذلك بالإضافة للمكاسب الشخصية وإشباع فضوله وهوايته، أيديولوجيا وسياسيا. وجال ديان في مختلف المواقع الأثرية الفلسطينية التي بدت مفتوحة أمامه بعد الاحتلال، ونقب في برية القدس ونابلس ورام الله وبيت لحم، مسخرا إمكانيات السلطة المحتلة الجديدة.

ديان والعشيقة والآثار

❖ وروى يعقوب بيري، رئيس جهاز الأمن العام الداخلي الإسرائيلي المعروف باسم (الشاباك) وهو قسم المخابرات الإسرائيلية الذي عمل في المناطق المحتلة، في مذكراته حكاية عن ديان. فقد كان بيري مسؤولا عن (الشاباك) في منطقة نابلس المحتلة عام ١٩٦٨م، وتلقى اتصالا من رئيسه طلب منه أن يوجد في يوم حدده، على مفترق طريق مستوطنة بيت أيل، الساعة السابعة والنصف صباحا، دون حراس، لمقابلة موشي ديان والانصياع لأوامره.

وفي المكان والزمان المحددين وصل ديان مع عشيقته راحيل، التي تزوجها بعد ذلك بسنوات، وطلب من بيري ركوب سيارته، واخبره انه يود الذهاب إلى قرية اسكاكا الواقعة على طريق القدس - نابلس على بعد قليل من مفترق طرق

تفوح، في قلب منطقة تعج بالفدائيين حسب تعبير بيري.

ويروي بيري ما بدا انه مغامرة كانت تلك المرحلة صعبة بصورة خاصة، فنابلس ملتهبة، والضفة الغربية ثائرة، والعمليات تتوالى بلا توقف، وكل سفر إلى اسكاكا دون حراسة عسكرية مكثفة، كان يعتبر بالنسبة لي عملا غير مسؤول، أما السفر إلى هناك في ظل الشروط التي أواجهها، ومع موشي ديان، الذي أشرف على احتلال الضفة الغربية، فقد بدا لي الجنون بعينه، ليس هذا فقط بل أن الإسرائيلي البشع والكريه جدا في الضفة الغربية، والذي يعتبر هدفا يسعى إليه كل عربي، لم يكن مسلحا، حيث لم يكن بحوزتي سوى مسدس ومخزني رصاص، تسلحت بالجرأة لأسأله: ما الذي سنفعله في اسكاكا؟ قال: سنقوم بأعمال حفريات، وأدار السيارة وبدأ المسير دون انتظار لردي.

ويكمل بيري القصة ويروي كيف وصلوا إلى قرية (اسكاكا)، وعندها فتح ديان خريطة وسأل عن وسط القرية، حيث وجدوا حفرة مهجورة، وأخرج ديان أدوات الحفر ونزل إليها طالبا من بيري البقاء مع عشيقته راحيل.

ويضيف بيري انه بدأ العشرات من القرويين الذين تعرفوا على ديان يتوافدون إلى المكان وهم يقولون: ها هو الوزير وأخذوا يتجمعون حول الحفرة في حين بقيت أنا وراحيل في السيارة، اختفى ديان عن أعيننا، الأمر الذي جعلني أخشى حدوث كارثة في كل لحظة، لذا أنزلت راحيل من السيارة، وأخذت اشق لها طريقا وسط القرويين، ونزلنا معا إلى الحفرة، وقد أملت في ألا يقوم القرويون بمهاجمة المرأة، أو مهاجمتنا جميعا، بدأ ديان الحفر ببطء وبرود، متجاهلا تماما الجماهير من حوله، ثم اخذ يخرج من الأرض قطعا أثرية من الفخار والزجاج جميلة المنظر بينما السكان يراقبونه بتأثر، وفي كل مرة يستخرج شيئا، كان ديان يلتفت إلينا قائلا: انظروا كم هو جميل.

استظراف لص غليظ

❖ في تلك السنوات كان الأثري الفلسطيني إبراهيم الفني يعمل كمفتش آثار بمحافظة نابلس، وروى لنا مشاهداته الشخصية على سرقة ديان للآثار وأقلها ضبطه أكثر من مرة يحفر بنفسه وبحراسة جنود الاحتلال، وحدث ذلك في قرى وخرب عديدة منها (دوما، باجورة، ارزة).

وفي إحدى المرات يقول الفني، بأنه ضبط ديان وهو ينقل تابوتين أثريين بعد حفره في خربة عمورية بالقرب من نابلس وحاول الفني، أن يحتج، بصفته مسؤولا عن الآثار في تلك المنطقة، لكن جنود الاحتلال حاولوا إيذاءه، وقد طلب ديان منهم عدم فعل ذلك، وبعد أن أخذ ديان التابوتين، ذهب الفني إلى مركز الشرطة وقدم شكوى ضد ديان، ومورست على الفني، كما يقول، ضغوط من قبل الحاكم العسكري لمنطقة نابلس، ولكنه

في النهاية تمكن من إعادتهما ووضعهما للعرض في نابلس.

وفي مرات كثيرة كانت ممارسات ديان لا تخلو من طرائف، فالفني يقول بأنه ضبط ديان يحفر في إحدى المغاور في خربة (ارزة) ولكن ديان لم يعثر على شيء، وبعد ذلك حفر فريق الفني في نفس المكان فعثروا على قطع أثرية، وعندما علم ديان، وهو الذي لم يكن يخفى عليه شيء بسبب شغفه غير المحدود بالآثار وامتلاكه للقوة وأجهزة المخابرات التي تنقل كل شيء تعرفه، قابل الفني وقال له إنه يستحق أن يأخذ نصف هذه المكتشفات لأنه كان له سبق اكتشاف الموقع.

وفي ظروف سياسية، نتجت عن اتفاقات السلام المصرية - الإسرائيلية، تم إخراج مومياء فرعون التوحيد اخناتون من مصر إلى فرنسا، لأغراض الترميم، فكان ديان هناك في باريس ينتظر، وعندما دخل إلى المومياء لم يتمالك نفسه، فلكز مومياء اخناتون، بعصا كان يحملها، وخاطب المومياء بوجود المرافقين المصريين لقد أخرجتنا من مصر وها نحن نخرجك منها، في إشارة إلى أن اخناتون هو الفرعون الذي ارتبط بقصة النبي موسى في الكتب المقدسة.

مسروقات إلى متحف الدولة

❖ وفي حين لم تكن سرقات ديان تحظى باهتمام الرأي العام العربي، فإنها كانت بعد سنوات أحد المواضيع المثارة لدى الرأي العام الإسرائيلي.

وبعد سنوات من وفاة ديان ونتيجة لضغوط الرأي العام الإسرائيلي، قدمت عائلته، ما عرف بـ مجموعة ديان، للعرض في متحف إسرائيل تحت عنوان (عودة الإنسان إلى وطنه) ضمت نماذج مما سرقه من مختلف المناطق الفلسطينية والمصرية، ومن أبرزها مكتشفات عثر عليها في دير البلح. ويتضح من عنوان عرض المجموعة التوظيف السياسي والأيديولوجي لتلك المجموعة التي يراها السائحون والحجاج الذين يزورون الأراضي المقدسة، ومرة أخرى لاقى ذلك انتقادا ليس من الأطراف العربية والإسلامية فحسب بل من أثريين إسرائيليين تمتعوا بقدر من الحيادية والعلمية، مثل رفقة مرخاف أمينة متحف إسرائيل السابقة، التي قالت متهكمة على الاسم الذي اختير للمجموعة هل دير البلح وطن ديان؟، كان يجب أن تسمى المجموعة آثار الفلسطيني في وطنه.

أما اهارون كمبيسكي، وهو أثري إسرائيلي معروف، يتمتع بقدر من الموضوعية، فقال معلقا على ذلك هذا من اغرب الأمور في دولة إسرائيل، فبدلا من أن تذهب هذه المجموعة إلى مركز الشرطة، باعتبارها مسروقات مضبوطة، ذهبت إلى متحف إسرائيل.■

الأسبوع الأثري لشركة توتال يعرض اكتشافات أثرية حديثة للبعثات الفرنسية العاملة في سورية

مواقع أثرية يبلغ عمرها ٣٠٠ ألف عام وأخرى من العصر الإغريقي

احتفلت شركة توتال الفرنسية بمناسبة مرور سبع سنوات على دعمها للبعثات الأثرية الفرنسية العاملة في خمسة مواقع أثرية في سورية، بتنظيم أسبوع للآثار بالمركز الفرنسي بدمشق. وجاء الأسبوع تحت عنوان (٧ سنوات من الشراكة) ونظم بالتعاون مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى والمركز الفرنسي. وقدّم فيه رؤساء البعثات الأثرية وعدد من الخبراء والمهندسين المعماريين العاملين في هذه البعثات محاضرات عن آخر المكتشفات في المواقع الخمسة وهي: قرية الشعارة في ريف دمشق، دورا أوروبوس في المنطقة الشرقية، دير مار موسى الحبشي، قلعة دمشق وأم التليل في البادية التدمرية.

خبير التنقيب عن الآثار بيار لوريش تحدث في محاضرته ضمن الأسبوع الأثري عن مدينة دورا أوروبوس حيث اكتشف فيها أقدم مكان عبادة مسيحي معروف في العالم في ثلاثينيات القرن الماضي من قبل بعثة أميركية ـ فرنسية. ويعود تاريخ دورا أوروبوس إلى منتصف القرن الثالث الميلادي.

وقد نقل مكان العمادة والتصويرات التي فيه إلى جامعة يال الأميركية كما أعيد ترميمه حديثاً من قبل البعثة الفرنسية ـ السورية. وشكلت في عام ١٩٨٦ بعثة أثرية سورية ـ فرنسية للعمل في الموقع، بدعم من مديرية الآثار العامة السورية والمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. ومنذ عام ١٩٩٨ قامت توتال وفرعها في سورية بدعم البعثة التي واصلت الدراسة الآثارية والتاريخية للمدينة القديمة والإنقاذ والترميم الجزئي للصروح المستخرجة والتي كانت مهددة بالخراب. وكشفت أبحاث البعثات عن تاريخ هذا الموقع الذي أسسه الإغريق بعد فتح الاسكندر الأكبر لسورية حوالي عام ٣٣٠ ق.م.

وتمكنت البعثات من الكشف عن عدد من الأبنية في الموقع منها ثلاثة قصور باذخة وبيوت عادية. واكتشفت أيضاً نصوصاً مكتوبة على البردي والرق وأخرى منقوشة على الحجر ولوحات ومنحوتات جعلت من دورا أوروبوس متحفاً حقيقياً في الهواء الطلق.

جان ماري دنترز الأستاذ في جامعة باريس الأولى ومدير البعثة الآثارية الفرنسية في موقع الشعارة تحدث عن الموقع وما فيه من مكتشفات. والشعارة (٥٠ كلم جنوب دمشق) قرية أُنشئت قبل ألفي عام وجميع أبنيتها مشيدة بحجر البازلت.

وتحدث دنترز عن أبنيتها المميزة معمارياً وشرح خطوات توثيق هذه الأبنية حيث تم فهرسة ١٦١ بناء داخل أسوار شعارة من بينها ١١٥ مسكناً وتمت فهرسة وتصوير أكثر من مئة بيت منهجيا. حول موقع أم التليل في بادية تدمر كانت محاضرة عن أعمال البعثة التي تشكلت عام ١٩٩١ بإشراف الأستاذ اريك بويرا حيث قامت البعثة بتحليل سلوكي لبشر الأحافير في العصر الحجري القديم.

ويسجل موقع أم التليل حقبة مأهولة مديدة جداً شغلتها جماعات بشرية على نحو متقطع يمتد على فترة ٣٠٠ ألف عام. وفي الموقع كمية هائلة للطبقات الأثرية، وهو ذو أهمية علمية كبيرة وكان يقع سابقاً على محيط بحيرة وينابيع. تضمن الأسبوع الآثاري كذلك عدداً من المحاضرات الهامة حول الأعمال في مواقع عديدة ورافقه معرض للصور. ■

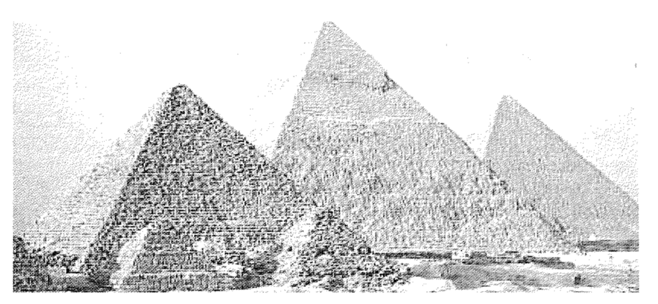
مشروع بقيمة ٢,٦ مليون دولار لتحويل مقابر الفراعنة إلى أماكن سياحية

تقوم هيئة الآثار المصرية بالتعاون مع الحكومة اليابانية بمشروع عمل لتطوير مقابر وادي الملوك، التي تضم مقابر الفراعنة القديمة، الواقعة في منطقة البر الغربي بالأقصر.

وقال الدكتور زاهي حواس الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار إن الحكومة اليابانية تساهم في مشروع يهدف إلى تهيئة المقابر للزائرين وأضاءتها بالشكل الذي يتناسب مع طبيعة المنطقة الأثرية، باستخدام الإضاءة الباردة المناسبة للمواقع التاريخية ورصدت الحكومة ميزانية ٢,٦ مليون دولار أميركي لتنفيذ هذا المشروع.

وأضاف حواس أن المشروع سيستغرق عاما كاملا، ويتضمن إدخال نظام للتهوية بالمقابر حفاظا عليها من العوامل الجوية، وتأمينها بأحدث التقنيات ضد السرقة، وإنشاء مركز للمؤتمرات، وتنفيذ لوحات إرشادية للمقابر، يمكن الشرح عليها للزائرين بدلا من الشرح في داخل المقابر، وهو ما يساهم في منع وجود الزائرين داخل المقابر بصورة مكتظة وعشوائية قد ينتج عنها مؤثرات ضارة تؤثر على نقوشها ومحتوياتها الأثرية القديمة.

ومن جانبه أشار صبري عبد العزيز رئيس قطاع الآثار المصرية إلى إقامة مراكز ثقافية بداخل المنطقة لتلبية احتياجات الزائرين، مؤكدا أن المشروع يتزامن مع مشروع آخر يهدف إلى إضاءة منطقة وادي الملوك ليلا، ليجعل منه وجهة سهلة للزائرين الذين يقومون بزيارتها في فصل الصيف نظرا لارتفاع حرارة الطقس في منطقة الصعيد عموما.



وستبلغ كلفة مشروع إضاءة وادي الملوك نحو ٦ ملايين دولار، ويتم التعاون على إنجازه مع إحدى الشركات الأجنبية المتخصصة بشكل يراعي حرمة المنطقة الأثرية ولا يتسبب في الإضرار بطبيعتها التاريخية. ومن المتوقع الانتهاء من المشروع في أواخر عام ٢٠٠٦ حيث يأتي ضمن خطة تطوير شاملة يقوم بها المجلس الأعلى للآثار للارتقاء بمنطقة وادي الملوك وترميم مقابرها.

يذكر أن مقابر وادي الملوك تقع إلى الشمال من قمة الجبل الغربي لمدينة طيبة قديما (الأقصر حاليا) وتنحدر إلى قلب الجبل، ويلاحظ فيها وضع الملوك الأموات في الحجر الصلب وتم تغطيتها بأقنعة وصديريات وتمائم مصنوعة من الذهب.

وكان أول المكتشفين لهذه المقابر العالم الأثري الإيطالي بلزوني في العام ١٨١٨ الذي اكتشف مقبرة سيتي الأول ثم الفرنسي لوريه في العام ١٨٩٨، تلاه تيودور دافيز عام ١٩٠٣ إلى أن عثر هيوارد كارتر الإنجليزي الجنسية على مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ حتى توالت مكتشفات مقابر ملوك الفراعنة بعد ذلك في النصف الثاني من القرن الماضي.

من ناحية أخرى قررت هيئة الآثار المصرية إعداد تكية أبو الدهب الأثرية في منطقة القاهرة التاريخية مركزا لإعداد القادة الثقافيين بحيث يمنح المركز دورات تدريبية للكوادر الثقافية المختلفة خاصة العاملين في الشأن الأثري أو ممن يرغب في العمل الثقافي من المؤسسات المصرية.

وتجري أعمال الترميم حاليا في التكية التي يرجع تاريخها إلى العصر العثماني وتقع بجوار الجامع الأزهر، حيث يأتي ترميمها في إطار مشروع القاهرة التاريخية.

وتتميز عمارة التكية بالقباب والسقوف المزخرفة التي تعكس الاهتمام بالفن والطراز العثماني الشبيه بتصميم البيوت السكنية الذي كان متبعا في تلك الفترة.■

الأردن يسلم آثارا فرعونية تم تهريبها إلى مصر في خطوة للحد من الاتجار بالقطع الأثرية

تسلمت السفارة المصرية في الأردن مجموعة من التماثيل الفرعونية تتكون من ٢٤ قطعة أثرية كان قد تم تهريبها إلى الأردن عن طريق ميناء نويبع على البحر الأحمر وضبطتها السلطات الأردنية في العقبة.

وأعرب السفير المصري لدى الأردن أحمد رزق في احتفال أقامته دائرة الآثار العامة الأردنية في كلمة له خلال حفل تسلم القطع من كل من فواز الخريشة مدير دائرة الآثار العام الأردنية ومحمود قطيشات مدير دائرة الجمارك عن شكره للسلطات الأردنية على تعاونها مع مصر في ضبط تلك القطع الأثرية الهامة، مشيرا إلى أن ذلك هو نتاج للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية الواسعة التي تربط البلدين في ظل توجيهات القيادة الخاصة بكل منهما.

وأوضح أن مصر والأردن تربطهما اتفاقية لتبادل المقتنيات الأثرية والثقافية التي يتم تهريبها.

من جانبه أكد المدير العام لدائرة الآثار في الأردن على أهمية التعاون بين الدول العربية في مجال الحفاظ على الآثار ومنع تهريبها، مؤكدا أن الجهات الأردنية تبذل جهدا كبيرا لتفادي هذا الموضوع، وأوضح أن هذه المرة الثانية التي يتم فيها تسليم آثار مصرية تم ضبطها أثناء محاولة تهريبها للأردن بعد أن كانت المرة الأولى عام ١٩٩٩.

وأشار إلى أن ضبط هذه الآثار يأتي كثمرة للتعاون بين الأجهزة الأردنية المختلفة موضحا أن عمليات تهريب الآثار إلى الأردن قد تزايدت في الفترة الأخيرة خاصة بعد احتلال العراق.

وقد أكد حسن رسمي مرسي مدير عام الموانئ المصرية بالمجلس الأعلى للآثار خلال حفل تسلم القطع الأثرية على الأهمية الفنية والتاريخية والثقافية لهذه القطع وقال أنها مجموعة منتقاة من الحقبة المصرية القديمة من العصر الفرعوني المتأخر مما يدل على حرفية المهرب.

وأشار مرسي للصحافيين إلى أن بعض هذه التماثيل يمثل الإله حورس في الوقفة (الأوزورية) وأخرى لإيزيس في وضع الجلوس وهي ترضع حورس الابن وتمثال آخر يمثل إله الكتابة عند المصريين القدماء وعدة تماثيل للملك رمسيس.

وأوضح أنه ليس معروفا بالضبط الأماكن التي استخرجت منها هذه التماثيل.

وكانت السلطات الأردنية قد ضبطت هذه القطع الأثرية أثناء محاولة تهريبها من مصر عن طريق ميناء نويبع إلى ميناء العقبة الأردني وكانت مخبأة داخل أكياس البصل.

يذكر أن الاتفاقيات الدولية واتفاقيات منظمة اليونسكو تمنع الاتجار غير المشروع في القطع الأثرية أو تهريبها وتشدد على ضرورة القيام بمراقبة شديدة لمنعها بكافة السبل. ■

قصر محمود خليل جنة عشاق الفن النادر

«الحياة والموت»
في متحف أشهر مقتني لوحات فناني القرن الـ١٩



بدأت القصة عندما اشترت اميلين لوحة لرونوار في باريس في شهر فبراير (شباط) عام ١٩٠٣م. ودفعت ثمنها أربعمائة جنيه وكان حينها المبلغ باهظا ولكنها قالت: أعتقد بأننا رابحون من هذه الصفقة ومن يدري فقد نكون كذلك! انه مقطع من مذكرات محمد محمود خليل بك صاحب القصر الشهير الواقع على نيل الجيزة واشهر مقتني اللوحات والتحف الثمينة في العالم والشرق الأوسط والحائز على أغلى لوحات العالم زهرة الخشخاش لفان غوخ والحياة والموت لبول غوغانز.

ولد محمد محمود خليل عام ١٨٧٧ ميلادية في كنف عائلة أرستقراطية ثرية وعقب تخرجه من مدرسة الليسيه الفرنسية سافر إلى فرنسا لدراسة القانون في جامعة السوربون وهناك تعرف على الحسناء ايملين هتكور التي كانت تدرس الموسيقى وتعشق الفنون الجميلة وتزوجا عام ١٩٠٣ واستطاعت اميلين أن تنقل إلى زوجها حب الفن، ومعها طاف على جميع المتاحف والمراسم التي تزخر بها أوروبا ومنذ ذلك الوقت اصبح معروفا عن محمد محمود خليل حبه الشديد بل وجنونه في اقتناء تماثيل ولوحات كبار ومشاهير الفنانين في أوروبا وكانت أول لوحة يشتريها هي لوحة ذات رباط العنق من التل الأبيض للفنان الفرنسي اوغيست رونوار ١٨٤١-١٩١٩ بمبلغ ٤٠٠ جنيه، ويزيد ثمنها الآن على ٤٠ مليون دولار وهي واحدة من خمس لوحات اشتراها لرونوار، وقد ازدادت حمى الشيء عنفا. وعندما عاد محمود خليل إلى القاهرة مع زوجته كانت لديه ثروة من اللوحات والمقتنيات الفنية وتماثيل اشهر الفنانين العالميين التي تباع في المزادات العالمية.

شغل محمود خليل العديد من المناصب السياسية حيث تولى وزارة الزراعة عام ١٩٣٧م، ثم شغل منصب رئيس لمجلس الشيوخ لدورتين متتاليتين (١٩٣٩-١٩٤١) ولكنه اشتهر أكثر بمجموعته الفنية النادرة حيث أوصى بعد وفاته أن يحول قصره بما يحتويه من

مقتنيات إلى متحف يحمل اسمه واسم زوجته، وهو بذلك يعد صاحب واحدة من اكثر الهيئات العامة سخاء لمصر والعالم.

توفي محمود خليل عام ١٩٥٣م وقبيل رحيل زوجته عام ١٩٦٠ م أوصت بإهداء القصر وما فيه من أعمال فنية إلى الدولة وفي عام ١٩٦٢ تم افتتاح المتحف الذي ضم مقتنيات محمود خليل التي جمعها طوال حياته ودفع ثروته الطائلة ثمنا لتلك الروائع والتي تعد من أهم أعمال فناني فرنسا الكبار في القرن ١٩ وهي تحف أجمع النقاد على انه من النادر ايجادها في أي مجموعة من مجموعات الفن الخاصة في العالم وظل المتحف في مكانه حتى عام ١٩٧١م إلى حين ان اصدر الرئيس السادات قرارا بنقله إلى قصر الأمير عمرو إبراهيم بالزمالك وتخصيص المتحف كمكتب لرئاسة الجمهورية، ومنذ سنوات صدر قرار جديد بعودة المقتنيات والتحف إلى مكانها الأصلي، وتم ترميم قصر محمود خليل وافتتاحه عام ١٩٩٥م بعد ان تحول إلى تحفة فنية ثقافية عالمية.

ومن ابرز مقتنيات المتحف ٢٠٨ لوحات و٤٠ تمثالا وعدد كبير من الأواني، وتعد لوحة الحياة والموت لغوغان أغلى لوحة في مقتنيات محمود خليل ويبلغ ثمنها اكثر من ٨٠ مليون دولار، وفي الطابق الأول للمتحف توجد اهم لوحتين لذلك تم تخصيص حجرة مستقلة لكل منهما وهي مزودة بعدد من المقاعد حتى يجلس الزوار لتأملها، الأولى هي عبارة عن زهور الخشخاش لفان كوخ رسمها عام ١٨٨٦ وهي اللوحة الوحيدة له في الشرق الأوسط.

أما اللوحة الثانية فهي لوحة المستحمين في تاهيتي أو الحياة والموت لغوغان.

وفي الطابق الأول يبدأ عرض أعمال المدرسة الفرنسية بتياراتها وفنانيها الكبار كافة امثال تريون وكوربيه وبيساوور وكورو وجونكييز ايضا، وتوجد مجموعة من التماثيل الصغيرة من البرونز لحيوانات مثل الظباء والغزلان والنمور ابدعها المثال الفرنسي باري الذي احترف صنع تماثيل الحيوانات. وفي وسط الطابق الاول تطالعك قاعة تعرض بها مجموعة كبيرة من اللوحات الصغيرة الحجم المينياتور التي رسمها اشهر فناني القرن ١٩ وكذلك مجموعة من الاواني الصينية البالغة الجمال والدقة والندرة.

أما الطابق الثاني للمتحف فيضم أعمال اثنين من ابرز الفنانين الفرنسيين في القرن الـ ١٩ أمثال اوغيست رودان ١٨٤٠ . ١٩١٧ واهم أعماله لوحة بورتريه لفيكتور هوغو وتمثال نادر للاديب والمفكر الفرنسي بلزاك بالاضافة إلى تمثالين بعنوان أعيان كمالية والمفكر .

وهناك لوحات عديدة لرونوار (١٨٤١ . ١٩١٩) ومن أبرزها فنجان ويوسفي ، بستان في كلماتي ، رأس طفل ، ذات رباط العنق من التل الأبيض بالإضافة إلى لوحات ديلاكروا والفنان الفرنسي لوتريك الذي يجمع في أسلوبه بين التعبير والتأثير الخاص في لوحته الشهيرة درس في الغناء .

كما يضم المتحف مجموعة كبيرة من الأثاث النادر ذي الطراز الفرنسي وأيضا مكتبة محمود خليل التي تضم مجموعة من الكتب النادرة التي يصل عددها إلى ٢٧٩٤ كتابا ومرجعا جميعها

ذات قيمة فنية وتاريخية عالية في الفنون والحضارة والفلسفة باللغة الفرنسية، وتجدر الاشارة إلى ان المكتبة لا يدخلها سوى الباحثين.

وكنتيجة لحادثة السطو الشهيرة التي أسفرت عن سرقة لوحة زهرة الخشخاش للفنان غوخ والتي حدثت عام ١٩٧٨ حينما سطا اللصوص على المتحف وسرقوا اغلى لوحاته والتي عادت بعد اكثر من عامين (١٩٨٠) في ظروف يكتنفها الغموض، فقد استعانت الدولة بمجموعة من المتخصصين للعمل على فحص جميع اللوحات الموجودة بالمتحف عن طريق العودة إلى مصادر كل لوحة وجهات البيع التي كانت معروفة في النصف الأول من القرن العشرين سواء في فرنسا او مصر وقد تم الاستعانة في هذا المجال بخبراء فرنسيين قاموا بفحص لوحة زهرة الخشخاش بعد استعادتها واقروا بسلامتها وأعطوا شهادة بأصالتها من اكبر المراكز الفنية في العالم وهذا ما حصل مع بقية اللوحات والتماثيل.

في شارع مراد بالجيزة وبين أحضان نهر النيل يقع قصر محمود خليل المشيد على طراز فرنسي اشتهر في اوائل القرن العشرين والمعروف بالالارت ديكو وهو طراز يتميز بالبساطة واستخدام الأشكال الهندسية في العمارة كالدوائر والمثلثات والمستطيلات وهذا ما يتضح من خلال تصميم واجهتي القصر ونوافذه وأيضا عمارته من الداخل من حيث شكل القاعات واحتوائها على العقود البيضاوية والدائرية وغير ذلك.

يتكون القصر من طابقين إلى جانب الطابق الارضي، تبلغ مساحته ١٤٠٠م شيده في بداية القرن العشرين روفائيل مناحم سواس احد افراد عائلة سواس اليهودية المصرية التي كانت تقوم بنشاطات في أعمال البنوك، وبعد وفاته عام ١٩٠٩ بيع القصر إلى أحد أفراد العائلة المالكة إلى أن اشتراه محمود خليل بك في أوائل الأربعينات، تحيط بالقصر حديقة صغيرة جميلة ويتألف من مدخلين أحدهما يتقدم ويطل على نهر النيل والآخر يطل على شارع مراد وهي الواجهة الرئيسية حيث يتقدم القصر سلم رخامي بطرفين كما ان واجهتي القصر تتميزان بالتماثيل وبوجود شرفة ذات طابع فرنسي تزينها الدروع وأكاليل الزهور ورؤوس الأسود والمزهريات والعقود الدائرية والمثلثة على اشكالها. ومن الداخل يتميز القصر بنوع من الزخرفة التي تدل على الثراء حيث زينت الجدران بالجص المذهب بأشكال الورود والزهور والعنب كما ان الزخرفة لم تقتصر فقط على الجدران بل امتدت إلى السقوفية التي نالت نصيبها من الرسومات والنحت، كما يضم القصر مجموعة من الاعمدة الايونية قرون الرخا بطرازها الفارسي.

ويصل سلم القصر الداخلي الذي يتوسط البهو بدرجات من الرخام الطابق الاول والثاني ببعضهما ويتميز هو الاخر بأشكال دائرية من معدني الحديد والنحاس وبجوار السلم وعلى ارتفاع طابقي القصر توجد لوحة فنية عملاقة من الزجاج الملون لفتاتين تلهوان في بركة ماء في وسط حديقة ويعود تاريخها إلى عام ١٩٠٧م.■

تقرير عن مؤتمر "الآثار في سورية: الواقع والطموح"
حلب ١٢-١٥ أيلول ٢٠٠٥

بمبادرة من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في وزارة التعليم العالي، وبالتعاون مع وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق وكلية الهندسة المعمارية في جامعة حلب والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى انعقد مؤتمر "الآثار في سورية: الواقع والطموح" في رحاب كلية الهندسة المعمارية في جامعة حلب بين ١٢ و١٤ أيلول ٢٠٠٥.

وقد بلغ عدد جلسات العمل إحدى عشرة جلسة، توزعت على أيام المؤتمر الثلاثة وكانت على الشكل التالي:

الجلسة الأولى (الإثنين ١٢ /٩/٢٠٠٥) برئاسة زكي أصلان (إكروم - روما): إدارة المواقع الأثرية.

المحاضرون:

١- محمد البلاونة (الأردن - جرش) إدارة المدن والمواقع الأثرية في الأردن

٢- هارتموت كونه (ألمانيا) ملاحظات حول إدارة وصيانة المواقع الأثرية

٣- عبير عرقاوي (سورية) نحو تحقيق تنمية مستدامة في إدارة مواقع التراث العالمي في سورية (نموذج بصرى)

الجلسة الثانية برئاسة محمد قجة: إدارة المواقع الأثرية.

المحاضرون:

٤- نسرين بوظة (سورية) إدارة المواقع الأثرية: سرجيلا نموذجاً

٥- منار حمّاض (فرنسا) إبراز وتأهيل التراث الأثري

٦- عبد الرحمن البيطار (سورية) آثار حمص العربية بين الواقع والطموح

الجلسة الثالثة برئاسة كارين بارتل (المعهد الألماني للآثار): استخدام التقنيات الحديثة في المسح الأثري

المحاضرون:

٧- فاطمة الطويل (سورية) أهمية تقنيات الاستشعار عن بعد في دراسة المواقع الأثرية

٨- غراهام فيليب (بريطانيا) المسح الإقليمي لحمص ووضع مخططات لحوض العاصي جنوب وغرب حمص.

٩- مأمون عبد الكريم (سورية) مسوحات وتحريات المنطقة البازلتية شمال غربي حمص.

١٠- بلاج مايور(هنجاريا) طرق المسح وتقنيات التوثيق في محافظة طرطوس.

الجلسة الرابعة برئاسة جان ماري دانتزر(فرنسا): حفظ وترميم المواقع والأوابد الأثرية

المحاضرون:

١١- برنار فونكرني (فرنسا) العلاقة بين العاملين متعدّدي الاختصاص والمواقع الأثرية في الترميم

١٢- ماتيلد غيلان (IFPO) حفظ الأوابد الأثرية :مفهوم وامكانيات ،قلعة المضيق ودورا أوروبوس

١٣- جان كلود بيساك (فرنسا) التنقيب وأعمال الصيانة وتأهيل البنّائين المحليين:دورا وقلعة المضيق

١٤- مارك لوبو (بلجيكا ، EU) برنامج الترميم المعماري باللبن في تل بيدر

الجلسة الخامسة (الثلاثاء١٣ /٩ /٠٥) برئاسة باولو ماتييه: البعد الأثري في ترميم المواقع والأوابد الأثرية

المحاضرون:

١٥- كريستينا تونغيني إسهام التحليل الأثري للأوابد في الحفاظ والتأهيل: قلعة شيزر نموذجاً

١٦- محمد عبد الستار عثمان (مصر) البعد الأثري في ترميم الآثار الإسلامية :مدرسة وخانقاه جمال الدين الأستادار.

١٧- كاي كولماير (ألمانيا) ترميم معبد إله الطقس في قلعة حلب.

١٨- جان ماري دانتزر(فرنسا) التراث الأثري جنوب سورية : تجربة سورية- أوروبية.

الجلسة السادسة برئاسة مأمون عبد الكريم: استخدام تقنيات العلوم التجريبية والتطبيقية في دراسة الآثار

المحاضرون:

١٩- كلاوديو آرياس (إيطاليا) أفكار حول استخدام الإرث العلوم في الإرث الثقافي.

٢٠- مصطفى مغراوي وم. رضا سبيناتي(ستراسبورغ) استخدام معطيات الزلازل القديمة لحماية الموروث الثقافي والمواقع الأثرية في الشرق الأوسط.

٢١- كزافييه كلوب (اسبانيا) استخدام العلوم في دراسة العصر الحجري الحديث في وادي الفرات: مشروع تل حالولة.

٢٢- لوده محفوض (سورية) حماية وحفظ القطع المعدنية الأثرية

الجلسة السابعة: برئاسة جانين عبد المسيح: التقنيات الحديثة في دراسة وترميم مواد البناء والزخرفة

المحاضرون:

٢٣- كلاوس بيتر هازه (ألمانيا) ترميم الزخارف الجصية في مدينةالفار (محافظة الرقة)

٢٤- هالة عفيفي محمود (مصر) دور التنقيبات في تلف الآثار الجصيّة.

٢٥ - إسين كوليلي (تركيا) أهمية دراسة الملاط الأثري: حالة مدينة أفسس.

الجلسة الثامنة: برئاسة صخر علبي: استخدام التنقيبات الحديثة في ترميم وصيانة المواد العضوية الأثرية

المحاضرون:

٢٦- منى فؤاد علي (مصر) دراسة وترميم الأسقف الخشبية في المباني الإسلامية: جامع آقسنقر.

٢٧- محمد عبد الله معروف (مصر) علاج وصيانة كليم أثري وإعداده للعرض المتحفي.

٢٨- وفيقة نصحي وهبة سوسن (مصر) علاج برديات سريانية ومخطوطات ورقية عربية باستخدام مواد الأنزما (المحفزات).

الجلسة التاسعة (الأربعاء١٤ /٩ /٠٥) برئاسة كلاوس بيتر هازه: تطوير المتاحف بالوسائل الحديثة والأتمتة

المحاضرون:

٢٩- فابريزيو آغو (إيطاليا) إسهام شخصي في الخطة السورية لتجديد المتاحف

٣٠- فيكن عبجيان (سورية) مشاريع الأتمتة الخاصة بالآثار السورية

٣١- برتران لا فون (فرنسا IFPO) متحف افتراضي للرقم المسمارية

٣٢- سامر عبد الغفور (سورية) سورية في متحف افتراضي: اكتشف الفن الإسلامي

الجلسة العاشرة برئاسة بسام جاموس: القوانين والتشريعات لحماية الآثار

المحاضرون:

٣٣- سعيد سالم جويلي (مصر) التنظيم الدولي لحماية الآثار

٣٤- موسى مسعود أرحومة (ليبيا) السياسة الجنائية لحماية الآثار ضد الإتلاف والتعييب في التشريع السوري والليبي.

٣٥- رقيّة عواشرية (الجزائر) اليونيسكو في حماية التراث الأثري زمن النزاعات المسلّحة

٣٦- أحمد جمعة الشامي (الأردن) التعاون العربي في مكافحة تهريب الآثار.

الجلسة الحادية عشرة:برئاسة عبد الرزاق معاذ: دور الإتحاد الأوروبي والمنظمات الدولية في حفظ وإبراز التراث في سورية

المحاضرون:

٣٧- فابيين بيسون (المفوّضية الأوروبية) البرنامج الأوروبي لتطوير السياحة الثقافية في سورية

٣٨- زكي أصلان (إكروم) دور الإكروم في الحفاظ على التراث الأثري في المنطقة العربية وفي إدارة المواقع الأثرية.

٣٩- جانين عبد المسيح (IFPO) البرنامج الأوروبي في التدريب على الحفاظ على الإرث الحضاري في سورية.

٤٠- مالدا جبور (يونيسكو) دور اليونيسكو في الحفاظ على التراث الثقافي في المنطقة العربية

ودارت مناقشات مفيدة في نهاية كل جلسة حيث أجاب فيها المحاضرون على تساؤلات الحضور ومداخلاتهم، بمرافقة الترجمة الفورية بين اللغات العربية والفرنسية والإنكليزية.

ثم قامت لجنة التوصيات المشكلة من الأساتذة محمد شفيق البيطار وعبد الرزاق معاذ ومحمد صخر علبي بصياغة التوصيات التي وردت من المشاركين وقراءتها في جلسة الختام. وكان أهم ما ورد فيها:

تشجيع ودعم الأتمتة في المجال الأثري- نشر الوعي الأثري بين الناس للحفاظ على الآثار - القيام بإنجاز خريطة للطرق والمواقع الأثرية بالتعاون مع هيئة الاستشعار عن بعد - دعوة بعثات التنقيب لعمل الصيانة والحماية اللازمتين لأعمال التنقيب التي تقوم بها - تطوير المخابر والتعاون مع الهيئات الدولية - إنشاء متحف افتراضي للدول العربية - دعوة الجامعات لعمل دورات تدريبية لترميم الآثار وإدخال اختصاص الترميم في الجامعة وإيلاء مزيد من الأهمية للآثار - زيادة البعثات الخارجية للتخصص بالآثار لتأمين الكوادر اللازمة - التشدّد في تطبيق قانون الآثار وقمع التهريب - التأكيد على التنمية المستدامة في مجال الآثار، والدعوة إلى عقد ندوات دورية للآثار والاطلاع على الطرق والقوانين الحديثة.

هذا وقد تم توزيع قرص CD في نهاية المؤتمر ضم بعض محاضرات الباحثين أو ملخصات عنها. بينما لم يقم قسم آخر من الباحثين بإعطاء نسخة عن بحثه لتوزع على الحضور، حيث سيتم ذلك في وقت لاحق. وكان من المفترض، كما هي العادة، أن يوزع على الحضور ملخّص عن الأبحاث حال حضورهم للمؤتمر.

وقبل ظهر الخميس ١٥ /٩ /٢٠٠٥ قام المشاركون في المؤتمر بزيارة متحف حلب الوطني ومعبد إله الطقس في قلعة حلب، حيث قدّم لهم الشرح الوافي عن المتحف وعن أعمال التنقيب والترميم والحماية المقترحة لمعبد القلعة المكتشف لحفظه في مكانه وحمايته وتأمين زيارته. كما اطّلعوا على أعمال الحفاظ والترميم والتوظيف السياحي ومراكز الإطلالة على المدينة القديمة وهي من ضمن الأعمال التي تقوم بها مؤسسة الآغا خان للثقافة في مبان ومواقع مختلفة من القلعة.■

البرنامج الثقافي السنوي للنصف الأول من عام ٢٠٠٦

تُلقى المحاضرات في مقر جمعية العاديات الساعة الثامنة مساءً

الرقم	التاريخ	الموضوع	المحاضرون
١	١/٤	التركيب الهندسي للمقامات الشرقية	م. مصطفى عرب
٢	١/٦	حقوق المواطنة في الإسلام	د. محمد نهى شيط (بالتعاون مع جمعية الشهباء)
٣	١/١٨	آخر المستجدّات في إيبلا	م. عبد الله حجّار
٤	١/٢٥	المنهاج الحضاري في القرآن الكريم	د.علي الشعيبي
٥	٢/١	ثانوية المأمون.. سيرة غنيّة وعطاء متجدد	محمود أسد
٦	٢/٨	حلب في الحوليّات الآشورية والنقوش الحثيّة	د.حميدو حمّادة
٧	٢/١٥	رحلة ابن فضلان	وضاح محيي الدين
٨	٢/٢٢	عمر أبو ريشة والآثار العمرانية	د.أحمد زياد محبك
٩	٣/١	المأثورات الشعبية والأسرة	تميم قاسمو - إيمان كيالي يدير الندوة ويشارك فيها: د.محمد حسن عبد المحسن
١٠	٣/٨	إسهامات سورية الحضارية عبر الوثائق	بدري حجل
١١	٣/١٥	التأسيس الميتولوجي لثقافة الاختزال في الفكر العربي	د. جمال الدين خضور
١٢	٣/٢٢	لقاء بين النسيمي و الأسدي	محمد أبو معتوق
	٣/٢٩	انتخابات مجلس الإدارة	
١٣	٣/٣٠	حلب في العصر السلجوقي	وليد رضوان
١٤	٤/٥	حماية التراث الثقافي والفلكلور الشعبي دوليًا ووطنيًا	فؤاد هلال
١٥	٤/١٢	أبستميات الشعر العربي عبر التاريخ	رضوان السح
١٦	٤/١٩	الأختام الأسطوانية	ندوة دومينيل كولن، لمى الكيلاني
١٧	٤/٢٦	نقود أهم المدن السورية في الفترة السلوقية	لمى دقماق
١٨	٥/٣	آثار حصن سليمان	المهندس : ملاتيوس جغنون
١٩	٥/١٠	قلعة حماه - تاريخياً وآثارياً	المهندس : اسماعيل نوفل
٢٠	٥/١٧	ملامح الفن التشكيلي في حلب قرن ١٧-٢٠	طاهر البني
٢١	٥/٢٤	جولة في حواري حلب القديمة	ضياء قصبجي
٢٢	٥/٣١	شخصية عمر أبو ريشة	د.عمر الدقاق
٢٣	٦/٧	أفكار عربية غيّرت العالم	د.محمد جمال طحّان
٢٤	٦/١٤	قراءة في كتاب اللباد	المهندس تميم قاسمو
٢٥	٦/٢١	جولة في رحاب المتنبي	الباحث محمد قجة
٢٦	٦/٢٨	دور الاتصالات الحديثة في حياتنا	مجموعة

برنامج الزيارات داخل مدينة حلب للنصف الأول من عـام ٢٠٠٦ م

توقيت التجمُّع: التاسعة صباحًا.

الرقم	مكان الزيارة	التاريخ والساعة	مكان التجمع
١	المتحف الوطني	الجمعة ٢٠٠٦/٣/١٧	ساحة المتحف
٢	حي الجديدة - الكنائس الأثرية	الجمعة ٢٠٠٦/٣/٢٤	ساحة فرحات
٣	قلعة حلب - خان الشونة	الجمعة ٢٠٠٦/٣/٣١	أمام القلعة
٤	الجامع الأموي - الحلوية - المدرسة الشرفية	الجمعة ٢٠٠٦/٤/١٤	أمام الجامع الأموي
٥	باب انطاكية - الشعيبية - القيقان - البيمارستان النوري	الجمعة ٢٠٠٦/٤/٢٨	أمام باب انطاكية
٦	المدرسة العثمانية - خان قورت بك - جامع المهمندار - قصر جنبلاط	الجمعة ٢٠٠٦/٥/١٢	ساحة السبع بحرات
٧	خان الوزير - جامع الفستق - المطبخ العجمي- البهائية - خان خاير بيك - زاوية أصلان دادا	الجمعة ٢٠٠٦/٥/٢٦	أمام خان الوزير
٨	مدرسة ابن العديم - جامع التوبة - جامع السكاكيني- جامع الطواشي	الجمعة ٢٠٠٦/٦/٢	أمام القلعة
٩	باب النصر - تراب الغرباء - أوج خان - المصبنة جامع الميداني	الجمعة ٢٠٠٦/٦/٩	أمام باب النصر
١٠	باب الحديد- جامع بنقوسا- بيت مامو- جامع الحدادين	الجمعة ٢٠٠٦/٦/٢٣	أمام باب الحديد

برنامج الرحلات داخل القطر العربي السوري لعـام ٢٠٠٦ م

الرقم	جهة الرحلة	التاريخ	مدتها
١	سد الفرات - الرصافة - قلعة حعبر	٤/٧	يوم واحد
٢	الرقة - ديرالزور - حلبيا - زلابيا - ماري	٤/٢١	يومان
٣	اللاذقية - جبلة - قلعة المرقب	٥/٥	يوم واحد
٤	كفرون - مشتى الحلو - مغارة الضوايات	٥/١٩	يوم واحد
٥	بصرى الشام - السويداء	٦/٢	يومان
٦	سد بلوران - كسب - اللاذقية	٦/١٦	يوم واحد
٧	دمشق - بلودان	٦/٣٠	يومان

الندوات والمحاضرات المقررة

حول حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

ضمن التحضيرات الجارية للاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ كثّفت اللجنة الثقافية اجتماعاتها وقدمّت اقتراحات تتضمن الندوات والمحاضرات التي تواكب الاحتفال، وقد عُرضت المقترحات على اللجنة العليا وتمت الموافقة على توجيه نداء للباحثين للمشاركة في الندوات المقررة، كل بحسب اختصاصه. وقد بدأت اللجان باستلام ملخصات الأبحاث ومخططاتها لدراستها والموافقة على ما يتناسب منها وتوجهات اللجان العلمية للندوات المقترحة كما ترحّب اللجان بكل اقتراحات أخرى من شأنها إغناء المحاور المطروحة. والنداء موجّه إلى كل من يجد في نفسه الكفاءة للمشاركة، أو ترشيح من يراه مناسباً من الباحثين.

الندوات المقررة ومحاورها الأساسية

١- الإسلام وحقوق الإنسان (حلب نموذجًا)

الموعد: ٢٠-٢١-٢٢ آذار (مارس) ٢٠٠٦

المكان: مدرج الطب الكبير (جامعة حلب)

الجهة الراعية: وزارة الأوقاف

محاور الندوة:

- فكرة حقوق الإنسان عبر التاريخ
- مفهوم الحرية والفرد والجماعة في الإسلام: التأويل - الاجتهاد - الرق
- ميادين حقوق الإنسان في الإسلام: العمل - المرأة الحياة العامة
- مصادر حقوق الإنسان في الإسلام
- العلاقات الإسلامية المسيحية عبر التاريخ (حلب نموذجاً)

٢- حلب وحوار الحضارات:

الموعد: ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ نيسان (أبريل) ٢٠٠٦

المكان: مدرج الهندسة الميكانيكية (جامعة حلب)

الجهة الراعية: مجلس مدينة حلب

محاور الندوة:

- مدخل تاريخي: حلب ملتقى القارات والشعوب والحضارات
- التنوع الثقافي والديني والعرقي في إطار العيش المشترك
- المصادر المكونة للثقافات في حلب
- أثر العلاقات الاقتصادية في التمازج الحضاري
- الحوار المسيحي الإسلامي في التاريخ العربي (التصوف - اللغة والأدب - التوحيد والوحي)
- رموز تاريخية في حوار الحضارات: ابن عربي - السهروردي - النسيمي

٣- الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة

الموعد: ١٩- ٢٠- ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٦

المكان: مدرج إيبلا (كلية الآداب - جامعة حلب)

الجهة الراعية: جامعة حلب.

محاور الندوة:

- مدخل تاريخي: الدولة الحمدانية في إطار القرن الرابع الهجري
- النتاج الفلسفي في بلاط سيف الدولة (الفارابي وآخرون...)
- المناظرة الأدبية في بلاط سيف الدولة (أبرز الشعراء)
- الحركة اللغوية والنقدية في بلاط سيف الدولة
- الحياة العلمية: النتاج الطبي والفكري والمعماري...
- صورة المجاهد في النتاج الشعري في عصر سيف الدولة
- خصائص الفكر السياسي في تلك المرحلة

٤- النتاج العلمي والفكري لمدينة حلب في العصور الإسلامية

الموعد: ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٦

المكان: مدرج معهد التراث العلمي العربي (جامعة حلب)

الجهة الراعية: غرفة الصناعة.

محاور الندوة:

- المكونات العلمية لحركة تطور الفكر والعلوم في مدينة حلب
- النتاج الفكري: تاريخ - رحلات وجغرافية - فلسفة - لغات
- النتاج العلمي: الطب - الفلك - الزراعة والري - الصناعات
- (البيمارستانات - المراصد - النواعير - الأقنية)
- التأليف العلمي والموسوعي في المجالات النظرية والتطبيقية
- أبرز أعلام الفكر والعلوم في تاريخ حلب

٥- الحياة الاقتصادية في حلب عبر التاريخ:

الموعد: ٥-٦-٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٦

المكان: مدرج السكك الحديدية

الجهة الراعية: غرفة تجارة حلب

محاور الندوة:

- الموقع الاستراتيجي لمدينة حلب بين القارات
- موقع حلب بين المتوسط والفرات على طريق التجارة العالمية
- تجارة حلب في العصور القديمة: العمّوريون - الحثيون - الآرامين - الرومان...
- حلب في العصور الإسلامية وموقعها الاستراتيجي
- تجارة حلب في العصور الإسلامية:
  العصر الأيوبي - العصر المملوكي - العصر العثماني
- القنصليات والممثليات التجارية في حلب
- دور الخانات والأسواق وأبرز المواد التجارية
- اقتصاد حلب في العصر الحديث

٦- التراث الثقافي غير المادي لمدينة حلب في العصور الإسلامية

الموعد: ١٧-١٨-١٩ إيلول (سبتمبر) ٢٠٠٦م

المكان: مديرية الثقافة بحلب

محاور الندوة:

- التراث الشعبي لمدينة حلب: أشكاله، مجالاته، مزاياه
- الأمثال الشعبية ومدلولاتها الاجتماعية والثقافية
- الموسيقى وتطورها:

- الموسيقى الدينية والزوايا والتكايا
- الطرب والغناء والموشحات والقدود
- المؤثرات البيئية بالحركة الموسيقية
- الأزياء وارتباطها بالثقافات والبيئة
- المطبخ الحلبي عبر التاريخ
- قراءة في موسوعة الأسدي

٧- دور حلب في حركة النهضة القرن (١٩-٢٠)

الموعد: ٥-٦-٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٦

المكان: صالة فندق شيراتون بحلب

محاور الندوة:

- مدخل تاريخي (حلب مطلع القرن ١٩)
- الطباعة - الصحافة - الترجمة - الجمعيات
- مفهوم النهضة وتوجهاتها:

  الحكم الذاتي - إصلاح الخلافة - الاستقلال - الدعوات القومية
- أقطاب حركة النهضة وصلاتها برجالات عصرهم:

  الكواكبي - آل مراش - جبرائيل الدلال - بشير الغزي - كامل الغزي
- التفاعل مع حركة النهضة العربية في مصر والبلاد العربية الأخرى والعالم الإسلامي
- دور الأدب في عصر النهضة

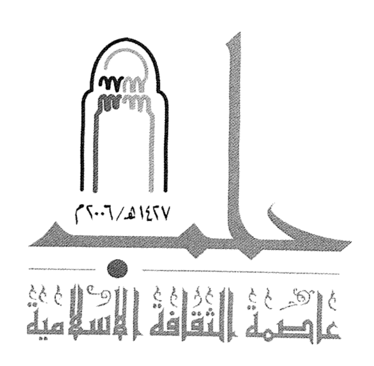
٨- فلسفة العمارة الإسلامية (حلب أنموذجاً)

الموعد: ٢٠-٢١-٢٢-٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٦

المكان: مدرج كلية العمارة (جامعة حلب)

محاور الندوة:

- التطور التاريخي والعمراني لمدينة حلب
- التراث العمراني في حلب:
  - العمارة الدينية: الجوامع والكنائس والزوايا
  - العمارة الدفاعية: القلعة والأبواب والأسوار
  - العمارة المدنية: الخانات والأسواق والحمامات والدور والبيمارستانات
  - التركيز على أمثلة بارزة: قلعة حلب - الجامع الأموي الكبير
- فلسفة العمارة وعلاقتها بالزمان والمكان والفكر الاجتماعي
- العمارة الحديثة في حلب وصلتها بالتراث العمراني
- ضرورة الحفاظ على التراث العمراني في حلب



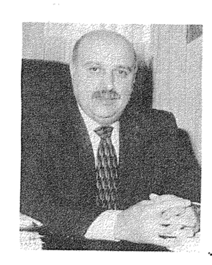
محاضرات احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

م	عنوان المحاضرة	م	عنوان المحاضرة
١	حلب في عيون الشعراء	٢	صورة حلب في أدب الرحلات
٣	بيت المتنبي في حلب	٤	اندلسيون في حلب
٥	العمارة في عصر الحمداني	٦	الحياة الفكرية أيام الظاهر غازي الأيوبي
٧	الحياة السياسية والفكرية زمن المرادسيين	٨	المعري في حلب
٩	بين المتنبي وخولة	١٠	البحتري في حلب
١١	الكواكبي والهوية العربية	١٢	الفكر السياسي لدى الكواكبي
١٣	الفكر الاجتماعي لدى الكواكبي	١٤	قيم التكافل والتضامن في الحضارة الإسلامية
١٥	ابن رشد وحوار الحضارات	١٦	ابن عربي وحوار الحضارات بين ضفتي المتوسط
١٧	حلب وطريق الحرير	١٨	العلاقات بين حلب وأوربا في العصور الوسطى
١٩	بين السهروردي وابن عربي والتصوف في حلب	٢٠	قلعة حلب (مع عرض صور)
٢١	جوامع حلب (مع عرض صور)	٢٢	رحلة الموشح من الأندلس إلى حلب
٢٣	البحث الموسيقي في حلب من الفارابي إلى العصر الحديث	٢٤	التصوف في حلب
٢٥	الجامع الأموي الكبير (مع صور)	٢٦	جامع الشعيبية وباب انطاكية (مع صور)
٢٧	حلب بين القوى المحلية والدولية خلال الحروب الصليبية	٢٨	قصر جنبلاط في حلب
٢٩	الصنوبري شاعر الطبيعة ومؤرخها	٣٠	دراسة في شخصية عمر أبو ريشة
٣١	بين خالد ابن الوليد وعمر أبو ريشة	٣٢	نزار قباني في شعره السياسي
٣٣	بين الحداثة والتراث	٣٤	التراث الفلسفي الإسلامي في حلب
٣٥	التراث الطبي في حلب	٣٦	التراث الموسيقي في حلب
٣٧	حول لهجة حلب	٣٨	حول تسمية حلب
٣٩	حلب مدينة كوسمو بوليتية	٤٠	حلب بين عام/١٨٠٠ - ٢٠٠٠/

م	عنوان المحاضرة	م	عنوان المحاضرة
٤١	الصالونات الأدبية في حلب	٤٢	الصحافة في حلب
٤٣	دور حلب في حركة النهضة	٤٤	ابن العديم الوزير والمؤرخ
٤٥	الكواكبي	٤٦	أبو ريشة
٤٧	شكيب الجابري	٤٨	كامل الغزي
٤٩	راغب الطباخ	٥٠	إبراهيم هنانو
٥١	سعد الله الجابري	٥٢	خير الدين الأسدي
٥٣	الكتلة الوطنية والنضال السياسي	٥٤	نور الدين الزنكي وانطلاقة التحرير
٥٥	شعراء حلب في القرن العشرين	٥٦	الفكر العربي والقرن الحادي والعشرون
٥٧	تحديات العولمة فكريا وثقافيا	٥٨	الإرهاب والتراث الإسلامي
٥٩	القنصليات في حلب خلال /٨/ قرون	٦٠	دور الفرات في النقل المائي إلى حلب
٦١	حلب منعطف الحروب الصليبية	٦٢	الأوقاف في حلب
٦٣	حمامات حلب	٦٤	الأخلاق الطبية في الإسلام
٦٥	التدريب المهني في حلب	٦٦	الحروفية في الفن الإسلامي
٦٧	الحركة الفنية في حلب	٦٨	المدرسة الحلبية في الموسيقا
٦٩	ابن الوردي	٧٠	الأهازيج الشعبية
٧١	الفن التشكيلي في حلب	٧٢	الفن التشكيلي والإسلام
٧٣	رمضان في حلب	٧٤	المناخ والبيئة في حلب
٧٥	الوطن العربي في الإبداع الموسيقيالأرمني	٧٦	دور حلب في التكافل الإقليمي
٧٧	حلب واقتصاد العصر	٧٨	البحث عن طرادوة هوميروس
٧٩	إنجازات العرب في الفيزياء	٨٠	الوحدة الوطنية بين الأمس واليوم
٨١	حلب والفلسفة في العصور الإسلامية	٨٢	حلب وشمال سورية بين الحربين
٨٣	تاريخ التصوف في الإسلام	٨٤	دور حلب خلال الغزو الصليبي
٨٥	بين مملكة ماري وحلب	٨٦	ابن سلوم الطبيب الحلبي
٨٧	قسطاكي حمصي	٨٨	حلب والحركة الفكرية في القرن ١٩
٨٩	حلب على أعتاب الحداثة	٩٠	الصيدلة في حلب عبر التاريخ
٩١	الفلك في حلب عبر التاريخ	٩٢	التقانة في حلب
٩٣	تطور النتاج العلمي في تاريخ حلب	٩٤	الفكر الرياضي في حلب عبر التاريخ
٩٥	الفلك في عصر سيف الدولة	٩٦	أعلام الرياضيات في حلب
٩٧	صفحات من تاريخ الطب في حلب	٩٨	الطب في عصر الأيوبيين في حلب

م	عنوان المحاضرة	م	عنوان المحاضرة
٩٩	ينبوع الذهب فيما كتب عن حلب	١٠٠	روائيات من حلب
١٠١	طب العيون في حلب	١٠٢	وجدانيات من حلب
١٠٣	حلب في عصور ما قبل التاريخ	١٠٤	حلب وبدايات التاريخ
١٠٥	حلب في المرحلة الكلاسيكية	١٠٦	المدارس القديمة في حلب
١٠٧	الأمثال والحكايات الشعبية	١٠٨	من حلب إلى أصفهان
١٠٩	حلب في كتابات المؤرخين الأرمن	١١٠	دور المطبوعات المسيحية في عصر النهضة
١١١	الاجتهاد في الإسلام	١١٢	حركة التجديد الإسلامي المعاصرة
١١٣	المطبخ الحلبي	١١٤	بين حلب والبندقية
١١٥	محطات التلاقي بين المسيحية والإسلام في عصر النهضة	١١٦	التسامح الديني من خلال نصوص إسلامية ومسيحية مبكرة
١١٧	حلبيون في المهاجر العالمية	١١٨	العمارة الدينية في حلب
١١٩	دور المؤسسات الأجنبية في العمل الآثاري	١٢٠	القيساريات في حلب
١٢١	خصوصية العمارة الحلبية	١٢٢	قراءة في مذاكرات دارفيو
١٢٣	الرواية المعاصرة والتراث	١٢٤	مجلة الجامعة الإسلامية
١٢٥	قراءة في مجلة الحديث	١٢٦	تاريخ القضاء في حلب
١٢٧	مفهوم التوبة بين المسيحية والإسلام	١٢٨	خصائص الموشح الحلبي
١٢٩	قراءة في كتاب الأخوين راسل	١٣٠	الفكر العربي والقرن الحادي والعشرون
١٣١	اقتصاديات حلب عبر التاريخ	١٣٢	أسواق حلب
١٣٣	شذرات حلب	١٣٤	حلب والفتح الإسلامي
١٣٥	الفضاء الحلبي في الرواية المعاصرة	١٣٦	تاريخ المسرح في حلب
١٣٧	البعد التراثي في الرواية المعاصرة	١٣٨	الموقع الاستراتيجي لمدينة حلب
١٣٩	التأثير والتأثر بين حلب والأندلس	١٤٠	حي الجديدة (تاريخ وعمارة)
١٤١	تنقيبات قلعة حلب	١٤٢	أعمال الترميم في الآثار الإسلامية
١٤٣	الطرب الحلبي	١٤٤	البحث الموسيقي في حلب
١٤٥	من عمر البطش إلى بكري الكردي	١٤٦	موسيقيو حلب في القرن العشرين
١٤٧	مشهد الحسين في حلب	١٤٨	حلب في كتابات المستشرقين
١٤٩	حلب على أبواب قرن جديد		



يا أبناء حلب..

د. م. تامر الحجّة *

الشهباء.. هذه المدينة العريقة عراقة الكون والقديمة قدم التاريخ تفتح ذراعيها اليوم لاستقبال رموز العالم شرقه وغربه ولتقول لهم جميعا إن مدينة حلب هي النموذج للمدن الإسلامية والمثال للحوار الحضاري والتفاهم الإنساني والعيش المشترك منطلقة من الأساس المتين المتمثل بقوله تعالى: ﴿يَا أيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

إن اختيار المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم والتربية مدينة حلب لتكون عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٧ هجرية ٢٠٠٦ ميلادية جاء وفق أسس ومعايير موضوعية تتصل بعراقتها العمرانية وتراثها الفكري والفني ودورها الاقتصادي المتميز وهذه الأسس جميعا هي التي جعلت من حلب درة المدن وجعلت الرحالة والمؤرخين والأدباء والشعراء يتغنون بها ويفتنون بمزاياها الكبرى.

---

* محافظ حلب.

إن هذا الاختيار بمثابة تحدٍّ لجميع الإمكانات البشرية والفنية والمادية ومصارعة الزمن والمصاعب لنتمكن من تقديم صورة هذه المدينة العريقة و ننفض عنها غبارا حجب بعض بريقها.

إن الدعم الحكومي المستمر لترميم المباني الأثرية ودعم البنى التحتية وبالتفاعل الخلاق والكبير لأبناء هذه المدينة الذين أعطوا واجزلوا ليكون هذا العام عام عطاء فكري وثقافي وفني ومالي.

إن احتفالية حلب خلال هذا العام ستشمل إلقاء اكثر من مئتي محاضرة وعشر ندوات دولية يشارك فيها باحثون من أنحاء العالم وطباعة اكثر من مئة كتاب حول حلب وتراثها وآفاق مستقبلها، ولقد تمّ وضع خطة لترميم بعض المباني الأثرية في المدينة وتأهيلها لتكون متاحف أو مدارس أو منتديات ثقافية وإقامة العديد من الأنشطة الفنية والاجتماعية وكذلك خُطِّطَ لإقامة اكثر من عشرين معرض متخصص في الفن التشكيلي والتصوير الضوئي والصناعات التقليدية والأزياء التراثية والمخطوطات والوثائق والطوابع..

إن حلب تمد يدها مصافحة ومرحبة بكل ضيوفها.

فيا أهل حلب كونوا يدًا واحدةً وتكاتفوا لكي يرى العالم حقيقة مدينتكم الناصعة، وسموَّ الدين الإسلاميّ الذي أُرسِلَ رحمةً للعالمين.

والأمل كبيرٌ في أن تظهروا على ما عُهدتُم عليه من محبّةٍ لدينكم وبلدكم ووطنكم عبر تاريخ المدينة الموغل في القِدَم لتكون حلب -كما كانت دائماً- درّة الشرق المتلألئة. إنّ اللّه لا يُضيع أجرَ مَن أحسن عملاً■

العاديّات

فصلية تُعنى بشؤون التراث والفكر •• تصدرها جمعية العاديات



في الأعداد القادمة ..

بانوراما الاحتفالية

الموّال الديني

قصة اكتشاف كنز قلعة حلب

ثانويّة المأمون